المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية
مكة المكرمة

ميناء الشحر

في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

دراسة تاريخية حضارية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة

شيخة بنت صالح بن محمد شعيب

إشراف الأستاذ الدكتور

عمر بن سالم بابكور

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

ملخص الدراسة

*** موضوع الدراسة : ميناء الشحر في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي – دراسة تاريخية حضارية .**

*** منهج الدراسة :** استخدمت الدراسة منهج البحث التاريخي في تناول الأحداث التاريخية والحضارية التي تعرض لهـا ميناء الشحر في تلك الفترة التاريخية .

*** هدف الدراسة :** تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على الأهمية التاريخية والحضارية لذلك الميناء ، وما كان يتمتع به من أهمية استراتيجية جعلته مجال جذاب واستقطاب للقوى الأوروبية الصليبية .

ولتحقيق الهدف تكونت الدراسة من عدة فصول موضحة على النحو التالي :

*** المقدمة :** وهي دراسة لأهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، ودراسة نقدية لأهم المصادر التي اعتمد عليها البحث .

*** التمهيد :** (الأوضاع في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية قبيل قدوم البرتغاليين منذ أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي) ، وقد تضمن الحديث عن :

١) لمحة جغرافية عن ميناء الشحر . ٢) الحالة السياسية . ٣) الحالة الاقتصادية .

٤) الحالة الاجتماعية . ٥) الحالة الدينية والثقافية .

*** الفصل الأول :** (دوافع الاستعمار الأوربي وتطورها) ، وقد تناولت الدراسة فيه :

١) الدافع الديني . ٢) الدافع الاقتصادي . ٣) الثورة الصناعية في أوروبا .

*** الفصل الثاني :** (الأطماع البرتغالية في ميناء الشحر وموقف المسلمين من الغزو الصليبي الاستعماري في المنطقة) ، وقد تضمن :

١) غزو البرتغاليين لميناء الشحر . ٢) الكثيريون حكام الشحر . ٣) موقف سكان الشحر من الغزو الصليبي الاستعماري الأوروبي .

*** الفصل الثالث :** (نتائج الغزو البرتغالي للشحر) ، وقد تناول الحديث عن :

١) سيطرة البرتغاليين على مراكز التجارة في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية .

٢) تحالف البرتغاليين مع الحبشة وموقف العثمانيين من ذلك التحالف .

٣) لفت أنظار القوى الأوروبية لأهمية موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية . ٤) آثار الغزو البرتغالي على سكان الشحر .

*** الفصل الرابع :** (أهم مظاهر التطور الحضاري في منطقة الشحر) ، وهذا الفصل يمثل الناحية الحضارية لهذه المنطقة وذلك في عدة نقاط منها : ١) المظاهر العمرانية : (التحصينات الحربية – المرافق العمرانية الأخرى) .

٢) الحياة العلميــة : (العلوم الشرعية – العربية – التطبيقية) .

٣) الحالة الاجتماعية : (عناصر السكان – العادات والتقاليد) .

*** الخاتمة :** فقد تناولت أهم النتائج التي توصل إليها البحث ، ومنها :

١) أن الموقع الاستراتيجي المتميز لميناء الشحر ، جعله مجال جذاب واستقطاب لاستعمار الدول الأوروبية الصليبية لهذا الميناء الحيوي والمهم آنذاك .

٢) أثبتت الدراسة أن جنوب غربي شبه الجزيرة العربية كان عرضة في تلك الفترة للمشاكل السياسية والصراعات الداخلية ، والذي أسهم بشكل مباشر في إضعاف قوة المسلمين عامة وأنها كانت من أهم الأسباب التي دفعت بالدولة العثمانية للتدخل في شؤون جنوب غربي شبه الجزيرة العربية دفاعاً عن سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة .

٣) برهنت الدراسة على العلاقات الودية بين السلطان العثماني سليمان القانوني وبين السلطان بدر الكثيري .

٤) أثبتت الدراسة الدور الإيجابي للعثمانيين في امتناع البرتغاليين عن الاتصال بالحبشة، خوفاً من النشاط العثماني في السواحل الحبشية.

٥) أن النفوذ البرتغالي في موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية بما فيها غزوهم لميناء الشحر ، كان قد لفت أنظار القوى الاستعمارية الأخرى ـ الهولندية والإنكليزية ـ إلى أهمية الموقع الاستراتيجي لتلك الموانئ .

الباحثة

Search Abstract

The subject of the study : El-Shahr port in the tenth century H-Sixteenth C. Ad - Civilized historical study .

The Methodology of the study : The study used the methodology of historical research in dealing with the civilized and historical events which El-Shahr port Faced in this period .

Aim of the study :

The study aim at ensuring the historical and civilized importance of this port which a attracted the European forces.

In order to achieve this aim, the study consists of many sections as follow :

Introduction : which includes the importance of this subject, the reasons of choosing it and a critical study for the most important resources which the study depends on .

Preamble : " The conditions in south east of Arabian Peninsula, before the Portugal coming in the last years of 19 C. H/15 C. AD " which includes :

1) The geographic view of El-Shahr port .
2) The politic condition .
3) The economic Condition .
4) The social condition .
5) The religious and cultural condition .

The first section : " The motives of European invasion and its development " .

The study includes :

1) The religious motives .
2) The economic motives.
3) The industrial revolution n Europe .

The second section : " European purposes in El-shahr port and the Muslims situation from the crusaders invasion for this region " . Which includes.

1) Portugal's invasion to El-shahr port .
2) Many judies of El-shahr .
3) The population of El-shahr situation from the invasion .

The third section : " The results of Portugal's invasion to El-shahr " which includes :

1) Portugal's control to the commercial centers in south east of Arabian Peninsula .
2) The Unity of Portugal's people and Al-Habashah and the Othman situation from this Unity .
3) Attracting European forces attention to the importance of Arabian Peninsula ports .
4) The effects of Portugal's invasion on El-shahr people .

The fourth section :

" The most important civilized features of El-shahr region " which describes the civilized position of This region as follow :

1) Urban planning (war fortification – Urban services) .

2) The scientific life (religious science – Arabic science – and applied science) .

3) The social state (population – traditions and customs) .

Conclusion : It includes the important results :

1) strategic position of EL shahr port which attracted invasion .

2) The study ensured that the position of south east of Arabian Peninsula faced many political problems which weaken the Muslims forces . Also, It was one of the most important reasons for interfering Othman to its affairs to defend the Holly Islamic places .

3) the study proofed the intimate relations between Al-Sultan Suleiman Al-kanonoi and El-Sultan Badr-El-Den .

4) the study proofed Othman positive role to prevent the Portugal's invasion to reach at El- Habashah .

5) The Portugal's authority in south east Arabian Peninsula ports and its invasion to El-Shahr port , attracted the other invasions forces (Holland, England) to the importance of these ports' positions .

الإهـــــداء

... ربي... وحدك المستحق لكل الحمد والثناء .

... إلى روح أبي ... الذي كان خير الآبــاء .

... أمي ... نبع الرحمة والعطف والعطاء .

... أخوتي ... رمز الرعاية والأخوة والوفاء .

... أحبتي.. أهديكم بكل الرضا والولاء .

... ثمرة جدي واجتهادي .

... وقطافاً من باكورة حصادي .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــــة

الحمد لله نحمده ، ونشكره ونستعينه ونستغفره،ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي الأمين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ... أما بعد

فقد احتلت منطقة جنوب شبه الجزيــرة العربيــة – والجزء الجنــوبي الغــربي منــها – موقعــاً استراتيجياً متميزاً منذ القدم ، لإشرافها على أهم المسطحات المائية العالمية ، وهي بحــر العرب الذي يطل بدوره على المحيط الهندي.كما أ ا بحكم ذلك الموقع الاستراتيجي كانت تمثــل مراكز ومحطات مهمة لطرق التجارة العالمية ، وخاصة تجارة التوابل التي كانت خــلال القــرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أهم مجال للنشاط التجاري العالمي ، وأهم باعث علــى خروج الرحلات الاستكشافية الصليبية لاحتلال المراكز الحيوية وتحقيق أطماعهم الدينية ومن ثم الاقتصادية في العالم الإسلامي . وقد ظهرت أثناء ذلك الأهمية الاستراتيجية التي تحتلــها مــوانئ جنوب غربي شبه الجزيرة العربية،حيث أدرك البرتغاليون أن سيطر م على تجــارة الهنــد المــارة بالخليج العربي والبحر الأحمــر ، لن تتحقق لهم إلا بالسيطرة على تلك الموانئ ، ومنــها مينــاء الشحر لتحكمــه فــي الطريــق البحــري بين الخليــج العربي والبحر الأحمر .

ومن أهم الدوافع التي أثارت اهتمام البرتغاليين للسيطرة على ذلك الميناء هي :

أ) الدافع الديني . بحيث يمكنهم بالسيطرة على موانيء جنوب غربي شبة الجزيرة العربية – بما فيها ميناء الشحر – الوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز .

ب) الدافع الاقتصادي : بالسيطرة على أهم المواقع الاستيراتيجية لطرق التجارة العالمية .

كما أن الحالة السياسية التي كانت عليها جنوب شبه الجزيرة العربية من انتشار الفتن والاضطرابات الداخلية ، كانت من بين أهم العوامل التي ساعدت البرتغاليين في السيطرة على ذلك الميناء .

وسوف تظهر من خلال الدراسة الأسباب التي دفعت الدولة العثمانيـة إلى التـدخل في شؤون جنوب شبه الجزيرة العربية حفاظاً على سلامة الأماكن الإسـلامية المقدسـة والتـصدي للخطر الصليبي البرتغالي . ومن هذا المنطلق يبرز العامل الرئيسي في اختيار موضوع الرسالة على النحو التالي :

(ميناء الشحر في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي دراسة تاريخية حضارية)

لتسليط الضوء على الأهمية التاريخية والحضارية لذلك الميناء ، وما كان يتمتع به من أهمية استراتيجية جعلته مجال جذب واستقطاب للقوى الأوروبية الصليبية الحاقدة .

وكان لزاماً علي معرفة أهداف ومطامع الدول الاستعمارية الأوروبية في المنطقة والاتجاهات السياسية والعسكرية لتلك الدول والتي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الوثائق الـتي هـي المصدر الأساسي لإثراء المادة العلمية للبحث . وقد تطلب الأمر البحـث في الوثـائق التركيـة والإنكليزية التي تهم موضوع الدراسة ، بالإضافة إلى المخطوطات العربية ومـن أجـل ذلـك سعيت لرحلة علمية إلى القاهرة للاطلاع على الوثائق التي تفيـد البحـث في كـل مـن : دار الوثائـق القومية ، وفي مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، والمكتبـة المركزيـة بجامعة القاهرة ، ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة. وكان هناك أيضاً بعض الوثائق والمـصادر المهمة التي يعتمد عليها البحث وقد سعيت جاهدة للحصول عليها من خلال اتصالاتي الشخصية في كلٍ من تركيا واليمن ، حيث أخذ ذلك وقتاً طويلاً – أثر على سير البحث – كما كلفـني الجهد والقلق حتى تمكنت بفضل الله،من تأمين تلك الوثائق المهمة .

كما اعتمدت الدراسة على الكتب المتوفرة في كلٍ من : مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض ، ودارة الملك عبد العزيز ، ومركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القـرى . وكثير من المراجع التي حصلت عليها أثناء رحلتي العلمية .

ومن بين عشرات المصادر والمراجع التي رجعت إليها أثناء التحضير لهذا البحث لم أجد إلا القليل الذي يتناول الموضوع من أكثر من جانب ، ولعل أهمها كان كتاب (تـاريخ الـشحر)

لبافقيه . في حين اكتفت المراجع الأخرى بالإشارة إلى ذلك الميناء من الناحية التاريخية ولكن بإيجاز في تناول الناحية الحضارية لذلك الميناء .

أما بالنسبة للمصادر التي أفادت البحث فقد كانت المصادر اليمنية المعاصرة للأحداث في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ذات فائدة قيمة للبحث ومنها :

* كتاب (تاريخ حضرموت) المعروف بتاريخ شنبل لأحمد بن عبد الله شنبـل المتـوفى عـام (٩٢٠هـ/١٥١٤م) ويعد هذا المصدر من المصادر الرئيسية في كتابة التاريخ الحضرمي اليمني ، فهو مؤلف جامع لتاريخ حضرموت من بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر المـيلادي حتى أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وقـد رتـب أحداثـه ترتيبـاً زمنياً،ابتدأها بذكر حوادث عام (٥٠١ـ ٩٢٠هـ /١١٠٧ـ ١٥١٤م) . وعلى الرغم من قلة الأحداث التاريخية التي تناولها الكتاب من القرن العاشر الهجري / السادس عشر المـيلادي إلا أنه احتوى على معلومات مهمة عن منطقة الشحر وتتابع الحكام عليها وخاصة من بني كـثير ،كما تحدث عن البرتغاليين ومحاولاتهم لاحتلال الموانئ المطلة على المحيط الهندي بالإضـافة إلى تراجم لأبرز الشخصيات التاريخية .

* كتاب(النور السافر عن أخبار القرن العاشر) للمؤرخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي الحسني اليمني (٩٧٨ـ١٠٣٨هـ/١٥٧٠ـ١٦٢٨م) . الذي ولد بمدينة أحمد آباد من الهند [1] .

ويعتبر هذا الكتاب من المصادر المهمة التي أفادت البحث وقد رتبه مؤلفه زمنياً مـن سـنة (٩٠١ـ ١٠٠٠هـ/١٤٩٥ـ ١٥٩١م) . وأورد فيه حوادث وتراجم كثيرة تتعلق بتلك الفترة ومن أهمها أحداث الهجوم البرتغالي على الشحر في عهد السلاطين الكثيريين . وكذلك ذكـر أشهر علماء الشحر الذين نبغوا في مختلف العلوم آنذاك . كما تضمن معلومات عـن فتـوح الإمام أحمد بن القرين في الحبشة . غير أن تناوله لمعظم تلك الأحداث التاريخية كان مختصراً .

* ويعتبر كتاب(تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر) . لبافقيه من أهم مصادر البحث وبافقيه هو محمد بن عمر الطيب بافقيه (٩٧٠ـ ١٠٤٠هـ/١٥٦٢ـ ١٦٣٠م) وأسرة بافقيه فرع مـن

---

1 ـ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي ، النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، ص ١١ .

أسرة آل عيديد بحضرموت [٢] وقد تناول في كتابه هذا دراسة أهم الأحداث السياسية لمنطقة الشحر وعدن وحضرموت في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . وقد رتبه على أساس التسلسل الزمني للأحداث . وقد اعتمد في كتابه هذا اعتماداً كبيراً على مصادر أخرى استقى منها مادته العلمية.إذ إنه كان ينقل من الكتب الأخرى دون إضافات ذاتية تذكر إلا نادراً . ولكن ذلك لا ينقص من المادة العلمية القيمة التي احتوى عليها كتابه ، فقد رجع إلى مصدرين مهمين يعتبران في حكم المفقودين وهما :

ـ (تاريخ القرن العاشر) للمؤرخ عبد الله بن أحمد باسنجلة (ت ٩٧٧هـ/١٥٦٩م) وهو من الكتب المتخصصة في تاريخ الشحر . ـ (مسودة مذكرات تاريخية) للفقيه المؤرخ عبد الله بن عمر بن عبد الله بامخرمه (ت ٩٧٢هـ/١٥٦٤م) . وقد حوت هذه المذكرات معلومات تاريخية نادرة ومعاصرة لكاتبها تتعلق بأخبار عدن و الشحر وحضرموت [٣] .

ومما يتميز به هذا الكتاب أيضاً هو أنه غطى أحداث فترة زمنية مهمة عن منطقة الشحر في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي،أضافت معلومات قيمة للبحث . كما أنه اشتمل على ملحق خاص بمحقق هذا الكتاب يضم معجماً جغرافياً لأهم البلدان المذكورة في الكتاب بما فيها بعض المناطق الشحرية .

* أما كتاب (تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين) لزين الدين المعبري فيعتبر كذلك من مصادر البحث المهمة التي تناولت أحداث النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي وكذلك جنوب شبه الجزيرة العربية ،مع الإشارة إلى الدوافع الدينية والاقتصادية الصليبية البرتغالية في العالم الإسلامي . كما تناول حملاتهم على بلاد الهند والمحيط الهندي .

* ومن أهم المصادر مخطوط (روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح) للمؤرخ نور الدين عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الإمام يحيى شرف الدين (ت ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م) . وتقع هذه المخطوطة في (٤٣٣) ورقة احتوت على أهم الأحداث التي جرت في اليمن ولكن بصورة عشوائية زمنياً،فقد ابتدأ سرد الأحداث في الفترة الزمنية (٩٠١ ـ ٩٤١هـ/١٤٩٥ ـ ١٥٣٤م) ، ومن ثم انتقل إلى عام (

2 ـ محمد بن عمر الطيب بافقيه : تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ، ص ١٠.

3 ـ نفس المصدر ، مقدمة المحقق ، ص ٧ ـ ٨ ..

عام ٩٧٣ـ١٠٤٤هـ/١٥٦٥ـ ـ١٦٣٤م) . ثم عاد إلى ذكر حوادث مسبقة في (٩٤٢ـ٩٧٢هـ/١٥٣٥ـ١٥٦٤م) . الأمر الذي أحدث ارتباكاً في التسلسل الزمني للأحداث . ومن أهم ما احتوت عليه هذه المخطوطة من معلومات مهمة عن تلك الفترة هو محاولات البرتغاليين اختراق البحر الأحمر واستيلائهم على هرمز (مفتاح الخليج العربي) والفتح العثماني لليمن ، إضافة إلى تحالف العثمانيين مع مسلمي شرق أفريقيا ضد التحالف البرتغالي الحبشي .

* ومن أهم المخطوطات كذلك مخطوطة (السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر) لجمال الدين أبي العلاوي محمد الشلي (ت ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م) .

* ومن أهم المصادر التي استفاد منها البحث أيضاً كتاب المؤرخ سارجنت باللغة الإنكليزية (Serjeant . R.B.) وعنوانه : The portuguese off the south Arabian coast .

وتضمن كتابه معلومات مهمة عن تاريخ الغزو البرتغالي للمحيط الهندي وجنوب شبه الجزيرة العربية ، وقد تميز باعتماد مؤلفه على عدد من المصادر اليمنية،التي بحثت موضوع النشاطات البرتغالية في السواحل اليمنية مثل : تاريخ بافقيه الشحري ، وتاريخ شنبل ، وقلادة النحر لبامخرمة ، وغيرها من المصادر الأخرى . إلا أنه لم يعتمد عليها اعتماداً مطلقاً ، حيث ذكر بأن مؤرخي تلك الفترة تميزت كتاباتهم عن الغزو البرتغالي بأنها مختصرة معللاً ذلك بما حدث من غزو البرتغاليين لبلاد الهند ، وما خلفه من آثار سيئة أثرت بدون شك على أولئك الكتاب،الذين يقطنون بالقرب من السواحل العربية خاصة في ظل التهديد البرتغالي المستمر لسكان تلك السواحل ، ولذلك لم يكتف سارجنت بتلك الأحداث بل أضاف إليها الكثير من الهوامش والتعليقات المهمة .

ومن أهم ما تناوله سارجنت في كتابه هذا أحداث الغزو البرتغالي للمحيط الهندي وجنوب شبه الجزيرة العربية ، وخاصة عن تاريخ ميناء الشحر وتعرضه لذلك الغزو الصليبي ، وكذلك الحملات العثمانية إلى جنوب شبه الجزيرة العربية . كما تحدث عن حكام الشحر من بني كثير وخاصة السلطان بدر الكثيري وعلاقته بالعثمانيين ، وموقف العثمانيين من الغزو البرتغالي والتحالف البرتغالي الحبشي ، وجهاد الإمام أحمد القرين ضد البرتغاليين . وغير ذلك من الأحداث المهمة التي اشتمل عليها هذا الكتاب .

أما البحث فيحتوي على : مقدمة ، تمهيد ، أربعة فصول ، وخاتمة .

المقدمة : وهي دراسة لأهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، ودراسة نقدية لأهم المصادر التي اعتمد عليها البحث .

التمهيد : اشتمل على دراسة الأوضاع في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية قبيل قدوم البرتغاليين في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي.ومن أهمها إعطاء لمحة عن جغرافية ميناء الشحر،والأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية التي كان عليها جنوب غربي شبه الجزيرة العربية بما فيها منطقة الشحر آنذاك .

الفصل الأول : بعنوان : (دوافع الاستعمار الأوروبي وتطورها) تناول دراسة الدوافع التي أدت إلى حركة الكشوف الجغرافية وبخاصة الدافع الديني،حيث اتضح من خلاله أن الدوافع الدينية كانت في مقدمة الدوافع الاستعمارية الصليبية الأوروبية ومن ثم الدافع الاقتصادي والذي يتناول أهم البعثات البرتغالية إلى بلاد الشرق بهدف الوصول إلى بلاد الهند لغرض سيطرتهم على تجارة الشرق الغنية،وأهم المكاسب الاقتصادية التي حققها البرتغاليون نتيجة لاكتشافهم رأس الرجاء الصالح ، وموقف المماليك من ذلك الخطر البرتغالي .كما تضمن هذا الفصل الثورة الصناعية في أوروبا ، على اعتبار أنها دافع من دوافع الاستعمار الأوروبي ، وكيف أن هذه الثورة كانت من أهم النتائج المترتبة على المكاسب الاقتصادية الكبيرة التي حققها البرتغاليون في بلاد الشرق .

الفصل الثاني : بعنوان : (الأطماع البرتغالية في ميناء الشحر وموقف المسلمين من الغزو الصليبي الاستعماري في تلك المنطقة) فقد درس غزو البرتغاليين لميناء الشحر وأسباب هذا الغزو ، ومن أهمها تحقيق دوافعهم الدينية ومن ثم الاقتصادية في السيطرة على تجارة الهند .

كما تتبع الفصل مراحل الغزو البرتغالي لميناء الشحر ، و التدخلات العثمانية الأولى لفرض حمايتها على موانئ جنوب غربي شبه الجزيرة العربية.وطبيعة العلاقات بين السلطان بدر الكثيري (حاكم الشحر) وبين العثمانيين لمواجهة ذلك الخطر البرتغالي . كذلك ناقش الفصل تاريخ حكام الشحر من بني كثير وخاصة السلطان بدر الكثيري وجهوده التي بذلها في سبيل توطيد الأمن والاستقرار الداخلي.وموقف سكان الشحر

من الغزو البرتغالي وتطلع السلطان بدر الكثيري إلى طلب مساعدة العثمانيين ضد الخطر البرتغالي .

الفصل الثالث : بعنوان : (نتائج الغزو البرتغالي للشحر) . ناقش فيه محاولات البرتغاليين السيطرة على مراكز التجارة في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية . وألقى الضوء على الحملات العثمانية لمواجهة الغزو البرتغالي للبحار الشرقية ومن ثم العوامل التي أسهمت في إضعاف القوة البحرية العثمانية في مواجهة العدوان البرتغالي . كما تناول الفصل تحالف البرتغاليين مع الحبشة بهدف تكوين حلف صليبي ضد الإسلام والمسلمين في شرق أفريقيا ، وكذلك القضاء على قوة الدولة العثمانية في البحر الأحمر وبحر العرب . ومن ثم موقف العثمانيين من ذلك التحالف.كما ناقش الفصل ظهور الأطماع الأوروبية الاستعمارية الأخرى للتنافس على تجارة الشرق.نتيجة لتدهور الاستعمار البرتغالي في البحار الشرقية . وكذلك أهم آثار الغزو البرتغالي على سكان الشحر دينياً واقتصادياً وسياسياً .

الفصل الرابع : بعنوان : (أهم مظاهر التطور الحضاري في منطقة الشحر) فهو يمثل الناحية الحضارية لهذه المنطقة وذلك في عدة نقاط:منها المظاهر العمرانية للشحر ، والتي تشتمل على التحصينات الحربية ونظام المباني وأشهر المساجد،والعملة المتداولة وغيرها.كما ناقش الفصل موضوع الحياة العلمية في الشحر من علوم (شرعية وعربية وتطبيقية) ، إضافة إلى ذكر أهم العلماء الذين برزوا في مختلف العلوم . كذلك تحدث الفصل عن الحياة الاجتماعية،وما تضمنته من عناصر السكان والعادات والتقاليد التي كانت متبعة في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية والتي يمكن تطبيقها على منطقة الشحر .

الخاتمة : فقد تناولت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.وأهم آثار الغزو البرتغالي لميناء الشحر . كما اشتمل البحث على ملاحق منها لنماذج الوثائق التي استعانت الدراسة بها . ومنها للخرائط الخاصة بالبحث ، ومنهاللصورالتي استفاد منها البحث .

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجه بخالص شكري وتقديري لسعادة أستاذي المشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور/ عمر بن سالم بابكور الذي لم يبخل علي بتوجيهاته وإرشاداته العلمية إضافة إلى ما وفره لي مشكوراً من مصادر ومراجع مهمة لإتمام هذا البحث .

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى سعادة الأستاذة الدكتورة/أميرة مداح لما قدمته ليّ من توجيهات قيمة خلال السنة المنهجية .

وأتقدم بجزيل شكري إلى المسؤولين في جامعة أم القرى :كليـة الـشريعة والدراسـات الإسلامية،قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، قسم التاريخ الإسلامي .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى كلٍ من الأستاذين المناقشين للبحث لتفـضلهما بتـوجيهي وإرشادي وسأسعى بإذن لله جاهدة أن أعمل بكل توجيها ما . وكذلك أتوجه بالشكر إلى كـل من أسهم في إفادة هذا البحث . جزى الله الجميع عني وعن طلاب العلم كل خير .

وأسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في دراسة هذا البحث المتواضع وإبـرازه إلى حيز الوجود على الصورة التي يمكن أن تلقي الضوء على الأهمية التاريخية والحضارية لميناء الشحر الحيوي والمهم في تلك الفترة التاريخية المعنية بالدراسة . والله من وراء القصد فهو نعم المولى ونعم النصير .

التمهيد

الأوضاع في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية قبيل قدوم البرتغاليين

منذ أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي

* لمحة جغرافية عن ميناء الشحر .

* الحالة السياسية .

* الحالة الاقتصادية .

* الحالة الاجتماعية .

* الحالة الدينية والثقافية .

لمحة جغرافية عن ميناء الشحر :

يشكل العامل الجغرافي عنصراً مهماً في تحديد الأهمية التاريخية والحضارية لأية دولة من دول العالم المختلفة . ومنذ القدم والدول المطلة موانئها على أهم المسطحات المائيـة ـ من أ ار وبحـار ومحيطات ـ كانت تحظى بأهمية عالمية كبرى ـ بحكم موقعها الاستراتيجي ـ وخاصة وأ ا تقوم بـدور الوسيط بين العالم الخارجي وبين المدن الداخلية ، الأمر الذي كان له أثره بشكل مباشر أو غير مباشر في كافة ا ـالات الدينيـة والـسياسية والاقتـصادية والاجتماعية والثقافية .

وقد حظيت شبه الجزيرة العربية بموقع استراتيجي متميز منذ القدم ، إذ إ ـا محاطـة بالمسطحات المائية من ثلاث جهات ، فمن الغرب يحدها البحر الأحمر وخليج العقبة ، ومـن الشرق الخليج العربي ، ومن الجنوب يحدها البحر العربي وخليج عـدن ، وكانـت تـسير حدودها قديما من الشمال الشرقي مع الحافة الغربية لشط العرب و ر الفرات حـتى خـط عرض ٢٤شمالاً ، ثم تتجه الحدود شرقاً حتى ر دجلة في الاتجاه الشمالي الغربي حتى خـط العرض ٣٦ شمالاً ، أما الحدود الشمالية فتسير حتى مرتفعات ر العاصي (*) والحدود الغربية التي تلتقي بمرتفعات جبال لبنان الداخلية لتمتد جنوباً مع حفرة الا دام الأردنية (**) باتجـاه وادي عربه ومن ثم تنتهي عند رأس خليج العقبة [1] وهكذا تتبدى أهمية الموقع الجغـرافي المتميز لشبه الجزيرة العربية ، الأمر الذي أكسبها مكانة اقتصادية عالمية منذ القدم وحـتى وقتنا الحاضر . وكان للقسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية نصيب وافر مـن هـذه

(*) ر العاصي :في البلاد السورية بين حماة والرستن، حيث يحوط بحماه يأتيها جارياً من بين جانبيها ، ويسمى كذلك النهر الأرنط . انظر : شمس الدين أبا عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، تصحيح اغشطس بن يحيى بطر بورغ مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية ، د . ط (١٢٨١هـ/١٨٦٥م) ، ص ٢٠٦ـ٢٠٧.

(**) حفرة الا دام : وهي عبارة عن وادي تكون بوط الأرض بين انكسـارين متوازيين تقريباً ويمتاز بشدة انحدار جوانبـه ويسمـى أيضاً بـ (الوادي الانكساري) أو (الأخدود) ، انظر : يوسف التوني ، معجـم المصطلحـات الجغرافيـة ، د . م ، دار الفكـر العربي ، د . ط (د . ت) ، ص ٢٠ .

(١) خالد سالم باوزير : موانئ ساحل حضرموت ، د . م ، مكتبة دار المعرفة ، ط ١ (١٩٩٦م) ، ص ٣ . انظر الملحق ، خريطة رقم (١) .

الأهمية ، نظراً لتعدد الموانئ التجارية الصالحة لرسو السفن في كل من البحر الأحمر غرباً وخليج عدن وبحر العرب جنوباً ، والتي كانت من أهم عوامل ازدهار حركة التجارة فيه . ويتميز البحر الأحمر بموقعه الوسط بين البحار الشرقية والغربية بصفة عامة ، وبين البحر المتوسط والمحيط الهندي بصفة خاصة . وأهم ما يميز هذا البحر كطريق بحري هو امتداده بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي بحيث يربط بينهما بأقصر طريق [١] .

أما خليج عدن فهو عبارة عن محيط صغير تشكل نتيجة لحركة جيولوجية أدت إلى انفصال وتزحزح كتلة شبه الجزيرة العربية عن كتلة الصومال [٢] . وبحر العرب هو ذلك الجزء من المحيط الهندي الملاصق للساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، وهو ذو أهمية كبرى ، وذلك لوجود سياج مرتفع من اليابس حول مياهه من ناحية الشمال ، حيث تتخلله مجموعة من الممرات المائية الاستراتيجية [٣] التي تخترق هذا الحصار المضروب من قبل اليابس حول مياه المحيط الهندي،وتربط مياهه بمياه المعمورة الفعال في الشمال ، هذه الممرات هي : طريق رأس الرجاء الصالح ، قناة موزمبيق وباب المندب [*] ومضيق هرمز [٤] ويتميز بحر العرب بصعوبة السير فيه ، حيث أشار ابن بطوطة إلى ذلك بقوله : (وهذا البحر لا يسافر فيه لكثرة أحجاره ، وإنما يسافرون فيه من مطلع الشمس إلى غروبها ، ويرسون وينزلون إلى البر ، فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب) [٥] . وكذلك وصف ابن جبير صعوبة الإبحار فيه بقوله : (وكانت أهوال شتى عصمنا الله منها بفضله وكرمه ، منها ما كان يطرأ من

---

(١) محمود توفيق محمود : المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، دراسة في الجغرافية السياسية والجيوبوليتكس ، الرياض ، دار المريخ للنشر ، د . ط (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ص ٨٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٩٤ .

(٣) نفسه ، ص ٨٦ ، عمر بن سالم بابكور :حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن العاشر الهجري ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث لم تنشر بعد ، بجامعة أم القرى ، ص ١٠٩ .

(*) باب المندب : يعتبر من المضائق المهمة في العالم العربي ومدخل البحر الأحمر ، كما أنه يسيطر على بحر العرب والمحيط الهندي من الجنوب . انظر : عمر سالم بابكور ، نفس المرجع ، ص ١١٩ .

(٤) محمود توفيق محمود ، نفس المرجع ، ص٧٨ .

(٥) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي : رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ج١ ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، د . ط (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) ، ص ١٥٥.

ضعف عدة المراكب واختلالها ، واقتصامها مرة بعـد المـرة عند رفع الشراع أو حطـه ، أو جذب مرسى من مراسيه) [1] .

ويتميز خط السواحل لبحر العرب بصفة عامة بالاستقامة ، وذلك يرجع إلى طبيعـة نشأته كحافات صدعيه (Fault scarps)أسهمت في نشأتنا سلسلة من العمليات الجيولوجية ، والحركات الأرضية المعقدة التي أصابت قشرة الأرض في هذه المنطقة على فترات مختلفة [2] ، ومن خلال تلك المعطيات نستطيع أن نستنتج مدى الأهمية الاستراتيجية التي حظـي ـا الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية ، والذي يتمثل في بلاد اليمن ، إذ تعتبر إقليما متسع الأرجاء ، وتمتد سواحلها الغربية على البحر الأحمر وسواحلها الجنوبية على بحر العرب المطل على المحيط الهندي [3] . ويطلق على المنطقة الواقعة في جنوب شبه الجزيرة العربية بين عمان شرقاً واليمن غرباً مسمى (حضرموت) [4] . وهي من المناطق التابعة لنفـوذ بـلاد اليمن [5] . ويتبعها إقليم مهرة [*] ناحية الشرق [6] ومن أهم مد ا الـشحر [7] . وتتميـز منطقة الجنوب العربي بأ ا منطقة مرتفعة تقع بين خطي عرض١٣ ـ ١٧شمالاً ، وهـي ذات

---

(١) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي : رحلة ابن جبير (أدب الرحـلات) ، بيروت ، دار التـراث ، د . ط (د .ت) ، ص ٢٨٧ .

(٢) محمود توفيق محمود ، المرجع السابق ، ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) علي حسين السليمان الناصر : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م ، القاهرة ، مكتبـة الأنجلو المصرية ، د . ط (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص ٨٣ . انظر الملحق ، خريطة رقم (٢) .

(٤) جاد طه : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، د . م ، دار الفكر العربي ، د . ط (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠م) ، ص ١٤. وسميت حضرموت ذا الاسـم نسبة إلى أحد الملوك الذين حكموا هذا الإقليم ، وهو حضرموت بن قحطان بن عابدين بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح ، والذي أقام دولته على أنقاض دولة عاد ، وأسست هذه الدولة قبل ثمانية عشر قرناً من ميلاد المسيح وأسمها الأصلي وادي الأحقـاف . انظر: سقاف على الكاف : حضرموت عبر أربعة عشر قرناً، بيروت ، مكتبة أسامة ، ط ١ (١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ص ٩ .

(٥) عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي : النور السافر عن أخبار القرن العاشـر ، تحقيق أحمد حالو وآخرون ، بيروت ، دار صادر ، ط ١، (٢٠٠١م) ، ص ١٠٧.

(*) مهرةَ : قبيلة حضرمية قحطانية لا تزال لها بقية فيما بين عمان وحضرموت وينسب أهلها إلى بني مهرة بن حيوان . انظر : حمد الجاسر ، لمحات عن أسواق العرب القديمة ، مجلة العرب ، الجزء ٧ ـ ٨ ، السنة الثالثة ، لعام (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م) ، ص ٥٠٩ ، علي حـسين الناصر ، نفس المرجع ، ص ٨٦ .

(٦) جاد طه ، نفس المرجع ، ص ١٤ .

(٧) علي حسين الناصر ، نفس المرجع ، ص ٨٦ .

سواحل منخفضة تتسع في أقصى الجنوب الغربي وفي الشرق ، وتضيق في الوسط بسبب اقتراب المرتفعات من الساحل ، وتصل بعض المرتفعات من الساحل إلى ما يقرب من ٣٠٠٠ متر ويمتد الساحل مسافة تقرب من ١٣٠٠كم [١] . ومن الموانئ المهمة والواقعة على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ظفار والشحر وعدن ، هذا بالإضافة إلى عدد آخر غير قليل من الموانئ الأخرى [٢] . فأما ظفار فهي مدينة على ساحل حضرموت ـ شرقاً ـ بالقرب من عمان [٣] . وكانت كثيراً ما تقع تحت سيطرة مدينة الشحر [٤] وكان ا ثغر يستقبل السفن التجارية [٥] . ويقدم عليها التجار بالبضائع المتعددة من أرجاء شبه الجزيرة العربية ، وتشتهر بوجود العنبر على سواحلها [٦] .

أما الشحر فتقع بين عدن والمهرة على الخط الساحلي الممتد من ١٤شمالاً و٤٨ـ٤٥شرقاً [٧] . وتعد الشحر من بلاد المهرة ، و يقال : إ ا قد تضاف إلى عمان [٨] . ولكننا واستناداً إلى أقوال بعض المؤرخين السابقين [٩] يمكن القول بأن الشحر تقع ضمن نطاق حضرموت ناحية بلاد المهرة . وقد أشار المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) إلى

---

(١) فيليب رفله وآخر : جغرافية الوطن العربي دراسة طبيعية اقتصادية سياسية مع دراسة شاملة للدول العربية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٤ (١٩٧٠) ، ص ٤٢٨ .

(٢) آر . بي . سارجنت : مقالات حول مصادر التاريخ الحضرمي ، ترجمة سعيد عبد الخير النوبان ، نشر جامعة عدن ، د . ط (١٩٩٠) ، ص١٣٠ انظر : الملحق ، خريطة رقم٣ .

(٣) محمد بن أحمد الحجري : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع ، ا لد الثاني ، ج٣ ، صنعاء ، دار الحكمة اليمانية ، ط ٢ (١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ، ص٥٦٤ـ ٥٦٥ .

(٤) آر . بي : سارجنت ، نفس المرجع ، ص ١٣ .

(٥) علي حسين الناصر ، المرجع السابق ، ص٨٠ .

(٦) السيد إبراهيم الحيدري البغدادي :عنوان ا دفي بيان أحوال بغداد وبصرة ونجد ، ق ـ ١٦٣ أ .

(٧) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص٤٩ .

(٨) محمد عبد اللطيف البحراوي :فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر ، القاهرة ، دار التراث ، ط ١، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ، ص ١٨.

(٩) أمثال : الشيخ معروف بن محمد باجمال : الفوايد المفيدة في ما اختصت به حضرموت من النعم العديدة (ق ـ٢ أ ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمكتبة الدكتور عبد الله الحبيد الخاصة ، أبي عبيد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي :نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ا لد الأول ، بور سعيد ، مكتبة الثقافة الدينية ، د . ط (د . ت) ، ص ١٥٤، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، بغداد ، مكتبة المثنى ، د . ط (د . ت) ، ص ٢٤٨ـ ٢٤٩ ، شمس الدين الأنصاري ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

أقسام اليمن ، وذكر من ضمن ذلك ناحية مهرة ومدينتها الشحر [١] .كذلك ذكر البكري بأن الشحر هي ساحل اليمن الممتد بينها وبين عمان [٢] . ويمكن أن تكون الشحر أيضاً اسماً لمنطقة أخرى توجد في عمان ،حيث أشار أبو مخرمة [٣] إلى أن الشحر لقب كان يطلق أيضاً نسبة إلى شحر عمان . وكانت الشحر منذ القدم مضرباً للأمثال في البعد ، نظراً لوقوعها في أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية على بحر العرب ، فيقال :

لست بمعجز لنا ولو بلغت الشحر...ولو حالت دونك يبرين وبلغت حضرموت . [٤] وتقع الشحر على منطقة سهلية واسعة بعيدة قليلاً عن المرتفعات الجبلية ، وعلى ساحل مفتوح لا توجد به رؤوس جبلية في مياه البحر [٥] وينحدر الشاطئ تدريجياً نحو البحر ولهذا ترسو السفن بعيداً عنه لضحولته ، وبالقرب من الشحر توجد صخور مرجانية ناتئة عن الرمال [٦] وتحيط بالمدينة السهول والكثبان الرملية . لذا فإن الرياح الشمالية الشرقية التي تهب على ساحل الشحر تكون محملة بالرمال ، وهذه الرياح تعرقل حركة السفن ، وقد تؤدي إلى إيقاف الحركة الملاحية في الميناء تماماً . أما الرياح الموسمية فكانت عند هبوبها يقل النشاط السكاني في الميناء من حيث التجارة والصيد . وفي فصل الصيف ترتفع الأمواج ، بسبب حدوث المد ، فتجرف الكثبان الرملية إلى البحر [٧] .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، بيروت ، مكتبة خياط ، د . ط ، (١٩٠٦م) ، ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، جـ٣ ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، د . ط (١٣٦٨هـ/١٩٤٩م) ، ص ٧٨٣ .

(٣) جمال الدين أبو الطيب بن عبد الله بن عمر مخرمة : النسبة إلى المواضع والبلدان ، ق ٨١ أ ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم ٢٣٤٤ / تاريخ .

(٤) سعيد الأفغاني : أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي ، ط ٢ ، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص ٢٢٦ .

(٥) Meulan D.vanand Wissman . H.Van Hadryamut .London 1964 p. 24 .

(٦) صلاح البكري:تاريخ حضرموت السياسي ، ج٢ ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط ٢ ، (١٣٧٥ - ١٩٥٦م) ، ص ١٤١ .

(٧) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

وكانت المراكب المتجهة نحو البحر الأحمر ترسو في ميناء الشحر ، لأنها لا تستطيع اجتياز باب المندب بسبب تأخر الوقت ، بالإضافة إلى هبوب الرياح الغربية التي تهب عكس اتجاهها [(١)] .

من هذا نرى أن ميناء الشحر كان يعتبر من ضمن موانئ حضرموت ذات الشهرة التجارية الواسعة آنذاك ، نظراً لموقعه الجغرافي المهم.بالإضافة إلى كونه ميناء تعبر فيه السفن المتجهة إلى الموانئ الأخرى . كما نلاحظ بأن هذا الميناء لم يكن مستعداً لاستقبال السفن طوال أيام السنة ، بل هناك مواسم معينة ترسو فيه هذه السفن بسهولة . أما عن تسمية ميناء الشحر ، فقد عرفت في النقوش اليمنية القديمة باسم (يمنة الساحل) [(٢)] . كما عرفت باسم (سوق الشحر) [(٣)] . الذي أطلقه عليها سكانها الذين كانوا جيلاً من مهرة يسمون (الشحر) [(٤)]، وذلك عندما استطاعوا إخضاع هذه المنطقة الساحلية. كذلك سميت الشحر بالأسعاء ، ويرى بعض المؤرخين بأن هذه التسمية مشتقة من اسم الملك الحضرمي (العزيلط أو العز اليازوس) ، الذي أنشأ ميناء الأسعاء بعد أن احتل ميناء قنا [(*)] من قبل مملكة سبأ [(٥)] ويقال إن اسمها تحول فيما بعد إلى اللسعة ، وذلك لشدة حرارة أشعة الشمس في هذه المنطقة ذات الكثبان الرملية الحارة، ثم حرفت بعد ذلك إلى سعاد [(٦)] وكان للشحر أيضاً عدة أسماء أخرى ، مثل الأشغا ، لأنه كان بها وادي يسمى الأشغا ، ولقد اشتهر هذا الوادي بكثرة أشجاره وآباره ونخيله [(٧)] . وسميت سمعون أيضاً ، لأن بها وادياً يسمى سمعون غرباً ، وشرب

---

(١) حسن صالح شهاب : أضواء على تاريخ اليمن البحري ، بيروت ، دار العودة ، ط ٢ ، (١٩٨١م) ، ص ٣٤٧ .

(٢) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٣) جمال الدين أبو الطيب محمد مخرمة ، المخطوطة السابقة ، ق ٨١أ ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد أبي مخرمة : تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور الجندي والأهدل ، جـ٢ ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ط ٢ (١٤١١هـ/١٩٩١م) ، ص٦٦ .

(٤) عبد الله صالح حداد : الشحر وأسماؤها الأخرى ، مجلة العرب ، الجزء٣ـ٤ السنة (٣٢) لعام (١٤١٧هـ١٩٩٧م) ، ص ٢٣٨ .

(*) قنا : هو الميناء الرئيسي لمملكة حضرموت قديماً ، ويقع شرقي عدن على ساحل جنوب الجزيرة العربية . انظر : خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص ٣٩ .

(٥) خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص٥٧ ، عبد الله صالح حداد ، نفس المرجع ، ص٢٤٢ .

(٦) عبد الله صالح حداد ، نفس المرجع ، ص ٢٤٣ .

(٧) أبو محمد عبد الله الطيب أبي مخرمة ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٦٦ ، حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص ٢٥٦ .

أهلها من آبار سمعون . وسميت كذلك بسوق الأحقاف ، ومعنى الأحقاف الرمال واحـدها حقف [1] . ويقال إنها جمع (شحرة) ومعناهـا مسيل الماء الجاف ، لكثرة المسايل الجافـة بها [2] . ومن أهم مدنها الساحلية مرباط ، ومنها تتجهز القوافل شرقاً وغرباً [3] . كما وأن الشهير النقعي هي غيضة من غياض الشحر [4] .

أما عدن فهي أيضاً من الموانئ التجارية على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب ـ وهي شبه جزيرة تتكون من صخور يبلغ ارتفاعها في المتوسط حوالي ١٧٧٦ قدماًفوق سطح البحر [5] . وتمثل عدن أهم نقطة ارتكاز على الساحل الجنوبي ، فكان من الصعب علـى السفن التوجه مباشرة إلى الهند أو العودة منها دون المرور بعدن [6] وعندما زارها الرحالـة جيبرولامو أدورنـو (Girolamo Adorno) ، عـام (٩٠٠هـ/١٤٩٤م) لاحظ أن فيها حركة سفن كبيرة جداً ، إذ إنها كانت تتحكم في مدخل البحـر الأحمـر بحكـم موقعهـا الإستراتيجي المتميز [7] .

هكذا يتضح مما سبق مدى الأهمية التجارية الكبرى التي اشتهرت بها موانئ الساحل الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية ، وخاصة مينائي الشحر وعدن اللذان كانا يعدان مـن أهم المراكز التجارية المطلة على ذلك الساحل . ولذلك كان سكان مناطق جنوب الجزيـرة العربية يعتبرون مينائي الشحر وعدن من وجهة نظرهم الخاصـة ـ آخر نقاط طرق القوافل ونافذتين على العالم الخارجي [8] .

---

(١) أبو مخرمة ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٦ ، خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٥٠ ـ ٥٣ .

(٢) عبد الله صالح حداد ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٤) محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي : المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي ، ج١، بيروت ، مؤسسة فؤاد بعينو للتجليـد ، ط ٢ ، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) . ص ٣٣٢ .

(٥) محمد عبد اللطيف البحراوي ، نفس المرجع ، ص ٨ .

(٦) نفس المرجع ، ص ١٢ .

(٧) نفسه ، ص ١٢ .

(٨) آر . بي . سارجنت ، المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

الحالة السياسية :

كانت الأوضاع السياسية في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية ـ آنذاك غير مستقرة نسبياً ، خاصة وأن الطبيعة الجغرافية الصعبة ـ والتي سبق وأن أشرنا إليها ـ كانت قد أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر على سير الأوضاع السياسية في تلك الجهات ، فقد سيطرت القبائل على العديد من المناطق وخاصة حضرموت ، والتي مرت خلال هذه الفترة بحروب أهلية سفكت فيها الدماء وانتهبت الأموال [1] .

وقد قامت دولة بني رسول[*] في اليمن عندما أعلن السلطان عمر بن علي ـ أول سلاطين بني رسول ـ استقلاله ، حين عاد الملك المسعود بن الملك الكامل بن العادل بن أيوب إلى مصر عام (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، فخضعت لهم مناطق ساحل حضرموت (الشحر) [2] واتسعت مساحة سلطتهم ، حتى شملت جنوب اليمن بأكمله وحضرموت [3] غير أن بني رسول كانوا ـ كغيرهم من حكام اليمن ـ لا يهتمون كثيراً بإصلاح شؤون الجنوب العربي ، بقدر اهتمامهم بتحصيل الخراج سنوياً من تلك الجهات فكانوا يتركون مقاليد الأمور

---

(١) سقاف علي الكاف ، المرجع السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(*) ينسب بنو رسول ، إلى جدهم رسول واسمه محمد هارون ، فقد كان أميناً في دولة الأيوبيين في مصر وينتهي نسبهم إلى جفنة بن عمرو الغساني . انظر : عبد الله بن عبد الكريم الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن ، تقديم إلياس عبود ، د . م ، مؤسسة دار الكتاب ، ط ٢ (١٤٠٢هـ/١٩٨٤م) ، ص ٨٩ .

(٢) عماد الدين بن إدريس بن الأنف القرمطي : روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار والحصون والأمصار ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي الحميري ، صنعاء ، دار المعرفة ، د . ط (١٩٩٥م) ، ص ٢٥. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج ٧ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٦ ، (١٩٩٨م) ، ص ٣٩٨ ، خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) عدنان ترسيسي : اليمن وحضارة العرب مع دراسة جغرافية كاملة، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د . ط (د . ت) ، ص ١٠٢ .

(**) آل كثير : ينتمون إلى كثير بن ظنه بن عبد الله بن حرام بن عمر بن سبأ . انظر : محمد بن هاشم : حضرموت تاريخ الدولة الكثيرية ، ج ١ ، أشرف على طبعة محمد بن الجفري ، د . م ، طبع علىنفقة الخاصة السلطانية ، د . ط (١٣٦٧هـ/١٩٨٣م) ، ص ٢٣٤، نسبتهم إلى قبيلة سبأ القحطانية ـ استناداً إلى ما ورد في كتاب ابن هاشم ـ وذكر أن القول بأ م من همدان إنما هو وارد في رسالة الأنساب للعلامة أحمدبن حسن العطاس ، وهو ما يؤيده صلاح البكري في كتابه (تاريخ حضرموت السياسي) ، ج ١ ، ص ٨٩ ـ ويمكن القول بأن ابن هاشم في تاريخه هذا اختص بدراسة تاريخ الدولة الكثيرية ،أي إنه ركزعلى دراسة أنساب حكام هذه الدولة دون غيرهم ، وبالتالي فمن الأرجح أن يكون رأيه هو الأصح ، ومهما كان الاختلاف حول صحة نسبهم ، فإن المهم في الموضوع أن بني كثير يرجع نسبهم إلى قبيلة قحطان .

لأصحاب البلاد ، الذين يتوسمون فيهم الولاء والوفاء ، ومن هؤلاء رجال من آل كثير [**] تولوا الحكم في بعض المناطق بالنيابة عن أولئك الحكام [١] .

وحدث أن تعرضت مدينة الشحر لغزو قبيلة كندة [*] وكان حاكمها بالنيابة - آنـذاك - السلطان بدر بن محمد الكثيري ، فهاجمتها بقيادة سعيد بن مبارك بن فارس بادجانة الكندي وحاصر ا عدة أيام ، انتهت باستيلاء بادجانة عليها (٨٣٨هـ/١٤٣٤م) ، وأصبحت عاصمة له [٢] . وبذلك تقلص ظل الحكم الرسولي عن سواحل حضرموت ، ولم ينجح الرسـوليون في محاولا م المتكررة التي قاموا ا بعد ذلك في سبيل استرداد الشحر [٣] . وعندما بـدأ الـضعف والوهن يدب في أركان الدولة الرسولية ،حيث استبد العبيد بأمور البلاد وأحدثوا فيها الفـساد والخراب وعدم الاستقرار [٤] استنجد الأهالي ببني طاهر [**] عمال بني رسـول - حيث كان عامر بن طاهر وأخوه علي واليين على عدن من قبل سلاطين آل رسول - فتقدم عامر بن طاهر عام (٨٥٩هـ/١٤٥٤م) ، وتمكن من دخول زبيد وبعض المدن ا اورة دون قتال ، وهكذا نجح عامر في الاستئثـار بالسلطة [٥] . غير أ م ورثوا بذلك بلاداً تسودها الاضـطرابات والفـتن الداخلية [٦] ، وقد حدث أن توجه أبو دجانة محمد بن سعيد إلى عدن عام (٨٦١هـ/١٤٥٦م) لغزوها ، وعندما علم حاكمها من قبل بني طاهر (الشيخ علي بن سفيان) بنبأ هـذه الحملـة

---

(٤) محمد بن أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج ١، ص ١٧٦ - ١٧٧، صلاح البكري: الجنوب العربي قديماً وحديثاً (٤٠٠ق.م - ١٩٦٧م) ، جدة ، دار العلم للطباعة والنشر ، د . ط (د . ت) ، ص ١٦٣ .

(*) كندة :من قبائل اليمن من ولد كندة بن عفير بن عدي...بن كهلان بن سبأ . انظر : الحجري ، المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٦٦٦ .

(١) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص ٨٩ - ٩٠ ، محمد أبو بكر حميد : حضرموت فصول في التاريخ والثقافة ، القاهرة ، جمعية أصدقاء علي أحمد باكثير الثقافية ، د . ط (١٤٢٠هـ) ، ص ٥٠ .

(٢) صالح الحامد : تاريخ حضرموت ، ج ٢ ، جدة ، مكتبة الإرشاد ، ط ١ (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ، ص ٥٦٤ .

(٣) محمد يحيى الحداد : تاريخ اليمن السياسي ، د . م ، دار الهنا للطباعة ، ط ٣ (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) ، ص ٢٧٩ .

(* *) ينتسب بنو طاهر إلى جدهم الشيخ طاهر بن تاج الدين بن معوضة . انظر : أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٤٥٦ .

(٤) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ من (القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين دراسة جغرافية تاريخية سياسية شـاملة ، الرياض ، مطابع البادية للأوفست ، ط ٣ (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ص٢٣١ ، عبد الله أحمد الثور : هذه هي اليمن ،صنعـاء ، مطبعـة المدني ، د . ط (١٩٦٩م) ، ص٣٠٧ ، محمود كامل : اليمن شماله وجنوبه تاريخـه وعلاقاته الدوليـة ، بيروت ، دار بيروت للطباعـة والنشـر ، د . ط (١٩٦٨م) ، ص١٩٥.

(٥) محمد عبد العال أحمد :بنو رسول و بنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (٦٢٨-٩٢٣ /١٢٣٠-١٥١٧م) ، الإسكندرية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، د . ط (١٩٨٠م) ، ص ٢٥٩ .

كتب إلى السلطان عامر يطلب منه إمداده بالعون فتجهز السلطان عامر على رأس جيشه متأهباً للقاء الأمير بادجانة [1] .

أما أبو دجانة فقد حاول دخول عدن ولكنه فشل فشلاً ذريعاً ، خاصة بعد أن تعرضت سفنه للغرق ، بسبب الرياح الشديدة التي عصفت آنذاك ، ومن ثم وقـع هو ومـن معـه في الأسر عام (٨٦٢ هـ/١٤٥٧م) [2] ، وقد ظل أبو دجانة أسيراً في عدن ، إلى أن جاءت والدته التي اشتهرت بالذكاء ورجاحة العقـل - إلى عدن ، حيث عرضت على السلطان عامر تسليم مدينة الشحر له في مقابل إطلاق سـراح ابنها من الأسر ، ولقد استجاب الـسلطان لـذلك الطلب ، وبذلك أصبحت الشحر ولاية تابعة لحكم بني طاهر منذ عام (٨٦٣هـ/١٤٥٨م) [3]. غير أن الأمور لم تستقر لبني طاهر ، فقد حدث في عام (٨٦٦هـ/١٤٦١م) أن ثـار أهـالي الشحر وخرجوا عن طاعة بني طاهر ، وانتزعوا الولاية من نائب بني طاهر (أحمد بن سنقر) ، وأقاموا عليهم أحد أقارب أبي دجانة ، وعندما علم السلطان عامر بذلك ، تجهـز مـن أجـل الخروج إلى الشحر وأعد لذلك عدة عظيمة [4] .

وقد نجح السلطان عـامر في الـسيطرة علـى الـشحر ، حيـث افتتحهـا الأمـير (زين الدين جياش السنبلي) ، عام (٨٦٦هـ/١٤٦١م) ، ودخل الأهالي في طاعة بني طاهر ، أما أبو دجانة فقد هرب من الشحر خوفاً على نفسه ، عندما علم بوصـول الـسلطان عـامر

---

(٦) سعيد عوض باوزير : صفحات من التاريخ الحضرمي ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، د . ط (١٣٧٨هـ) ، ص ١١٦، محمد ربيـع المـدخلي : الأحوال السياسية والمظاهرة الحضارية في عصر السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري (٨٩٤/٩٢٣هـ) ، رسالة ماجستير لم تنـشر بعـد بجامعة أم القرى ، ص ٥٠

(١) أحمد بن عبد الله شنبل : (ت/٩٢٠هـ) . تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، طبع على نفقـة الـشيخ الوجيه محفوظ سالم شماخ ، ط ١ ، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ، ص ١٨٨ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٢) ابن شنبل ، نفس المصدر ، ص ١٨٩ ، سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٣) يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور ، مراجعة محمـد مصطفى زيادة ، القسم الثاني ، القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، د . ط (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ، ص ٥٩١ ، خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

الذي جعل نائباً عنه في حكم الشحر الأمير (أحمد بن إسماعيل بن شقراء النمي) ، كما ألزم الكثيري صاحب ظفار (السلطان بدر بن محمد بن عبد الله الكثيري) بمعاونة نائبه على الشحر[1]، حيث توجه إليها عام (٨٦٧هـ/١٤٦٢م) لكي يباشر عمله [2] . وذكر أحد المؤرخين أن ذلك كان بداية حكمهم أي الكثيريين في الشحر [3] .

وقد يقال :كيف يكون ذلك التأريخ بداية لظهور دولة كثيرية في الشحر في حين كان لبني كثير ولاية عليها قبل ذلك التأريخ ؟ .. وتوضيح ذلك أن علاقة الكثيريين بالشحر قبل هذه الفترة التاريخية كانت مهمة تكليفية بالنيابة من قبل السلطة الحاكمة - كما سبق وأن ذكرنا - وقد فسر صاحب كتاب (جواهر تاريخ الأحقاف) [4] ذلك الأمر بقوله : (... وقال شنبل إن أول دولتهم في الشحر - يعني آل كثير - في سنة (٨٦٨هـ/١٤٦٣م) . ولا تنافي بينهما ، لأن ملك الكثيري الأول كان بالنيابة والثاني بالاستقلال) .

وإذا كانت الشحر قد أخذت استقلالها الذاتي بعد وفاة الملك الظافر عامر بن طاهر فإن الدولة الطاهرية لم تفقد بذلك موارد مينائها المهم ، بل كان حكامها من بني كثير يرسلون إلى السلطات الطاهرية في عدن كل سنة أتاوة سنوية ، مقدارها خمسة عشر ألف أشرفي [*] ذهباً بالإضافة إلى كميات من القمح والتمر والأقمشة كان يقدر ثمنها - آنذاك - بعشرة آلاف أشرفي [5] . غير أن الأمور لم تستقر كثيراً لبني كثير في

---

(٤) عبد الرحمن بن علي الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق يوسف شلحد ، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، د . ط (١٩٨٣م) ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(١) ابن شنبل ، المصدر السابق ، ص١٩١، سالم بن محمد بن سالم بن حميد الكندي :تاريخ حضرموت المسمى بالعدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة ، تحقيق عبد الله الحبشي ، م ١ ، صنعاء ، مكتبة الإرشاد ، ط ١ ، (١٤١١هـ/١٩٩١م) ، ص ١٤٩ .

(٢) ابن شنبل ، نفس المصدر ، ص ١٩١ .

(٣) محمد بن علي بن عوض باحنان : جواهر تاريخ الأحقاف ، ج ١ ، مراجعة وتقديم حسن جاد حسن ، تصحيح محمد الدبوي ، القاهرة ، مطبعة الفجالة الجديدة ، د . ط (١٣٨٢هـ/١٩٦٣م) ، ص ١٦١.

(*) الأشرفي : نسبة إلى السلطان الأشرف قايتباي ، وهي عملة ذهبية تسمى أيضاً شريفي وكان الأوروبيون يسمونها السلطاني ، وكان وزن العملة (٥٣)حبة أي درهم وقيراط . انظر : محمد بن عمر الطيب بافقيه : تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، صنعاء ، مكتبة الإرشاد ، ط ١ (١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ، ص ٤٩ .

(٤) محمد ربيع المدخلي ، المرجع السابق ، ص ٤٢٢ .

حكمهم للشحر ، حيث تمكن سعد بن مبارك بن سعيد بادجانة من السيطرة عليها مرة أخرى عام (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) [١] **، وقد استمر حكم الشحر في أيدي الأمراء من آل بادجانة إلى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، وكانت المدينة خلال تلك الفترة عرضة للهجوم الكثيري ، حيث دارت بين الطرفين معارك عدة ، ولم يكن لأمراء آل بادجانة بعد وفاة الأمير محمد بن سعيد القدرة على القيام بأعباء السلطنة كما يجب ، فثارت القبائل ، وقطعت الطرق ، وفقد الأمن وساءت أحوال البلاد** [٢] **، فانتهز السلطان جعفر بن عبد الله الكثيري تلك الفرصة وتوجه على رأس جيشه نحو الشحر ، وحاصرها عام (٩٠٠هـ/١٤٩٤م) ، ثم انتقل إلى تبالة ، حيث خرج لملاقاته السلطان سعد بادجانة ، وانتهت تلك المواجهة بانتصار السلطان جعفر الكثيري ، وتسليم بادجانة للشحر صلحاً** [٣] **. وبذلك عادت الشحر للحكم الكثيري مرة أخرى ثم أصبحت دولة آل كثير تتوسع تارة وتنكمش تارة أخرى ،حتى بعث الله لآل كثير شاباً حاد الذكاء ، بعيد النظر ،كبير الهمة ، هو السلطان بدر أبو طويرق** [*] **الذي سيأتي الحديث عنه في الفصل الثاني .**

---

(٥) ابن شنبل ، نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .

(١) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١١٧.

(٢) جمال الدين أبو العلاوي محمد الشلي : السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، ق ٤٥ ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بدار الكتب المصرية ،برقم ١٤٦٨٢/تاريخ ، ابن شنبل ، المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(*) هو السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن علي بن عمر الكثيري ، المكنى بأبي طويرق ، تولى الإمارة ، وسمى سلطاناً وهو صغير . انظر : عبد الله بن عبد الكريم الجرافي : أبناء اليمن ونبلاؤه ، ج ١ ، القسم الرابع ، مصورة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، ص ٢١٤ .

الحالة الاقتصادية :

مما لاشك فيه أن الموقع الجغرافي المتميز للجـزء الجنوبي الغربي من شبـه الجزيرة العربية ـ والذي سبق وأن أشرنا إليـه ـ كان له دوره الإيجابي على الناحيـة الاقتصادية لبلاد اليمن ، إذ إن ذلك الموقع كان قد أعطـى لبلاد اليمن أهمية تجارية كبرى منذ القدم . فأصبحت تقوم بدور الوسيط التجاري بين الهند وبين دول البحر الأبيض المتوسط عن طريق التجارة البحرية في المحيط الهندي والبحر الأحمر إلى جانب الطرق البرية عبر الجزيرة العربية ، وحتى الشام ومـصر والعراق [1] .

ومنذ القدم اشتهرت بلاد اليمن باسم (جزيرة العرب السعيدة) ، وهو اسـم أطلقـه الإغريق والرومان على أقصى جزئها الجنوبي الغربي [2] ، حيث حظيت موانئـه بمـرور تجـارة التوابل ا ، وظلت لفترة طويلة محطات مهمة لهذه التجارة التي كانت في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي تمثل أهم مجال للنشاط الدولي ، وأهم باعث على الكشوف الجغرافية ، إضافة إلى كو ا أهم مورد مالي في الشرق والغرب على حد سواء [3] كما اشتهر الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية ـ منذ القدم ـ بغطائه النباتي ، الذي ينمو على جباله وهضابه ، مثل أشجار اللبان والمر والبخور والمواد العطرية ، والتي كانت تحتل مكانة كبيرة في العالم القديم ، حيث كانت تستخدم في إعداد المستحضرات الطبية [4] ولليمن شهرةٌ واسعة في صناعة أنواع الطيب والعطور ، كما اشتهرت حضرموت بتركيب و خلط العطور ، واستخراج أنواع متميزة منها [5] . ومن أشهر أنواع العطور (العنبر) ، الذي يتكون من عدة أنواع وأصناف ، ومـن

---

(١) أبو العيون بركات : المدينة اليمنية القديمة ، مجلة كلية الآداب ، ا لد ٤٣ ، السنة ١٩٩٥/٩٤م ، ص ١٩٧.

(٢) عبد الله عبد الكريم الجرافي ، المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ١٥ ، زاهية قدورة : شبه الجزيرة العربية كيانا ا السياسية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، د .ط (د . ت) ، ص ١٣.

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٤) محمد علي البار : سقطري الجزيرة السحرية ، بيروت ، العصر الحديث ، ط ١ (١٤١٧هـ/١٩٩٦م) ، ص ١٨.

(٥) محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ، حصة ناصر المبارك : الحياة الاقتـصادية في الـيمن في عهـد بـني رسـول[٦٢٨-٨٥٨هـ/١٢٣٠-١٤٥٤هـ] ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد بجامعة أم القرى ، ص ١٨١-١٨٢ .

أجود أنواعه (العنبر الشحري) ، وهو ما يقذفه المحيط الهندي إلى الساحل الشحري [1] . حيث تتسم المياه الإقليمية لمدينة الشحر بالعمق والهدوء ، ويعد الساحل الشحري ساحلاً طويلاً حيث يمتد من الشرق إلى الغرب بحوالي مائتي ميل ، وعلى طول هذا الساحل تضع الحيتـان البحريـة العنبر في مياهه ، ومن ثم تقذفه الأمواج إلى الشاطئ [2] . كما تتواجد الأسماك في هـذه الميـاه لكثرة المراعي والخلجان البحرية المناسبة ، لهذا اشتهرت الشحر بجودة أسماكها وكثر ـا [3] . وقد أشار المقدسي إلى ذلك بقوله : (والشحر مدينة على البحر معدن السمك العظيم) [4] .

واشتهرت الشحر بزراعة شجرة السنان (التمر الهندي) [5] كما اشتهرت بوفرة أشجار الكندر التي تزرع على هضا ا ، وهي شجرة يؤخذ منها الصمـغ واللبان [6] ، يقول المقدسي : (والشحر مدينة على البحر .. أشجار الكندر صمغها) [7] .كذلك يرى بعض المؤرخين مثل الزبيدي في كتابة (تاج العروس) أن اللبـان لا يكون إلا بالشحر ، وأن منابت شجرته الجبال قال الشاعر :

اذهب إلى الشحر ودع عمانا إلا تجد تمراً تجد لبانا [8]

وللثروة الحيوانية كذلك دور بارز في اقتصاد الجزء الجنوبي من شبه الجزيـرة العربيـة . حيث اشتهرت حضرموت بثروة هائلة من الأنعام والخيول ، فكانت الشحر ـ مثلاً ـ معروفة بالإبل الجيد ، حيث يقول الاصطخري في مسالك الممالك :

(١) علي حسين الناصر ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦ ، حصة ناصر المبارك ، المرجع السابق ، ص١٨٢ .

(٢) W.Hecly Histoire du Commerdu Levant.Aumoyen Agem 2 Leipgey.1925.p630.

(٣) محمد جبريل : مدينة المهاجرين (حضرموت) ، د . م ، د .ن ، د . ط ، (د . ت) ، ص ٧ .

(٤) المقدسي ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(٥) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٥٠ ـ ٥٩ .

(٧) المقدسي ، نفس المصدر ، ص ٨٧ .

(٨) حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص ١٣٢ ـ١٣٣.

(....و ا ـ أي الشحر ـ نجب من الإبل تفضل في السير سائر النجب) [1] . كذلك أشار الإدريسي إلى جودة الإبل في الشحر ، وبأنه لا يعدل ا شيء في سـرعة جريهـا [2] . وقد ساعد التكوين الفيزيوجرافي للخليج العربي لضحالة مياهه بالقرب من السواحل العربيـة ، وكذلك ضحالة مياه البحر العربي في أجزاء كثيرة بالقرب من السواحل الجنوبية لشبه الجزيـرة العربية على أن يتعلم سكان هذه الشواطئ الملاحة منذ أقدم العصور [3] .

وكان لسكان حضرموت السبق في هذه المضمار بحكم الموقع الجغرافي الذي تميزت بـه بلادهـم ـ إذ إ ا تشـرف بساحلها الطويل على المحيط الهندي ، الذي يعد شريان الملاحـة بين الشرق والغرب ـ لهـذا اتجه الحضارمة منذ القدم نحو البحر [4] ، وقد دفعتهم إلى ذلـك عوامل البيئة ، فالسكان يعيشون في سهل ساحلي ضيق ، ومن خلفه تمتد المرتفعـات الجـرداء الفاصلة ، لذلك أرغم السكان على الاتجاه نحو البحر ، خاصة بعد أن أدركوا أهمية موقع بلادهم الجغرافي ، وخاصة من حيث اتجاهات الريـاح في فصلي الصيف و الشتاء ، فركبـوا سـفنهم واشتغلوا بالتجارة [5] .

وكانت الشحر وميناؤها التجاري تعد من أكبر المراكز التجارية في السواحل الـشرقية الحضرمية [6] . وقد أضفى ميناء الشحر على المدينة أهمية كبرى وجعلها تزدهر اقتصادياً ، حيث ربط سواحل حضرموت وداخلها بالعالم الخارجي [7] . فكانت السفن المحملة بالبضائع من شرق أفريقيا ومصر والهند وغيرها ترسو في هذا الميناء ، وفي المقابل كانت المنتجات الحضرمية تجمع في

---

(١) أبي إسحق الفارسي الاصطخري : كتاب الأقاليم ، بغداد ، مكتبة المثنى ، د . ط ، (د . ت) ، ص ١٤ ، شمـس الدين سامـي : قامـوس الأعلام ، ج ٤ ، استانبول ، د . ن ، د . ط ، (١٣١١هـ) ، ص ٢٨٤٤ .

(٢) الإدريسي ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٣) محمود طه أبوالعلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٥ ، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ، ص ١٢ ـ ١٣ .

(٤) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٥) نفس المرجع ، ص ١٦، علي حسين الناصر ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٦) خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص ٨٧ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٨٧ .

ميناء الشحر ، التي كانت سوقاً تتم عن طريقها عملية التبادل التجارية في البيع والشراء ، وبذلك أصبح الميناء مجال جذب للتجار ، كما أصبح مطمعاً لكثير من القوى السياسية الداخلية والخارجية خاصة البرتغالية – نظراً لأهمية مردوده المالي الناتج من الرسوم والضرائب والمكوس المفروضة على تجارة الصادرات والواردات [١] .

و مما يدلنا على الأهمية الاقتصادية لمدينة الشحر وميناءها ، أنه كان يطلق على من يحكم ميناءها لقب (قابض الحنجور) ، لأنه يستطيع بالسيطرة على الشحر أن يخنق التجارة أو أي نشاط خارجي [٢] . وإن هذه الأهمية الاقتصادية لميناء الشحر لم تكن وليدة تلك العصور الحديثة بل كانت تعود بجذورها إلى فترات قديمة ، ففي العصر القديم كان ميناء الشحر يعتبر أعظم ميناء وأكبر مركز تجاري في جنوب شبه الجزيرة العربية ، تأتيه السفن التجارية من مختلف المناطق وهي مشحونة بأصناف السلع وأنواع المتاجر[٣] .

أما في **العصر الإسلامي فكانت القوافل تتجه إلى** شم**ال الجزيرة العربية** في **رحلة الصيف ، وتأ**تي **إلى جنوب الجزيرة العربية** في **رحلة الشتاء،حيث تقف اضطرارياً** في **ميناء الشحر للحصول على منتجات الشرق الأقصى [٤] .**

وهكذا يتضح مما سبق أن الشحر وميناءها ، كانت مركزاً تجارياً مهماً ، أسهم بدور مهم في ازدهار النشاط الاقتصادي للجزء لجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية .

أما بالنسبة لمدينة عدن ، فقد كانت أيضاً مركزاً تجارياً مهماً لتجارة الهند والشرق الأقصى وتجارة الخليج العربي وشرق أفريقيا ، بالإضافة إلى كونها قاعدة للتجارة العربية [١]

---

(١) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٥٩ – ٦٠ – ١٥٤. ولقد استمرت علميات التبادل التجاري هذه حتى توقف ميناء الشحر وهبطت قيمته التجارية في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، عندما ظهرت مدينة المكلا كمنافس على الساحل الحضرمي . انظر : آر.بي.سارجنت ، المرجع السابق ، ١٣٩ .

(٢) آر.بي . سارجنت ، نفس المرجع ، ص ١٣١.

(٣) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٤) آر.بي. سارجنت ، نفس المرجع ، ص ١٣٠ .

وقد وصفها ابن بطوطة في أثناء زيارته بأ ا ميناء بلاد اليمن ، وأ ا كانت مرسى للعديد مـن السفن التجارية القادمة من مختلف المناطق [٢] .

وعندما سيطر بنو طاهر على عدن عام (٨٥٨هـ/١٤٥٤م) بذلوا جهوداً كبيراً في سبيل إنعاش الحركة التجارية بعـدن ، ولتحقيق ذلك عمدوا إلى إبطال الضرائب عن بعض السلع ، بالإضافة إلى إشرافهم على تجهيز المراكب حين خروجها من الميناء إلى الهند [٣] . وكـان لهـذه السياسـة إيجابيا ا على ازدهار النشاط التجاري بعدن ، ومن ثم تشجيع التجار على الإقبـال عليها ، فشهدت أول سنة من عهد الملك المنـصور عبـد الوهـاب بـن داؤد الطـاهري (٨٨٣هـ/١٤٧٨م) ارتفاعاً في عائدا ا الجمركية وخاصة من عائد الذهب [٤] .

---

(٥) السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ـ ١٦٣٥م ، د . م ، جامعـة الـدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، د . ط (١٩٦٩م) ، ص ١٣٣ .

(١) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص ١٥٩.

(٢) حسن صالح شهاب : عدن فرضة اليمن ، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، ط١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ، ص ١٩٨ـ ١٩٩ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٩٩ .

الحالة الاجتماعية :

يتميز كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية المختلفة بصفات معينة ومظاهر خاصة ، تجعله يختلف اختلافاً جوهرياً عن غيره إلا أن ذلك لا يمنع أن يكون لهذه المجتمعات خصائص مشتركة فيما بينها (١) لأن الإسلام وحد قيمهم وتقاليدهم وفق أحكام القرآن الكريم ومفاهيم السنة النبوية الشريفة قال تعالى : (وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) (٢) .

وقد عرف عن مجتمع جنوب غربي شبه الجزيرة العربية بأنه قبلي ، فقد كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي تشكل المجتمع اليمني ، إذ إن طبيعة بلاد اليمن الجبلية كانت لا تحتمل وجود جماعات بشرية كبيرة تمتد لمسافات طويلة (٣) . غير أن إطلاق مسمى القبيلة على المجتمع اليمني لا يعني بالضرورة أن هناك تنقلاً أو ترحالاً ، فالقبائل كانت مستقرة مكانياً إلى حد كبير في اليمن ، نظراً لارتباطها بالأرض وعملها بالزراعة (٤) . وترجع أهمية النظام القبلي في بلاد اليمن إلى أنه يحوي نظماً اجتماعية وظواهر نفسية معينة ،ترتبط به وبوجوده أشد الارتباط . فالمجتمع القبلي يقوم على (وحدة الدم) أو (العصبية) ، والتي تفرض بعض الحقوق والالتزامات المتبادلة ، وتوجد أنواعاً معينة من السلوك (٥) حيث كانت القبائل كثيراً ما تدير شؤونها بنفسها دون الرجوع إلى السلطة العليا الحاكمة ، وقد كان لذلك النظام القبلي أثره في سقوط الدول (٦) نتيجة لكثرة الثورات والفتن الداخلية التي كانت تتعرض لها . والجزيرة العربية عموماً ذات تأثيرٍ بعيد المدى في تكوين سكانها وتشكيل سلوكهم ، فقد غرست في نفوسهم حب الحرية والاستقلال والفخر بأنسابهم وعلو همتهم حتى أن أشدهم فقراً كان يفتخر بنسبه ،

---

(١) جميل عبد الله المصري: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة ، ج ١، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ط ٢ (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ، ص ٢٠٧ .

(٢) سورة الأنفال (آية : ٦٣) .

(٣) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث (اليمن والإمام يحيى ١٩٠٤ ـ ١٩٤٨م) ، القاهرة ، دار القومية للطباعة ، ط ٢ ، (١٩٧١م) ، ص ٢٠ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٥) نفسه ، ص ٢٠ .

(٦) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ٩٤ .

غير أن هذا التأثير وتلك المميزات كانت أقل وجوداً على الشاطئ والمدن الساحلية بسبب اتصال السكان بالعالم الخارجي عن طريق التجارة وتأثرهم با تمعات الأخرى ، حيث تضطرهم حاجة الأسواق المحلية إلى التزود بالبضائع الأجنبية ، ويظهر ذلك بوضوح في الجزء الجنوبي الغربي مـن شبه الجزيرة العربية [1] . ويتكون ا تمع اليمني من عدة قبائل ـ وهو نفس النظام الذي كانت عليه في العصور التاريخية الماضية ـ وهذه القبائل في حدذا ا كانت تشكل في مجموعها سـكان ا تمع اليمني ، وهم السادة والفقهاء والقضاة والنقباء والمشايخ والعقال ، وهؤلاء هم علية القوم ، ويلي هؤلاء العوام وأرباب الحرف [2] .

ومن الطبيعي أن تكون هناك اختلافات فيما بين القبائـل في كآفـة نـواحي الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية ، بالإضافة إلى الاختلاف داخل القبيلة الواحدة ذا ا،فمـثلاً نجـد أن السادة ـ وهم أصحاب السلطة العليا في اليمن ـ كان يوجد فيهم الغـني والفقـير ، وأمـا المزارعون وأصحاب الحرف والقبائل البدوية،فكان لكل منهم طبيعته ووظيفتـه الخاصـة [3] . وكذلك يمكننا القول بأن الأوضاع الاجتماعية في جنوب غربي شبه الجزيـرة العربيـة تأثرت ـ خـلال تلك الفترة ـ بالهجرات المتتالية لأبناء ذلك القطر .

وكان للأوضاع الاقتصادية دور مباشر في حدوث تلك الهجرات أيضاً ، فقـد تعثـر ا تمع اليمني بتعثر هذه الأوضاع ، التي كانت تعدمن أهم الأسباب الـتي أدت إلى الهجـرات المتتالية [4] .

ولقد عرفت حضرموت أكبر الهجرات ذات النطاق الأوسع والأبعد ، إذ كانت مـد ا تشرف على أربح تجارة في العصور القديمة ، ألا وهي تجارة التوابل والبخور [5] . وكان مينـاء

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص ٧ . وينقسم سكان شبه الجزيرة العربية إلى قسمين : هما عرب الجنـوب وهـم العـرب العاربة،ويرجع نسبهم إلى قحطان ، والعرب المستعربة في وسط وشمال شبه الجزيرة العربية ، ويرجع نسبهم إلى عدنان أحد أبناء إسماعيـل بـن إبراهيم عليهما السلام، وقد وفدوا إلى الجزيرة بعد العرب العاربة ، وبذلك أصبحوا أقل أصالة منهم في العروبة . انظر : محمود طه أبو العلا ، المرجع السابق ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٢) السيد مصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٢٤ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٤.

(٤) زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٥) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

الشحر من أهم الموانئ التي انطلقت منها هجرات عرب حضرموت منذ القدم ، فقـد كـانوا يحملون السلع على سفنهم بغرض القيام بعمليات التبادل التجاري مع البلاد الأخرى ،حيث تأثر بعضهم بهذه المناطق ، فقرروا البقاء فيها لفترات طويلة،ومن ثم استقروا فيها بصورة دائمة [١] ، سواءً أكانوا قادمين تجاراً أو باحثين عن مصادر للرزق ، كما كان لهم الدور الكبير في نـشر تعاليم وعلوم الدين الإسلامي في البلاد التي كانوا يهاجرون إليها .

---

(١) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٦٨ . ويعرف العديد من الحضارمة في مهاجرهم (بالشحاري) ، رغم أنهم ليسوا جميعهم من سكان الشحر ، بل يعود ذلك إلى الدور الكبير الذي لعبه ميناء الشحر تجارياً ، حيث انطلقت منه السفن التجارية إلى الموانئ الأفريقية ، ومازالت هذه التسمية تطلق على الحضـارم حتى الآن في كثير من مناطق أفريقيا والهند ومدن البحر الأحمر ، وحتى عدن لأنها كانت إحدى أهم مهاجرهم . انظر : نفس المرجع ، ص ١٥٥ .

الحالة الدينية والثقافية :

كان أهل اليمن من أوائل الذين آمنوا بدعوة الرسول ﷺ ، فنصروه وظلوا أوفياء لرسالته من بعده ،كما كان لهم أكبر الأثر في نشر الدعوة خارج الجزيرة العربية [1] .

وأهل اليمن عموماً من المسلمين ، إلا أ م ينقسمون من حيث عقيد م إلى قسمين رئيسين هما :

أ) السنة : وهم أتباع المذهب الشافعي [2] . وقد ساد هذا المذهب أرجاء حضرموت منـذ أواسط القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي [3] . ويتمركز غالبيـة أنـصار هـذا المذهب في السهول والهضبة الجنوبية والوسطى في اليمن [4] .

ب) الشيعة : وهم أتباع المذهب الزيدي [*] ويعتبر هذا المذهب أقرب المـذاهب الـشيعية إلى السنة [5] . وعلى الرغم من أن هذا المذهب انتشر في فارس والعراق إلا أن اليمن كانـت أكبر المراكز السياسية للزيدية [6] . وكانت الدولة الزيدية تتوسع وتنكمش بـين صـنعاء وصعدة [7] . وكان للاختلاف الكبير بين هذين المذهبين (السنة والشيعة) أثره المهم على

---

(١) زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص ١٦٢. وكان أهل اليمن قبل ظهور الإسلام يعبدون الشمس والقمر والزهر ، وكان القمر هـو معبـودهم الرئيسي . وقد عرف بـ (المقة) . انظر : نفس المرجع ، ص ١٥٦ .

(٢) السيد مصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٢٣ . والمذهب الشافعي نسبة إلى الإمام الشافعي ، أحد أئمة المذاهب الأربعة . انظر : زاهية قدورة ، نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

(٣) سقاف علي الكاف ، المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٤) زاهية قدورة ، نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

(*) المذهب الزيدي : نسبة إلى صاحب المذهب (زيد بن علي بن الحسين) ، ظهر في بلاد اليمن خلال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، عندما قدم إلى اليمن من العراق السيد يحيى بن القاسم الرسي ، وأخذ يدعو إلى المذهب الزيدي ، والزيدية هي فرع من الشيعة . انظر : محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٣ .

(٥) زاهية قدورة ، نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

(٦) عبد الحميد البطريق : من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٧ ـ ١٨٤٠م) ، د . م ، معهد البحوث والدراسات العربيـة ، د . ط (١٩٦٩م) ، ص ١١ .

(٧) زاهية قدورة ، نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

وصعدة : مدينة جبلية واقعة في أقصى الشمال من صنعـاء. انظر: يحيى شامي ، موسوعة المدن العربية والإسلامية ، بيروت ، دار الفكر العربي ، ط ١ (١٩٩٣م) ، ص١٣٨ .

الأوضاع السياسية في بلاد اليمن ، إضافة إلى تأثيره على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في تلك البلاد ، ومن ذلك التنافس الذي كان بين سلاطين الدولة الرسولية وبـين القـوى الزيدية المتناثرة في المناطق الجبلية (1) .

أما بالنسبة لما قام به أهل اليمن وحضرموت في **نشر تعاليم الدين الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية ، فقد كان لهم دور بارز** في **نشر تعاليم ذلك الدين وخاصة عن طريق ممارستهم للتجارة .**

فقد تميزت بعض الهجرات – التي كان يقوم ا الحضارمة باهتمـامهم بنـشر رسـالة الإسلام حين استقرارهم في تلك الأمصار (2) . وكان لأهل الشحر كذلك دور كبير في نشر تعاليم الدين الإسلامي في مختلف الأقطار . وقد أشار إلى ذلك أحد المؤرخين بقوله : (إن أهل اليمن وحضرموت والشحر هم تجار العرب وأولو السفر والاغتراب منذ العصور الأولى ، وهم الذين نشروا اللغة العربية والإسلام في سواحل إفريقية الشرقية وجزائر بحر العرب ، وعربوا كثيراً من أقطارها منذ عصور بعيدة ، وكانوا صلة بينها وبين الجزيرة العربية) (3) . وفي أوائل القـرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وعندما سيطر بنو كثير على حضرموت الداخل بزعامة علي بن عمر الكثيري ، انصرف الدعاة من حضرموت الساحل إلى نشر الإسلام في الصومال (4) .كذلك شهدت سواحل حضرمـوت استقرار القبائل التي اختلطت بأقوام وجنسيات أخـرى بحكم التجارة (5) . فكان لذلك الاختلاط نتائجه الإيجابية في تأثر تلك القبائل بعادات وتقاليـد سكان حضرموت ، ومن ثم اعتناقهم الإسلام ، وكانت اللغة العربية هي لغة سكان جنوب شبه

---

(1) عبد العزيز سليمان نوار ، الشعوب الإسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، د . ط (1973م) ، ص 98 .

(2) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص 155 .

(3) محمد أبو بكر حميد ، المرجع السابق ، ص 89 .

(4) محمود كامل : المرجع السابق ، ص 192 .

(5) خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص 154 .

الجزيرة العربية [١] . أما بالنسبة لقبائل مهرة فقد ذكر الإدريسي بأ م عرب صرح وأن لـسا م مستعجم جداً يكاد يفهم ، وهو اللسان الحميري [٢] .

وكان أهالي حضرموت يتفاخرون ـ رجالاً ونساءً ـ بالفصاحة والبلاغة ونظم الأشعار وتأليف الخطب ، فكانت الشحر وهينن [*] أشبه بأسواق عكاظ [**] وا نة [***] ، حيث كـانوا يجتمعون هناك في مواسم معلومة ، فيلقى كل شاعر قصائده وكل خطيب خطبته ، ولقد حازت قبيلة كندة الدرجة الأولى في الفصاحة والبلاغة على جميع قبائل حضرموت منذ القدم [٣] .

وكان لهجرات الحضارمة دور كبير في تطور الناحية الثقافية في بلادهم ، حيث عملت الفئات التي رحلت لطلب العلم نحو الشمال (مصر ـ بغداد ـ البصرة ـ الأنـدلس) علـى تطوير البلاد ثقافياً [٤] حيث شهدت اليمن ضة علمية كبيرة ، فقد نبغ علماؤها وتوسـعوا في دراسة التفسير والحديث وعلومه وفي فقه الشافعي وفي علوم العربية بأنواعها والعلـوم العقليـة

---

(١) المقدسي ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٢) الإدريسي ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥. كانت اللغة الحميرية هي لغة سكان جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم تداعت هذه اللغـة با يار دول الجنوب ، وحلت محلها اللغة العربية لغة أهل الشمال ، انظر : محمود أبو العلا ، المرجع السابق ، ص ٢٦ . وقد علل بعض العلماء بعد لغة مهرة عن العربية بقوله : (مهرة انقطعوا بالشحر ، فبقيت لغتهم الأولى الحميرية لهم يتكلمون ا إلى هذا اليوم) . انظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٤ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، (١٩٧٧م) ، ص ٤٢٢ .

(*) هينن : قرية بالجنوب الغربي من شبام . انظر : يحيى شامي ، المرجع السابق ، ص ٤٦٤ .

(**) عكاظ :سوق يقام بين مكة والطائف كانت تجتمع فيها قبائل العرب (قريش وهوازن وغيرها) فيتعاكظون أي : يتفـاخرون ويتناشـدون بالشعر. انظر : جواد علي ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص٣٧٧ ، السيد عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب قبـل الإسـلام ، ج ١ ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، د . ط (د . ت) ، ص ٢٩٣ .

(***) سوق مجنة :كانت سوقاً بأسفل مكة لبني كنانة . انظر : السيد عبد العزيز سالم ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

(٣) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج ١ ، ص ٤٠ .

(٤) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(****)كان للحضارم في العهد الحميري معرفة بمواقع النجوم وأوقات مطالعها ومغار ا ، وكانوا يعلمون بأنواء الكواكب وأمطارها ، ولكن هـذا العلم لم يأت عن طريق تعلم الحقائق، بل أدركوه بفرط الذكاء وكثرة العناية وطول التجربة. انظر: صلاح البكري، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٤٠.

والكونية (****) ، وكان من أبرز علمائها المحدث والمؤرخ الكبير الديبع العامري ، ومن نـوابغهم في الهندسة والفلك العيدروس وعبد الله بن عمر بامخرمة (١) .

وارتبطت الحياة الثقافية في حضرمـوت ـ خلال تلك الفترة ـ بعلماء الدين وازدهرت بازدهار المعاهد الدينية ، والتي كانت منتشرة في معظم مدن حضرموت،حيث اشتهرت بكثـرة مساجدها ومعاهدها الدينية وأربطتها وكتاتيبها مثل تريم (*) وشبام (**) والشحر (٢) .

ومن خلال هذا العرض الموجز للأوضاع المختلفة التي كان عليها الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية ، وفي الفترة التي سبقت قدوم البرتغاليين منذ أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، يمكن القول بأن تلك الأوضاع كانت قد مهدت بشكل مباشر أو غير مباشر إلى أن تكون تلك البلاد عرضة للأطماع الأجنبية وخاصة البرتغالية ، والتي هـدفت إلى بسط سيطرتها عليها . وهو ما سوف تتم دراسته في الفصل القادم .

---

(٥) محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج ٢، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣، عبد الله بن عبد الوهاب المجاهد الشماخي : اليمن (الإنسان الحضارة) ، د . م ، دار الهنا للطباعة ، د . ط (د . ت) ، ص ١٢٩ .

(*) تريم من أشهر مدن حضرموت وهي مدينة جبلية إلى الشرق من وادي حضرموت الشهير . انظر : يحي شامي ، المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(**) شبام : المقصود هنا شبام حضرموت ، لتمييزها عن غيرها ، لأنه يوجد في اليمن شبام كوكبان ، وشبام الغراس ، وشبام حراز من بلاد صنعاء . وأما شبام حضرموت فهي بلدة مشهورة وهي إحدى مدن حضرموت ، انظر : الحجري ، المصدر السابق ، م ٢ ، ج ٣ ، ص٤٤١ ـ ٤٤٢ .

(١) محمد أبو بكر حميد ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

الفصل الأول

دوافع الاستعمار الأوروبي وتطورها

* الدافع الديني .

* الدافع الاقتصادي .

* الثورة الصناعية .

الدافع الديني :

يعتبر الدافع الديني في مقدمة الدوافع الاستعمارية الأوروبية التي جعلت من العالم الإسلامي ومن المسلمين هدفاً رئيسياً لتحقيق الأطماع الاستعمارية . وكانت حركة الكشوف الجغرافية التي قادها الغرب الأوروبي في العالم الإسلامي تحمل في طيا ا تلك الروح الصليبية ، بما فيها من حقد وكراهية على الإسلام والمسلمين [1] . إذ إن أوروبا المسيحية لم تكن لتنسى ما لحق ا من الهزائم التي انتهت بطرد الصليبيين من العالم الإسلامي ، وظلت من ذلك الحين تسعى سعياً حثيثاً لإيجاد طريق يمكنها من تطويق بلاد المسلمين من الجنوب ، والسيطرة على التجارة الشرقية لتتحكم في مصادر رخائهم وقو م [2] .

ومن المعروف أن الحروب الصليبية لم تنته في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، كما أن النصر الحاسم الذي حققه المسلمون على الصليبيين في مصر والشام لم يقض على عدائهم المرير للإسلام ، فقد قامت هجمة صليبية أخرى تزعمتها البرتغال [3] .

وكانت البرتغال من أكثر الدول اهتماماً ذا الأمر،بسبب قر ا من أحداث الصراع بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا ، ولوقوعها تحت تأثير تجار جنوة [4] بالإضافة إلى الفكرة التي سيطرت على البرتغاليين ، وهي تغيير دين المسلمين إلى المسيحية في كل مكان يتواجدون فيه [5] . وقد عبر المؤرخ المسلم زين الدين المعبري عن تلك الغاية ، وبأ ا هي الهدف الأساسي للصليبيين ، فقال : (ثم إن بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديماً وحديثاً تغيير دين المسلمين

---

(١) جميل المصري ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٢ .

(٢) يوسف فضل حسن ، الصراع حول البحر الأحمر ، دارة الملك عبد العزيز ، عدد٣٤ ، السنة الثامنة (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ص١١٦. وقد تم طرد الصليبيين ائياً وإخراجهم من بلاد الشام على يد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون عام (٦٩٠هـ/١٢٩١م) . انظر : جميل المصري ، نفس المرجع ، ج١، ص٦٩ .

(٣) نوال حمزة الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، الرياض ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، د.ط (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ص٦٥ .

(٤) يوسف فضل حسن ، نفس المرجع ، ص١١٦. وجنوة مدينة إيطالية تمتاز بمينائها الكبير الذي يعد من أكبر المراكز الصناعية في إيطاليا . انظر : المعرفة ، ا لد(١٨) ، جنيف ، شركة ترادكسيم ، ص ٣٤١٦ .

(٥) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص٦٦ - ٦٧ .

وإدخالهم في النصرانية [1] . كما أن نجاح الأسبان والبرتغاليين - في حروب الصليبية التي شنوها على العرب المسلمين في الأندلس خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي - كان حافزاً لهم لمتابعة حربهم هذه ضد المسلمين [2] ، حيث تمكن الأسبان من تصفية الوجود الإسلامي في آخر معاقله في غرناطة ، التي سقطت بأيديهم عام (٨٩٧هـ/١٤٩١م) عندما أجبروا المسلمين على الارتداد عن دينهم واعتناق المسيحية،فأذعنوا تجنباً للتعذيب والقتل [3] .

ولم يقتصر هذا التوسع على الأندلس وشواطئ المغرب العربي فحسب ، بل امتد إلى معاقل المسلمين في الشرق [4] ، ثم تطويقهم من الجنوب ونشر المسيحية بينهم ، حتى لا يفكروا في العودة إلى الأندلس مرة أخرى [5] . وهكذا فقد اتخذت إسبانيا سياسية صليبية حاقدة انتقاما للمد العربي الإسلامي في أراضيها ، كما عملت أساطيلها على مهاجمة السواحل العربية في شمال أفريقيا ، بل واحتلت بعضاً من هذه المناطق [6] . وفي المقابل كان البرتغاليون أيضاً يتعقبون المسلمين على سواحل أفريقيا [*] ويهاجمون الثغور العربية [7] . وأصبحت بذلك البرتغال أيضاً نصيرة للمسيحية وراعيتها في مواجهة الإسلام وذلك خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي [8] .

---

(١) زين الدين المعبرى : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين ، مخطوط ضمن مجموعة يهودا بجامعة برنستن ، بمدينة نيوجرسي الأمريكية ، رقم ٣٩٢٠ تاريخ ، ومصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، رقم ٥٧٥ تاريخ ، ق - ١٩.

(٢) وليد محمد جرادات : الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر ، الدوحة ، دار الثقافة ، ط١ (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ، ص٨٩ .

(٣) محمد ربيع المدخلي ، المرجع السابق ، ٢٠٥ .

(٤) وليد محمد جرادات ، نفس المرجع ، ص ٨٩ .

(٥) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ٦٨ .

(٦) رأفت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، د.ط (١٩٧٧م) ، ص٩ .

(*) المقصود من سواحل شرق أفريقيا : هو ذلك الجزء الساحلي من القارة الأفريقية المطل على البحر الأحمر والمحيط الهندي ، ويمتد من سواكن ومصوع في الشمال حتى سفالة في الجنوب . انظر :نوال حمزة الصيرفي ، الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا في القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي ، رسالة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث ، بجامعة أم القرى ، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ، ص ٣٣٤ . وكذلك انظر : ملحق الخرائط ، رقم ٤ - ٥ .

(٧) زاهية قدورة ، المرجع السابق ، ص ١٦٥.

(٨) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ط (١٩٦٢م) ، ص ٢٤ .

ولقد أشار أحد المؤرخين إلى مدى تعصب سكان شبه جزيرة إيبيريا - من الإسبانيين والبرتغاليين - في قتالهم للمسلمين ، فقال : (وكان الإيبيري المخلص لدينه المتفاني في حب وطنه إسبانياً كان أو برتغالياً يعد القتال مع الإسلام ضرورة ماسة صارمة ، ويراه خليطاً يجمع على حد سواء بيين الواجب الديني والضرورات الوطنية) [1] .

وكانت تكمن في هذه الناحية الدينية روح صليبية جارفة ، فقد كان من أهم أهداف الكشوف الجغرافية في نظر البرتغاليين تحويل المسلمين في غرب أفريقيا وفي غيرها من المناطق الإسلامية إلى المسيحية الكاثوليكية [*] وهي نفس أهداف الكشوف الجغرافية فيما وراء البحار - بالنسبة لأسبانيا أيضاً [2]. وكان لظهور المد العثماني في أوروبا أثره على هذه الكشوف [3] خاصة وأن العثمانيين أصبحوا بمثابة الحاجز الذي يحول دون وصول منصري أوروبا إلى آسيا [4] ، فقد فتحت القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح) عام (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) ، وتردد صدى هذا الفتح في أسبانيا ، كما تردد في كل أنحاء أوروبا المسيحية ، ومن ثم ازداد الحقد الصليبي على المسلمين ، إضافة إلى خوفهم الشديد من مداهمة الإسلام لأوروبا ، فحاولت أوروبا القضاء على القوى الإسلامية بكل الطرق الممكنة [5] .

كذلك كان للدعم الكبير الذي قدمته البابوية لحركة الكشوف الجغرافية عن طريق دعوة ملوك أوروبا إلى مؤازر ا لمواجهة الإسلام وصده عن أوروبا [6] دور مهم في تفاقم تلك الروح

---

(١) بانيكار ، المرجع السابق ، ص٢٤ - ٢٥ .

(*) تؤمن الكنيسة الكاثوليكية بإله واحد ، كما تؤمن بأن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد : إحداهما لاهوتية والأخرى ناسوتية . انظر : مانع حماد الجهني ، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ج١، الرياض ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر ، ط٣ (١٤١٨هـ) ، ص٦١٦ - ٦١٧ .

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج١، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ط٣ ، (١٩٧٧م) ، ص ١١٠ .

(٣) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ٦٩ .

(٤) غسان على محمد الرمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، جدة ، دار العلم للطباعة والنشر ، د.ط (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ، ص ٢٠ .

(٥) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص ٦٩ .

(٦) غسان الرمال ، نفس المرجع ، ص٢٠ .

الصليـ ـبية الحاقدة في نفوس البرتغاليين والأسبان ، حتى لقد أصبح تدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز هدفاً مهماً من أهداف النشاط البرتغالي في المياه الشرقية الإسلامية [1] وفي إطار تلك الجهود أصدر عدد من البابوات مراسيم متلاحقة ، يهبون ا ملوك إسبانيا والبرتغال الحـ ـق في ملكية كل إقليم جديد ، أوكل بحر جديد يتم اكتشافه في الحاضر والمستقبل [2] .

ففي عام (٨٥٩هـ/١٤٥٤م) ، أرسل البابا نيقولا الخامس إلى ملك البرتغـ ـال مرسـ ـوماً بابوياً تضمن ما يعرف باسم (خطة الهند) ، يقوم على إعداد حملة صليبية ائية تشنها أوروبـ ـا الكاثولكية للقضاء قضاءً تاماً على الإسلام ، وذلك بعد أن تحقق كشوف البرتغاليين أهـ ـدافها ، ويتصل البرتغاليون بالملوك المسيحيين في أفريقيا وآسيا ، لكي يساهم هؤلاء الملـ ـوك في تمويـ ـل الحملة الصليـ ـبية بالعتاد والرجال ، حيث يتم بنجاحهـ ـا تطويـ ـق البلاد الإسلاميـ ـة [3] . كما أصدر البابا نيقولا الخامس منشوراً يبارك فيه جهود الأمير هنري الملاح [*] ويعطيه الحق في أن يغزو جميع الشعوب والأقاليم التي يسودها أعداء المسيح ولم يكتف البابا نيقولا ذا المنشور بل سعى إلى تكوين حلف صليبي للقضاء على المسلمين ، غير أن الموت أدركه قبـ ـل أن يحقـ ـق مشروعه هذا [4] .

وكذلك أصدر البابا كاليكستوس الثالث عام (٨٦١هـ/١٤٥٦م) ، مرسوماً آخر بنفس معنى منشور البابا نيقولا الخامس السابق الذكر [5] إضافة إلى أنه شرع للمسيحيين صلاة التنصير (Angelus) التي يطلبون فيها النصر على الأتراك العثمانيين كما بذل أقصى جهـ ـوده لتأليـ ـب

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الإسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، د.ط (١٩٧٣م) ، ص١٣٠ .

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١١١ .

(٣) عبد العزيز محمد الشناوي ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١١٢ .

(*) هنري الملاح هو الابن الثالث للملك جون الأول ملك البرتغال (٧٩٧ ـ ٨٦٥هـ/١٣٩٤ ـ ١٤٦٠م)كان محارباً صليبياً من الدرجة الأولى ، وله سيرة حافلة بحروبه ضد المسلمين في شمال أفريقيا . انظر : نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ٧٣ .

(٤) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص٦٦ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٦٦ ، عبد العزيز محمد الشناوي ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١١١ .

(٦) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص٦٩ ـ ٧٠ .

أوروبا ضد المسلمين وتكوين حلف صليبـي هدفه محاربة العثمانيين واسـترداد القـسطنطينية منهم ، والحد من خطرهم على أوروبا، بل و القضاء عليهم نهائياً إن أمكن ذلك [1] .

كما أصدر البابا اسكندر السادس عام (٨٩٩هـ/١٤٩٣م) ثلاثة مراسـيم تـسعى إلى تحقيق نفس هذه الأهداف ضد المسلمين [2] ، ولقد تمادى بعض البابوات في تلـك المراسـيم فوصفوا الإسلام بأنه طاعون ، وطالبوا ببذل الجهـود لتنصير سكـان المناطـق التي اكتشفت أو سوف تكتشف ، والحيلولة بين هؤلاء السكان وبين إصابتهم بطاعون الإسلام [3] .

وفي الوقت نفسه بذلت البابوية نفوذها الأدبي لإغراء البحارة على الانخراط في سـلك البعوث الكشفية ، لأن الإقبال على العمل في سفن الكشوف الجغرافية كان فـاتراً ، وكـان البابوات يعدون المشتركين في تلك الرحلات بالعفو عند الحساب في اليوم الآخر والفوز بالجنة والنجاة من النار ، كما صدرت الأوامر بأن ترسم الصلبان على أشرعة السفن ، وقـد كـان منصري أوروبا من رجال الطوائف الدينية يرافقون الرحلات الاستكشافية للقيام بمهمة نـشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكي في المناطق المكتشفة [4]. (أما خطة الهند)، الـسابقة الـذكر والتي ظهرت من خلال مراسلات البابا نيقولا مع الأمير هـنري الملاح فإنها ترجع في أساسها إلى انتشار قصة خيالية في أوروبا نظمت فصولها بإتقان، إذ أنهم عمدوا من خلالها إلى الرفع من شأن ملك الحبشة المسيحي، ومحاولة الاتصال به والاستفادة منه، والتعاون معه لـشن حـرب صليبية أخيرة ضد المسلمين، تقضي عليهم، وتعيد الأتراك العثمانيين إلى داخل آسـيا [5] فقـد انتشرت في أوروبا منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميـلادي أسـطورة برسـترجون (prester john)، أو القديس يوحنا، الذي أسس إمبراطورية مسيحية كبرى في الشرق ، وحكم الهند والصين ومن ثم الحبشة، التي كانت تعتبر الجزء الغربي من تلـك الإمبراطوريـة وتحكـي الأسطورة أنباء عجيبة عن هذه الإمبراطورية وملكها المقدس ، وسلطته المطلقـة علـى أثـنين

---

(١) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ٦٦ .

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١١٢ .

(٣) نفس المرجع ، ص١١٢ .

(٤) غسان علي الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

وسبعين ملكاً في الهند، وفتوحاته العظيمة وثراء بلاده الهائل ، وأن له استعداداً كبيراً لقتال أعداء المسيح[1]

وفي نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تطورت هذه الأسطورة فأصبحت بمثابة صورة تعبر عن آمال الصليبيين في تكوين تحالف مع هذا الملك القوي لضرب العالم الإسلامي ، خصوصاً بعد ما حققه المسلمون من انتصارات في الشام ومصر على الصليبيين ، وأصبحت هذه الأسطورة تنحصر في مملكة الحبشة إبان القرن السابع الهجري ، خاصة بعد أن تواترت الأنباء إلى أوروبا عن ملوك الحبشة الأقوياء الذين يحاربون المسلمين المحيطين [*] بهم هناك [2] . ففي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بدأ الرحالة الأوروبيون العائدون من مصر وفلسطين يذكرون ما يروى عن وجود مملكة مسيحية كبرى فيما وراء مصر بمسافة بعيدة ، ولم تعرف الحبشة في أوروبا بدقة إلا عن طريق البرتغاليين في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، على الرغم من أن الحبشة كانت معروفة تماماً للعرب منذ زمن طويل حتى أنها كانت مركزاً من المراكز التجارية الكبرى لديهم [3] ، فكان البرتغاليون هم السباقون لتنفيذ هذا المخطط الصليبي الذي يهدف إلى الوصول لمملكة القديس يوحنا المسيحية في شرق أفريقيا ، ويعنون بها الحبشة التي كانوا يظنونها ضخمة وقوية وقادرة على مساعدتهم في شن حرب على المسلمين في تلك المناطق [4] ، فأخذوا يبعثون الحملات البحرية الواحدة تلو الأخرى لتسير في محاذاة الشاطئ الغربي لأفريقيا بغرض الوصول إلى الطريق المؤدي إلى الهند

---

(٥) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص٧٠ ـ ٧١ .

(*) هم مسلمو الطراز أو دويلات المدن على ساحل البحر الأحمر التي أحاطت بالحبشة ، بالأخص على عهد الأسرة السليمانية التي أسسها (يكنواملاك) عام (٦٦٩هـ/١٢٧٠م) ، وقام ملوك هذه الأسرة باضطهاد المسلمين من حولهم ، وشنوا عليهم حروباً عديدة أحرزوا فيها انتصارات كثيرة ، انظر : نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ٧١ .

(١) نفس المرجع ، ص٧١ .

(٢) أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ج٦ ، ص٣٢ . وتذكر المصادر العربية بأن الحبشة كانت من المراكز التجارية عند العرب حيث كان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى أربع جهات رئيسية كانت تتجه إليها تجارة قريش ، فكان هاشم يتجه إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . انظر : نفس المرجع ، ج٦ ، ص ٣٢ .

(٣) وليد محمد جرادات ، المرجع السابق ، ص٨٩ ، فتحي غيث : الإسلام والحبشة عبر التاريخ، د.م ، شركة الطباعة الفنية المحدودة، د.ط (د.ت) ، ص١٤٥ .

مباشرة ،لسلب العرب تجارا م الرابحة [1] . وعمدوا إلى مطاردة المسلمين في تلك الـ سواحل ، ومهاجمة سفنهم التجارية في البحار الشرقية بطريقة انتقامية [2] . وفي عـ ام (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) أرسلت البرتغال بعثتين لاكتشاف موقع إمبراطورية برسترجـ ون وكـ ان قائد إحدى البعثتين يدعى بيرو دي كوفيلهـ ام (pero de covil ham) واستغرقـ ت رحلته الاستطلاعية التجسسية سبع سنوات [3] . حيث اتجه نحو الشرق ووصل البحر الأحمر وشرق أفريقيا والهند ، ثم عاد إلى القاهرة عام (٨٩٦هـ/١٤٩٠م) ، وفيها كتب تقريراً مفصلاً عن كل ما شاهده خـ لال تلـ ك الرحلة ، ثم توجه بعد ذلك إلى الحبشة لكي يقدم خدماته لحكامها ويحرضهم على المسلمين [4] .

وتبع هذه البعثات الكشفية ، جهود بحرية كبيرة قام ا البرتغاليون للالتفـ اف حـ ول أفريقيا بقصد الاتصال ذا الملك ، والعمل على تحويل سكان الحبشة من المذهب الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ بالإضافة إلى تحويل سـ كان الهنـ د مـ ن المسلمين والوثنيين إلى المسيحية [5] . وكذلك فقد كان الغرض الرئيسي من رحلة بارثليموديار حول رأس الرجاء الصالح ، هو إيجاد موقع إمبراطورية برسترجون ، والاتصال بملكها في ساحل أفريقيا الشرقي ، وقد شرح أحد المؤرخين هذا الهدف بقوله : (وكان الملك يـ حدوه الأمل بتنفيـ ذ ما بدأ القديس توماس [*] ، وزرع الديانة المسيحية في تلك البلاد) [6] .

وهكذا فقد كان للدافع الديني أثره الفعال في دعـ م تلـ ـك البعثـ ات والمغـ امرات الاستكشافية ، ويتضح ذلك من خلال الأفعال والأعمال التي كان يقـ وم ـ ا المستكـ شفون

---

(٤) عبد العزيز سليمان نوار : ابن ماجد جغرافي عربي لا نعرفه ، مجلة الهلال ، العدد العاشر، السنة٧٢ (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) ، ص٧٨ .

(١) فاروق أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمـ ر (١٨٣٩ ـ ١٩١٨م) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط (١٩٨٧م) ، ص٣٤ .

(٢) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٧٢ .

(٣) وليد محمد جرادات ، المرجع السابق ، ص٩٠ .

(٤) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١، ص ١١٠ .

(*) تذكر أسطورة برسترجون أن القديس توماس هو أول من نشر المسيحية في الهند . انظر : نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص٧٣ .

(٥) Sousa. Faria . The history of the Discovery"Vol. "1 "London.18 94.P.63

الأوروبيون فمثلاً كان الملاح - البندقي - كريستوفر كولومبس الذي كلفه الأسبان بالقيام برحلته غرباً حتى يصل إلى الهند وأسواق الشرق ، قد وضح أن هدفه من تلك الرحلة هو استخدام ثروة الشرق ، التي ستقع بين يديه في استخلاص بيت المقدس من المسلمين [1] .كذلك كان للأمير البرتغالي هنري الملاح دور مهم في حركة الكشوف الجغرافية ، حيث كان محارباً صليبياً من الدرجة الأولى ، وله سيرة حافلة بحروبه ضد المسلمين في شمال أفريقيا [2] ، واشتهر هنري الملاح بكراهيته الشديدة للمسلمين بل إنه كان يعتبر أن ملاحقتهم واجب ديني مقدس ، حيث ذكر بعض المؤرخين البرتغاليين أن هنري الملاح كان يعتقد بأنه تلقى من الله أمراً بأداء هذا الواجب [3] فقد نشأ في دير من الأديرة الأسبانية وتشرب تعاليم الكنيسة وبغضها المرير للإسلام والمسلمين ، كما ترأس بعد ذلك طائفة الرهبان اليسوعيين الجزويت [4] .

وساعده في تحقيق أغراضه الصليبية الموارد الضخمة التي يأت له من أموال الرهبان فقد أسس هنري مدرسة بحرية - علمية وعملية - ومرصداً في قلعته على رأس ساجرس (Sagres)، في الطرف الجنوبي لشاطئ البرتغال - وجلب إليها علماء الرياضيات ورسامي الخرائط والفلكيين ، كما استعان بأسرى من المسلمين الذين كانت لهم دراية كبيرة بشؤون الفلك والبحار والأسفار الطويلة والجزر البعيدة وبذل جهوداً كبيرة في تحسين بناء السفن من حيث الحجم والقوة والمتانة [5] .

وفي عام (٨١٨هـ/١٤١٥م) ، وصل هنري الملاح إلى الساحل الغربي لأفريقيا ، واستولى على سبته وهي الباب الذي دخل من خلاله الإسلام إسبانيا واسترجعها من أيدي المسلمين [6] .

---

(١) عبد الحميد البطريق وآخر : التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، د.ط (١٤١٥ هـ/١٩٩٥م) ، ص٤٣ .

(٢) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٧٣ .

(٣) بانيكار ، المرجع السابق ، ص٢٥ .

(٤) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ٧٣ .

(٥) بانيكار ، نفس المرجع ، ص٢٥ - ٢٦ .

(٦) نفس المرجع ، ص٢٥، فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٣٥ .

(*) جزر ماديرا :جزر بركانية تقع في المحيط الأطلسي بالقرب من الساحل الشمالي الغربي من أفريقيا ، وهي جزر برتغالية . انظر : الموسوعة العربية العالمية ، ج٢٢ ، الرياض مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ط١ (١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ، ص ٤٦ - ٤٧ .

كما تم في عهده اكتشاف جـزر مـاديرا [*] (Madeiras) ، عـام (٨٢٣هـ/١٤٢٠م) ، ورأس بوجادور [*] (Cape Bojador) ، عام (٨٣٨هـ/١٤٣٤م) ، حتى وصلت الرحلات البرتغالية إلى ساحل جامبيا والسنغال [١] ، ثم أرسل هنري الملاح عام (٨٤٥هـ/١٤٤١م) ، رسالة إلى البابـا يخبره باكتشافاته ، وبأنه يقوم بعملية التنصير هناك بين الشعوب غير المسيحية الأفريقية ، وطلب منه أن تكون كآفة الأراضي المكتشفة مستعمرات تابعة لملك البرتغال ، وقد بارك البابـا تلـك الخطة والاكتشافات [٢] . وقد تلقى في عام (٨٥٩هـ/١٤٥٤م) ـ هـنري المـلاح ـ التأييد الروحي من البابا نيقولا الخامس ، الذي أصدر له مرسوماً يبارك فيه جهوده في هـذا المجـال ، وبأن له الحق في جميع البلدان التي يكتشفها حتى بلاد الهنـد ، كمـا دعـاه لأن يـدخل في الكاثوليكية أعداء المسيح جميعاً [٣] .

وبذلك وجد هنري الدوافع القوية لمواصلة جهوده لتحقيق غايته المهمة ، وهي مهاجمـة الإسلام ، والقضاء عليه في كل من آسيا وأفريقيا [٤] وحيثما يتمكن منه .

ويمكن أن نستدل على الروح الصليبية الحاقدة عند البرتغاليين أيضاً من خلال الأعمال التي كان يقوم بها القائد البرتغالي فاسكودي جاما ، فقد كانت حملته عام (٩٠٣هـ/١٤٩٧م) ، حملة صليبية واضحة ، تتخفى بثياب العلم والاستكشاف [٥]. وقد عبر الملك البرتغالي عما نويل الأول (٩٠١ ـ ٩٢٨هـ/ ١٤٩٥ ـ ١٥٢١م) في خطبة طويلة عن أغراض تلك الحملة ، حيث ذكر بأن الغرض من اكتشـاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية والحـصول علـى

(*) رأس بوجادور : تقع مقابل جزر الكناري ، والتي تقع بمواجهة ساحل الصحراء المغربية . انظر: فتحي محمد أبو عيانة ، جغرافية أفريقيا دراسـة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب الصحراء ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، د.ط (١٩٧٨م) ، ص٢٦ .

(١) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٧٤ . وجامبيا والسنغال جمهوريتان في أفريقيا الغربية على المحيط الأطلسي . انظر : يحيى شامي ، المرجع السابق ، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٨ .

(٢) فالح حنظل : العرب والبرتغـال في التـاريخ (٩٣ ـ ١١٣٤هـ/٧١١ ـ ١٧٢٠م) ، أبـو ظـبي ، منـشورات المجمـع الثقـافي ، ط١ (١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ، ص٩٣ .

(٣) بانيكار ، المرجع السابق ، ص٢٧ ـ ٢٨ .

(٤) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٧٤ ـ ٧٥ .

(٥) جميل المصري ، المرجع السابق، ج١، ص٨٢.

ثروات الشرق [١] . وكانت سفينة فاسكودي جاما مزودة بالمدافع كما علق فوق ساريتها علماً رسم عليه صليب ضخم [٢] .

وعندما وصل فاسكو دي جاما إلى كاليكوت عام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) ، قـال : (الآن طوقنا رقبة الإسلام ولم يبق إلاّ جذب الحبل فيختنق) [٣] ، وفي قوله هذا ما يدل علـى مـدى كراهيته الشديدة للإسلام والمسلمين فقد عهد في عام (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) إلى أسطول برتغـالي صغير بحراسة مدخل البحر الأحمر ومهاجمة السفن العربية ، ومنعها من المتاجرة في المحيط الهندي إلا بتصريح خاص منه [٤] ، وكان يقطع الطريق على أية سفينة يلتقي ا في طريقه ، كما كان يعمل على تفريغ السفن مما ا من البضائع ، ثم يصدر أوامره بعدم إخراج المسلمين من تلـك السفن [٥] ، ومن ثم يتم إحراقها بمن فيها . ومن ذلك أيضاً إغراقه سفينة في خليج عمان كانت تنقل الحجاج من الهند إلى مكة وكان ا حوالي مائة حاج حيث أعدمهم جميعاً [٦] .

وقد أشار المؤرخ المسلم زين الدين إلى ما كان يقوم به البرتغاليون من إساءة إلى الإسلام وأهله في بلاد الهند كأخذ سفنهم وضر م ، والاستهزاء م ، وإنزال شتى أنواع العذاب ـم ، وقتل الحجاج المسلمين منهم ، أو تعطيل أسفارهم وخصوصاً إلى الحج و ب أموالهم وإحـراق مد م ومساجدهم ، وهتك حرمتها ، وسب الرسول ﷺ جهاراً ووطء المـصاحف والكتـب بأقدامهم وإحراقها ، وتحريض السكان على الارتداد عن دين الإسلام والسجود لـصليبهم [٧] . وقد تجسدت هذه الروح الصليـبية الحاقدة في القائد البرتغالي ألفونسو دي البوكيرك الـذي كان يعمل جاهداً للاستيلاء على جميع النقاط الاستراتيجية ،حتى يمهد بذلك لتخلـيص مكـة وبيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكان هذا هو الهدف الذي دفعه إلى أن يقول لجنوده قبـل احتلاله ملقا عام (٩١٧هـ/١٥١١م) : (أجل خدمة لخضد شوكة الإسلام ، بحيث لا تقوم لـه

(١) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ، يوسف فضل حسن ، المرجع السابق ، ص١١٧ .

(٢) السيد مصطفى سالم ، نفس المرجع ، ص ٤٧ .

(٣) جميل المصري ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٨٢ .

(٤) يوسف فضل حسن ، نفس المرجع ، ص١١٧ .

(٥) بانيكار ، المرجع السابق ، ص٤٠ .

(٦) محمود شاكر ، الكشوف الجغرافية دوافعها حقيقتها ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، د.ط (١٣٩٣هـ) ، ص ٢٧ .

(٧) زين الدين المعبري ، المخطوطة السابقة ، ق ١٨ (أ ـ ب) .

قائمة بعد اليوم بعملنا هذا ، وأنا على يقين أننا إذا انتزعنا الأفاوية ـ أي التوابل ـ والبهارات ، من يد العرب فإن الدمار سيحل بالقاهرة ومكة ، وستتوقف تجارة البندقية مع العـرب) (1) ، وقد اتبع البوكيرك سياسة صليبـية لا إنسانية ضد العرب بالذات فإذا تمكن من العثـور علـى عربي كان من المحال إفلاته ، كما كان يحشـر المسلمين في المساجـد ثم يقـوم بإحراقهـم فيها (2) . وكان البوكيرك هذا قد رسـم خطةً يهدف من خلالها إلى الوصول للمدينة المنـورة ونبش قبر الرسول ﷺ ، ثم يطالب بكنيسة القيامة في القدس فدية له (3) ، ومـن ثم يتوجـه إلى الحبشة ويعمل على احتلال جنوب مصر من أجل تغيير مجرى نهر النيل ليصب في البحر الأحمـر بدلاً من البحر الأبيض المتوسط مروراً بالقاهرة ، وحتى يحرم مصر من ري أراضيها بمياه النيـل ويخرب بذلك شبكة الري التي كانت قائمة فيها آنذاك ، فيمنع عنها الخـير والنمـاء وبـذلك يضمـن عـدم مقاومة المسلمين له (4) . غير أن خطته تلك باءت بالفشل ، فقد حـدث أن هبت ريح شديدة حين وصول أسطوله البرتغالي عام (٩١٩هـ/١٥١٣م) إلى كمران (*) فكـان الملاحون كلما رفعوا أشرعتهم للتوجه بسفنهم نحو تنفيذ غرضهم الخبيث تدفعهم تلك الـريح وتعيدهم ثانية إلى الجزيرة خائبين ، واستمرت هذه الحالة مدة كانت فيها الرياح والعواصـف تقاتل البوكيرك وتدفع بسفنه بعيداً عن تنفيذ مخططه (5) .

وقد أدرك البوكيرك بعد ذلك ـ خاصة بعد أن شاهد هلاك عدد كبير مـن جنـوده بالحمى والأمراض الخبيثة التي أنزلها الله بهم ـ أنه وجنوده هالكون لا محالة ، فأصـدر أوامـره

(١) جميل المصري ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٤ .

(٢) عبد العزيز سليمان نوار ، الشعوب الإسلامية ، ص.١٣ ـ ١٣١ .

(٣) جاكلين بيرين : " اكتشاف جزيرة العرب " خمسة قرون من المغامرة والعلم ، ترجمة قدري قلعجي ، تقديم حمد الجاسر ، بيروت ، دار الكاتب العربي ، د.ط (د.ت) ، ص٥٨ ،فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(٤) فالح حنظل ، نفس المرجع ، ٢١٧ ، جميل المصري ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٨٤ ، محمود شاكر ، الكشوف الجغرافية ، ص ٢٨ .

(*)كمران : جزيرة تقع قبالة زبيد باليمن ، انظر : ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، المجلد٢ ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنـشر ، د.ط (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) ، ص١٣٩ .

(٥) فالح حنظل ، نفس المرجع ، ص٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

بعودة السفن إلى خارج باب المندب ، وإلغـاء تلك الفكـرة الجهنمية التي كانـت تـدور في خلده [1] .

وهكذا فقد كانت الروح الصليبية ونشر المسيحية في أنحاء الشرق الأدنى هـي الـدافع الأساسي والمحرك للكشوف الجغرافية ، وخير دليل على ذلك أن المكتشفين البرتغـاليين كـانوا يتركون آثاراً تدل عليهم وعلى أهدافهم الصليبية أينما حلوا وحيثما ارتحلوا . فقد كانوا يقيمون صلباناً أو أعمدة تحمل صلباناً ، وأحياناً كانوا يحفرون هذه الصلبان علـى قشـور الأشجـار أو سيقا ا ، كما كانت كتابا م على الأعمدة الحجرية تنتهي دائماً بصليب في أعلاهـا [2] . لاعتقادهم أ م يباركون بعملهم هذا تلك الأماكن التي وصلوا إليها . ومن جهة أخرى اعتزازاً منهم بأ م تمكنوا من فتح تلك البلاد ونشروا المسيحية بين سكا ا .

ومن ثم يمكن القول أن الدافع الديني في غزو البرتغاليين لموانئ جنوب شبه الجزيرة العربية بما فيها ميناء الشحر كان من أهم الدوافع الصليبية الاسـتعمارية في الوصـول إلى الأمـاكن الإسلامية المقدسة من خلال تلك الموانئ . ولكن ترى هل اقتصرت أهداف هذه الكشوف على الأغراض الدينية ؟ أم كانت لهم أطماع أخرى فيها ؟ هذا ما سيتضح فيما سيأتي .

---

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٢٥ .

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص٥٥ .

الدافع الاقتصادي :

كان الدافع الاقتصادي ، من أهم الدوافع التي تلت الدافع الديني ، والتي أسهمت بدور كبير في دفع حركة الكشوف الجغرافية وكانت دولة البرتغال هي صاحبة الريادة في قيادة تلك الحركة ، وذلك بحكم موقعها الاستراتيجي ، فهي تملك شواطئ طويلة على المحيط الأطلسي (١) بالإضافة إلى أن لشبونة (*) ، أصبحت في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، مستودعاً لتجارة الشرق المتجهة إلى أوروبا (٢) . لـذا فقـد انـدفع البرتغـاليون في القـرن التاسـع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، نحو الكشوف الجغرافية فيما وراء البحار نتيجة للنمو المتصاعد للشعب البرتغالي ذاته ، وظهور تطلعاته القومية ، وطموحاته في السيـطرة والثراء (٣) ، وكـان للمدن الإيطالـية (**) دوراً مهماً في أوروبا ، نتيجة لقرب موقعها من مخارج تجارة الهند في مصر والشام ، ولأ ا تقع في جنوب أوروبا حيث توجد الطرق البرية ، التي تتشعب فيها التجارة من جنوب أوروبا إلى وسطها وشمالها ، بالإضافة إلى احتكارها بعض السلع التي كان يصعب علـى الأوروبيين الحصول عليها ، بسبب بعد مصادرها عنهم (٤) ، ومن ذلك أن البندقية (***) كانت

---

(١) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٧٥ . وكانت البرتغال قد أدركت بعد أن تخلصت من المسلمين في القرن الثـامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، أن توسعها لا يمكن بسبب صغر حجمها في شبه الجزيرة الآيبرية ، إنما لابد أن يكون توسعها بحريـاً . أنظـر : محمد أنيس وآخر ، الشرق العربي في التاريخ الحديث المعاصر ، د.م ، دار النهضة العربية ، د.ط (١٩٦٧م) ، ص٢٣ .

(*) لشبونه : كانت مدن الأندلس القديمة ، تقع إلى غربي قرطبة بالقرب من البحر ، استولى عليها البرتغاليون سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) ، وأصـبحت عاصمة لهم . انظر : أبا العباس أحمد بن يوسف القرماني ، أخبار الدول وآثار الأول في التـاريخ ، ج٣ ، بـيروت ، عـالم الكتـب ، ط١ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ، ص٤٥٤ .

(٢) بانيكار ، المرجع السابق ، ص٢٤ ، نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص٧٥ .

(٣) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٣٤ .

(**)كانت إيطاليا منقسمة سياسياً إلى مجموعة من الدويلات أهمها : البندقية ، وجنوة ، وميلان ، وفلورنسا ونابولي . انظر : عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٥٥ . غسان علي الرمال ، المرجع السابق ، ص٤٤ .

(٤) غسان علي الرمال ، نفس المرجع ، ص ٤٣ .

(***) البندقية : من أهم المدن الإيطالية ويقال لها وندك ، وعمار ـا في البحـر وتمشـي المراكـب في أزقتها . أنظر : المعرفة ، ا لـد (١٨) ، ص٢١٣٣ .

تحتكر جزءاً كبيراً من عملية نقل السلع الشرقيـة إلى أوروبا [1] ، وقد أدى ذلك إلى قيام تنافس شديد بينها وبين جنوة ، مما دفع الأخيرة إلى تشجيع ملوك إسبانيا والبرتغال من أجل الوصـول إلى الهند بحراً ومن ثم القضاء على ثروة البندقية ، وحرما ا من مصادر قو ا وثرو ا [2] . وكان البرتغاليون هم أشد الأوروبيين رغبة في السيطرة على مقاليد التجارة الشرقية كما كانوا أشدهم حقداً على الولايات الإيطالية التي كانت صاحبة السيادة على تلـك التجارة [3] الـتي لم تكن تصل إليهم إلا بعد أن تمر بعدة احتكارات تؤدي إلى رفع أسعارها ، أو ندر ا في بعض الأحيان ، وكانوا يدفعون رسوماً جمركية فادحة يفرضها عليهم حكام مصر والشام [4] .

وكان لاتصال البرتغاليين بمدينتي البندقية وجنوة دوركبير أسهم في تطوير المعلومات التي يستقو ا عن مصادر تلك التجارة الشرقية ، وأحوال الهند وتجار ا ، ومن خلال ذلك عـرف البرتغاليون قصصاً عـن الشرق ، تحكي عن ثرائه وحضارته الراقية ، وأسعار التوابل وكثر ـا هناك [5] ، فمثلاً كان ماركوبولو (Maroco polo) ، وهو من أهالي البندقية أول أوروبي توغل مشرقاً ، وقد وضع عقب عودته إلى البندقية في عام (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) ،كتاباً أسمـاه (كتـاب العجائب) ، ذكر فيه الكثير من القصص المثيرة عما شاهده من كنوز الشرق في البلاد التي قام بزيار ا وعن مدى تقدم الصناعة والتجارة فيها [6] . ولقد اشترى دون بـدرو (Don Pebro) ، البرتغالي نسخة من هذا الكتاب من مدينة البندقية ، وأهداها إلى أخيه الأمير هنـري المـلاح ، المشهور بتشجيعه لحركة الكشوف الجغرافية [7] . وفي خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر

(٥) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص٥٣ ، يوسف فضل ، المرجع السابق ، ص١١٦ ـ ١٥٥ .

(١) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٤٦ ، يوسف فضل حسن ، المرجع السابق ، ص١١٦ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص٣٥ .

(٣) عبد الحميد البطريق وآخر ، التاريخ الأوروبي الحديث ، ص٤٢ ، ج . ج لوريمر : دليل الخليج القسم التاريخي ، ج١ ، قطر ، طبع على نفقـة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني ، د.ط (د.ت) ، ص٩ .

(٤) بانيكار ، المرجع السابق ، ص١٩ ـ ٢٠ ، عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١١٣ـ ١١٤ ، نوال حمـزة الـصيرفي ، النفـوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٧٦ . كانت المنتوجات الشرقية معروفة لدى الأوروبيين معرفة جيدة وخاصة عقب الحروب الصليبية ، ولكـن الشيء الذي ظل مجهولاً هو مصادر هذه التجارة ، وكان ذلك بسبب بعد المسافة والخلاف الديني بالإضافة إلى الاختلاف اللغوي وما شاع عن أهل المناطق من تعصب ضد الأجانب . انظر : محمد البحراوي ، نفس المرجع ، ص٥٤ .

(٥) عبد العزيز الشناوي ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١١٣ـ ١١٤ .

(٦) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص٧٥ ـ ٧٦ .

الميلادي ، نشطت تجارة التوابل وخاصة في الحجاز ، حيث كانت تصل عن طريق البحر الأحمر من الهند وغيرها ، وكان التجار العرب يسيطرون على تلك التجارة ثم تصدر - بعد أن تصل ميناء جـدة - إلى مصر والشام ، حيث يكون التجار الأوروبيون في انتظارها في الإسكندرية ودمشق لحملها إلى بلادهم [١] . وكانت التوابل تحتل المرتبة الأولى لدى الأوروبيين لأهميتها في المطبـخ الأوروبي [٢] وقد أشار المؤرخ زين الدين إلى أن طلب التوابل كان مـن بـين أهـم الأسباب ، التي دفعـت البرتغاليين للقيـام بحركة الكشوف الجغرافية في بلاد الهنـد والخلـيج العربي [٣] ، وقد استغل المماليك تلك الفرصة ، فاحتكروا تلك التجارة ، وتحكموا في أسعارها ، ومن ثم تمكنوا من إبعاد التجـار الأصـليين ، كالكارميـة [*] (تجـار الكـارم)عنـها [٤] . وكانت حكومة المماليك تفرض رسوماً كبيرة عند وصول التوابل إلى السويس وعنـد إعـادة شحنها في الإسكندرية ، حتى وصل ثمن التوابل إلى ١٢٠ - ١٣٠ديناراً ، وما أن تـصل هـذه التوابل إلى أوروبـا ، حتى يكـون ثمنها قد زاد أضعافاً مضاعفة [٥] ، وكان الأمـير حـسين الكردي - نائب السلطان المملوكي قانصوه الغوري - في جدة يجبي عشرة أمثال العشر على التجارة الهندية ، ونتيجة لهذه السياسة صارت الرسوم تساوي قيمة البضائع تماماً [٦] .

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الارتفاع في أثمان التوابل إلى موجـة مـن الاسـتياء والسخط لدى التجار الأوروبيين ، ومن ثم امتناعهم عن التجارة مع مصر ، الأمر الذي أدى إلى تكدس المتاجر بالبضائع ثم بوارها كل ذلك حدا بالتجار الأوروبيين إلى البحث عن طريق آخر

---

(١) علي حسين الناصر ، المرجع السابق ، ص٢٧٩ .

(٢) بانيكار ، المرجع السابق ، ص٢١ ، غسان علي الرمال ، المرجع السابق ، ص٤٣ .

(٣) زين الدين المعبري ، المخطوطة السابقة ق - ١٣أ ، ب .

(*) الكارمية أو تجار الكارم :هم فئة من كبار التجار الذين كانت بأيديهم تجارة الوارد إلى مصر من الهند والشرق الأقصى ، وقد بدأ نـشاطهم في المحيط الهندي في عهد الدولة الفاطمية (٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م) ، وكانت عدن مركزاً لنشاطهم ، ثم أطلق اللفظ على جميـع مـن مارس التجارة الشرقية بوجه عام ، انظر : محمد عبد الغني الأشقر : تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامـة الكتاب ، د.ط (١٩٩٩م) ، ص٧-٣١ .

(٤) علي حسين الناصر ، نفس المرجع ، ص٢٧٩ .

(٥) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٧٦ .

(٦) عبد الله حامد الحبيد ، المماليك الجراكسة في اليمن ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، العدد ١ سنة (١٣٩٨هـ) ، ص١٦٥ .

للحصول على التوابل وقد حمل البرتغاليون عبء هذا المشروع [١] ، وذلك لتحقيـق هـدفهم الرئيسي ألا وهو القضاء على الإسلام .

وهكذا سخروا العامل الاقتصادي أيضاً لتحقيق هدفهم الديني [٢] ، وكان البرتغـاليون منذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، يسعون إلى الوصول إلى الهند عـن طريـق جديد للتعامل معها دون وساطة تجار الكارم [٣] إضافة إلى اعتقادهم بأن تجارة التوابل كانـت تعتبر العامل الأول في قوة العثمانيين [٤] فعمدوا إلى مطاردة المسلمين على ساحل أفريقيا الغربي ، وأصروا على انتزاع التجارة الشرقية وخاصة التوابل من أيديهم [٥] . وقد سبقت الإشارة إلى أن هنري الملاح بدأ الخطوات الأولى في الكشوف الجغرافية البرتغاليـة ، وعنـدما تـوفي عـام (٨٦٥هـ/١٤٦٠م) ،كان قد ترك لبلاده ـ البرتغال ـ أسطولاً بحرياً يعمل عليـه ملاحـون مدربون على خوض مصاعب البحار والمحيطات ، وبذلك أصبحت بلاده رائدة الدول الأوروبية في مجال الكشوف الجغرافية [٦] .

وفي عام (٨٩١هـ/١٤٨٦م)، أوفد الملك البرتغـالي جـون الثـاني (٨٨٦ ـ ٩٠١هـ/ ١٤٨١ ـ ١٤٩٥م) بعثتين الأولى بعثة بحرية بقيادة بارثلميودياز والثانية بعثة برية من رجلين هما (دي كوفيلهام ، والفونسودي بافيا) ، وكانت مهمة البعثتين محاولة اكتشاف أكبر مـا يمكـن اكتشافة من طرق برية أو بحرية موصلة إلى الهند ، بالإضافة إلى البحث عن موقع مملكة القديس يوحنا ، حيث كان الملك جون متلهفاً لعقد تحالف معه [٧] . أمـا بارثلميودياز هذا فقد توجه عام (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) ، على رأس حملة بحرية وسار بمحاذاة الساحل الغربي للقارة الأفريقية ، وبعد أن أمضى عدة أشهر في هذه الرحلة ، لاحظ أن الساحل الأفريقي قد أصبح على الجانـب الأيسر من سفنه ، فأدرك أنه لم يصل إلى أقصى الطرف الجنوبي لأفريقية فحسب ، بل إنه عـبر هذا الطرف وأنه يتجه شمالاً بمحاذاة الساحل الشرقي ، ولكنه لم يستطع إكمال رحلته ، لأنـه

---

(٧) علي حسين الناصر ، نفس المرجع ، ص٢٧٩ .

(١) **نوال** حمزة **الصيرفي ،النفوذ البرتغالي** في **الخليج العربي ، ص٧٦ .**

(٢) محمد عبد الغني الأشقر ، المرجع السابق ، ص٤٢٠ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٤) محمد عبد الغني الأشقر، نفس المرجع ، ص٤٢٠ .

(٥) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١١٨ .

(٦) فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص١٠٦ .

واجه تمرداً خطيراً من البحارة البرتغاليين ، فاضطر إلى أن يقطع رحلته ويعود إلى لشبونه ، وكان قد أطلق على ذلك الرأس الأفريقي الذي اكتشفه اسم (رأس العواصف) ، ثم سمى بعـد ذلـك (رأس الرجاء الصالح) (١) .

أما بالنسبة لـ (دي كوفيلهام) و (دي بافيا) ، فقد غـادرا لـشبونه أيـضاً في عـام (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) ، ومن ثم قررا أن يفترقا عندما وصلا إلى ميناء عـدن ، بحيـث يـذهب (دي كوفيلهام) إلى الهند ، و (دي بافيا) إلى مملكة القديس يوحنا ـ أي الحبشة ـ وكان من أهم نتائج تلك الرحلة أن (دي كوفيلهام) استطاع أن يصل إلى الهند ، حيث زار كـلاً مـن مدينتي كنانوروكاليكوت ـ وكلتاهما تقعان على ساحل مليبار (*) وشاهد هنـاك المخـازن المملوءة بالكثير من التوابل بمختلف أنواعها وحصل على قائمة أسعار بيعها من الموانئ الهندية ، ومن ثم قارنها بأسعار بيعها في أسواق أوروبا ، فكانت الفروق كبيرة ، بحيث دلـت علـى أن الحصول على هذه المنتجات من مواردها الأصلية وبيعها في الأسواق الأوروبية ، سيدر أرباحـاً طائلة على البرتغال (٢) . وقد أدت هذه الجهود المتواصلة إلى نجاح البرتغاليين في الوصـول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وإلى احتكارهم لتجارة الشرق بعد فترة من وصـولهم إلى مياه المحيط الهندي ففي عهد الملـك البرتغالي مانويـل الثـاني (Manual 11 /٩٠١ ـ ٩٢٨ هـ/١٤٩٥ ـ ١٥٢١م)، أرسلت حملة برتغالية بقيادة فاسكودي جاما مكونة من أربع سـفن، في عام (٩٠٣هـ/١٤٩٧م) (٣) ، وكانت موزامبيق أول محطة أرسى بها سفنه حيث وجد مـن حاكمها المسلم كل ترحاب إلا أن هذا الحاكم شك في أهداف فاسكودي جاما فـأظهر لـه الجفاء ، فاضطر إلى مغادرتها ، وتوجه إلى ممباسا (**) في الشمال ، حيث كانت أخباره قد سبقته

---

(١) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٢١ ، فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص١٠٦ ـ ١٠٧ .

(*) يحتل إقليم ميلبار الجزء الجنوبي من ساحل الهند الغربي وهو إقليم خصب تكثر به التوابل ، وبه كثير من الموانئ المهمة ، مثل : كاليكوت وكوشن وكنانور . انظر : السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٤٩ .

(٢) فالح حنظل ، نفس المرجع ، ص ١٠٧ .

(٣) السيد مصطفى سالم ، نفس المرجع ، ص٤٩ . انظر ملحق الصور ، صورة رقم (١) .

(**) ممباسا : تقـع على الساحل الشرقي لأفريقيا ، وتعد الآن الميناء الر ئيسي لكينيا ، ومنفذ البلاد على المحيط الهندي . انظر : الموسوعة العربيـة العالمية ، ج٢٤ ، ص٣٩ ، يحي شامي ، المرجع السابق ، ص٣٨٩ .

، فلم يجد هناك أي ترحيب من أهلـها [1]ثم توجـه بعـد ذلـك إلى ماليـندي[***] عـام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م)،وعندما وجد

ترحيباً من حاكمها طلب منه أن يدله على مرشد يصحبه إلى الهند ، فوافق على طلبه ولكنـه تأخر في إرسال ذلك الدليل ، فقام دي جاما باحتجاز أحد مبعوثي السلطان كرهينـة عنـده حتى يفي بوعده ويرسل إليه ذلك الدليل وبالفعل أرسله إليه وكان هذا الدليل هو العالم الفلكي أحمد بن ماجد [٢] .

وقد عرف الكتاب البرتغاليون في القـرن العاشـر الهجري / السادس عشر المـيلادي ابن ماجد باسم (ماليماكاناكوا) أو ماليموكانا وهـو التحريف للقبه العربي الذي يعني المعلم أي الربان الفلكي [٣] . وفي أثناء أول مقابلـة تمـت بين فاسكودي جاماوبين ابن ماجـد عرض فاسكودي جاما على ابن ماجـد آلاته البحريـة المستخدمـة عند البرتغاليين ، غير أن ابن ماجد لم يبد أية دهشة عندما رأى هذه الأدوات ، بل كانـت الدهـشة مـن نـصيب فاسكودي جاما وذلك عندما عرض عليه ابن ماجـد الآلات البحريـة الـتي كانت معروفة

(٤) وليد محمد جردات ، المرجع السابق ، ص٩٠ ـ ٩١ .

(***) ماليندي : ميناء يقع على ساحل شرق أفريقيا (كينيا) . انظر : محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص٦٨ .

(١) أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، الكويت ، المجلس الوطني الثقافة والفنون والآداب د.ط (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ، ص٢٥ .

وأحمد بن ماجد هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن عمر بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين السعدي النجدي ، ولد بمدينـة جلفار على الساحل العربي لخليج عمان ، وكان يلقب بعدة ألقاب مثل أسد البحر ورئيس البحر ورابـع أسـود البحر ولم يكن ذلك من قبيل العبث ، فقد وهب ابن ماجد نفسه للبحر فبرع في الملاحة ما يقرب من نصف قرن من حياته ، ولقد ورث تلك المهنة عن أجداده .

انظر : أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار في معرفة البحار ، تحقيق ونشر تيودورشوموفسكي ، ترجمة وتعليق محمد منير مرسي ، القـاهرة ، عـالم الكتب ، د.ط (١٩٦٩م) ، ص٧٧ ـ ٧٨ ـ ٨٩ ، خير الدين الزركلي : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجـال والنـساء مـن العـرب والمستعربين والمستشرقين ، ج١، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط٣ (د.ت) ، ص١٩٠، يوكراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العـربي ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢ (١٤٠٨هـ/١٩٨٧م) ، ص٦٢٣ـ٦٢٤ .

(٢) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٩٠ـ ٩١ .

Chritsophe Bell. Portugal and The Quest Indies. London .1974 p. 21

عند العرب ومنها إسطرلاب عربي من المعـدن وأجهزة مربعيـة ومثلثيـة الـشكل لقيـاس ارتفاع الشمس وخصوصاً النجم القطبي ، كما أراه خرائط تفصيلية لكل الـشواطئ الهنديـة مرسومة حسب خطوط الطول والعرض وكانت في غاية الوضوح ، وكـل هـذا لم يكـن معروفاً

لدى الأوروبيين آنذاك . فأدرك فاسكو دي جاما بأنه أمام ربان قدير عليم بـالطرق الملاحيـة وفنون البحر ، فقرر الرحيل والاستعانة به [1] .

وفي نفس العام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) ، وصل دي جاما إلى كاليكوت على الساحل الغربي للهند [2] . وقد اختلف المؤرخون في قصة إرشاد أحمد بن ماجد للقائد البرتغالي فاسكودي جاما فكانوا ما بين مؤيد وبين معارض لها ، ويعتبر المؤرخ المسلم العربي قطب الدين النهر والي ، هو الوحيد الذي أشار إلى تلك القصة في كتابه البرق اليماني في الفتح العثماني حيث زعم أن أحمد بن ماجد صاحب فاسكو دي جاما في جلسات السكر ، فعلمه الطريق وهو في حالة سـكر ، حيث قال لهم : لا تقربـوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلاتنا لكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك سلمت الكثير من مراكبهم ، وكثر عددها في بحر الهند [3] .

وقد تصدى بعض المؤرخين للرد على تلك التهم الموجهة إلى أحمد بن ماجد ، واعتمدوا في ذلك على عدة أسباب ، أثبتوا من خلالها بطلان مزاعم النهروالي وضعف روايته . ومن ذلك وصفه لابن ماجد بأنه رافق القائد البرتغالي وهو في حالة سكر،فمن المعروف أن ابن ماجد كان رجلاً متديناً ، خاصة وأنه عايش المخاطر والمهالك في البحر فلابد أن قلبه كان دائماً مـع الله

(١) أحمد بن ماجد ، المصدر السابق ، ص٨٤ـ ٨٥ـ ٨٦ ، عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٢٣ـ ١٢٤ .
Bell.op.cit.p.216-217.

(٢) زين الدين المعبري ، المخطوطة السابقة ق ـ١٢ب ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٤٩ .

(٣) قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ـ تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبـار غـزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر ، أشرف على طبعه حمد الجاسر، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ط١ (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ، ص ١٨ـ ١٩ .

عز وجل [١]، وقد ظهر تدينه الشديد من خلال كتاباته وأراجيزه، ومن ذلك قوله : (وينبغـي أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة ، فإنك في السفينة ضيف من ضيوف الباري عز وجل ، فلا تغفل عن ذكره) [٢] . هذا بالإضافة إلى أن فاسكودي جاما لم يكن من السذاجة بحيث يطمئن إلى رجل سكير فاقد الوعي ليدله على الطريق [٣] ، كما يمكننا القول بأن أحمد بن ماجد لم يكن هو الدليل أو المرشد الملاحي لسفن دي جاما ، وذلك من خلال تتبع تاريخ الملاحين العرب في ذلك الوقت ، حيث كانت بأيديهم أغلب تجارة المحيط الهندي ، وما كانوا ليسمحوا للبرتغاليين بانتزاع هذه السيادة منهم ، فيدلوهم على طريق الهند بهذه السهولة [٤] .

ومما يثبت ضعف رواية النهروالي أيضاً ، أنه ألف كتابه (البرق اليماني) بعـد رحلـة فاسكودي جاما الأولى بنحو ثمانين عاماً، ويحتمل أنه اعتمد على الإشاعات في معلوماته المتواترة ، إذ من عادة العوام أن ينسبوا الحوادث الكبرى للأسماء اللامعة ، وكان ابن ماجد آنذاك مـن أشهر ملاحي المحيط الهندي [٥]، ولو كانت هذه الإشاعة صحيحة لكان الأحـرى أن يـدونها مؤلف كتاب (المحيط) وهو سيدي علي ريس حسين [*]الربان التركي الذي ألف كتابه في عـام (٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م) ، أي قبل النهروالي بعشرين عاماً ، وهو الذي اطلع بدوره على مؤلفات ابن ماجد ، وعاشر الربابنة العرب واستمع إليهم ، ولم يحدث أن ذكروا له قصة إرشاد ابن ماجـد لفاسكودي جاما [٦] . كما يبدو الخلط واضحاً في مقال النهروالي بالنسبة للحـوادث المكانيـة والزمانية ، فالمتتبع لمقاله يرى أنه يعتقد بأن ابن ماجد دل البرتغاليين على طريـق رأس الرجـاء الصالح ، الذي كانت مراكبهم تتكسر حوله لاعلى الطريق الملاحي من مالیندى إلى كاليكوت ،

---

(٤) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٩٢ .

(٥) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص١٣٣ .

(٦) نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

(١) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٢ .

(*) سيدي علي ريس : عالم فلكي شهير ، ومن أشهر أمراء البحر العثمانيين ، كان له اطلاع واسع على بحار الهند ، وله مؤلفات في علوم البحار ، أشهرها كتابه هذا (المحيط) ، وصف فيه بحار الهند وصفاً دقيقاً ، وقد قام بترجمته المستشرق هامر ، كما نقله إلى اللغة الألمانية المستشرق ماكس بتنر (Max Bithner) انظر : عمر سالم بابكور ، حزام الأمن العثماني ، ص ٣٤٢ـ٣٤٣ .

(٣) أنور عبد العليم ، نفس المرجع ، ص ١٣٢ .

(**) جوا : مدينة تقع على ساحل المليبار جنوب الهند . انظر : فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص١٩٦ .

أما الخلط في الحوادث الزمنية فإن البوكيرك أخذ هرمز عام (٩١٣هـ/١٥٠٧م) ، أي قبل بناء قلعة جوا (**) وليس بعدها كما يذكر النهروالي (١) . كما يلاحظ أن ابن ماجد نفسه لم يصدر عنه في كتاباته ما يدل على أنه ركب مركباً برتغالياً، أو أرشدها إلى الهند، على الرغم من معاصرته لحملا م الأولى هذه سيما أنه كان على يقين بأن البرتغاليين مستعمرون ، يضمرون الشر للإسلام والمسلمين (٢) . وإضافة إلى ما سبق فإن أغلب المصادر البرتغالية تقرر بأن الربان موضع الخلاف كان مسلماً من جوزرات على ساحل الدكن ، وكان يعرف باسم (ماليماكاناكوا) ، أو بالمعلم كانا – بينما كان ابن ماجد عربياً من ظفار ، واسمه سهل النطق والحفظ ، فلو كان هو المرشد فلماذا تغفله المصادر البرتغالية كلها بلا استثناء ، كما أن جميع المؤرخين الذين قام المؤرخ البرتغالي (سارجنت) بتحقيق مؤلفا م في كتابه: (The portuguese off the South Arabian coast) والمعاصرين للغزو البرتغالي سنوات وصوله ، لم يشر أي منهم إلى أن ابن ماجد هو الذي قاد فاسكودي جاما إلى الهند . كما أن ابن إياس في كتابه : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، لم يشر هو أيضاً إلى ذلك رغم أنه كان يسجل أحداث البرتغاليين في البحر الأحمر (٣) .

وهكذا يمكن إدراك مدى ضعف رواية النهروالي ، وبأن أحمد بن ماجد لم يكن هو المرشد الملاحي الذي قاد فاسكودي جاما إلى الهند وعلى الرغم من كل هذه الآراء المعارضة ، فقد رأى بعض المؤرخين صحة هذه القصة ، وبأن ابن ماجد قد رضي أن يرشد أسطول دي جاما إلى الهند ، بعد أن كلفة بذلك سلطان ماليندي ، واعتبر ابن ماجد أن ذلك تكريما له (٤) ، وبأن الحوافز العلمية كانت هي الحافز الأساسي لقبوله هذه المهمة التي فتحت آفاقاً جديدة في تاريخ العالم البحري (٥) . كما رأوا بأن التفكك السياسي الذي أصاب المسلمين في ذلك الوقت

---

(٤) عمر سالم بابكور ، نفس المرجع ، ص٩٩ .

(١) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص١٣٤ .

(٢) عمر سالم بابكور ، حزام الأمن العثماني ، ص٩٩ – ١٠٠ .

(٣) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٩٣ .

(٤) يوسف الشاروني : سندباد في عمان ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط (١٩٨٦م) ، ص٥٠ .

هو الذي ساعد البرتغاليين كثيراً على تنفيذ أهدافهم هذه وأنه لا يجب أن يلقى اللوم على ابـن ماجد وحده فقط [1] .

وكيفما كان الأمر فإن فاسكودي جاما وصل إلى كاليكوت ، وبذلك حقق الهدف الرئيسي من رحلته ، ألا وهو اكتشاف الطريق البحري إلى الهند ، ومعرفة أحوال هذه الـبلاد ، ثم عاد إلى لشبونه في عام (٩٠٥هـ/١٤٩٩م) [2] . وفي عام (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) توجهـت مـن البرتغال الحملة البرتغالية الثانية إلى الهند بقيادة الفاريزكابرال (AlvarezCabral) ، وهدفها إنشاء مركز تجاري على ساحل الهند [3] وعندما وصلت تلك الحملة إلى كاليكوت تفاوض البرتغاليون مع الزامورين (Zamorin) ملك كاليكوت حول التجارة ، ثم حدث أن تعدوا على المـسلمين ، فشكك الزامورين في نواياهم ، فأمربقتالهم ، وقتل منهم نحو سبعين أو ستين رجـلاً ، فقـام كابرال بضرب كاليكوت بالمدافع [4] ، ثم عاد بعد ذلك إلى لـشبونة [5] . ولم يلبـث ملـك البرتغال مانويل أن أرسل حملة برتغالية أكـبر وأقـوى بقيـادة فاسـكودي جامـا في عـام (٩٠٧هـ/١٥٠١م) [6] ، وعندما وصل إلى كلوة - في شرق أفريقيا - قام بتدميرها ، وأرغم سكا ا على دفع الضريبة لملك البرتغال ، ثم غادرها إلى ماليندي ، حيث استولى على كثير مـن سفن المسلمين التي كانت ترسو في مينائها [7] .

وقد دون بعض مؤرخي المسلمين في عام (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) ما ارتكبه فاسـكودي جاما في حق المسلمين ، حيث قام بقتلهم وأخذ أموالهم [8] ، وعنـدما وصـل دي جامـا إلى كاليكوت قام بتهديد ملكها الزامورين (zamorin) ، ووقعت الحرب بين الطرفين ، وقد سـاعد

---

(٥) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص ٩٣ .

(٦) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٤٩ - ٥٠ .

serjeant R.B. The portuguse off the south Arabian coast. Berut. 1974p .14

(١) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٢) زين الدين المعبري ، المخطوطة السابقة ق - ١٣ ، أب .

(٣) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ٩٥ .

(٤) بانيكار ، المرجع السابق ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٥) Sousa .oP. cit. vol.1.P.64-65

(٦) جمال الدين الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق - ٦٧، ابن الديبع ، المصـدر السابق ، ص٢٧٥ ، يحيى بن الحسين بن القاسم ، المصدر السابق ، ص ٦٣٠ - ٦٣١ .

المسلمون الزامورين ضد البرتغاليين ورغم الأسلحة البرتغالية القوية ، فقـد اسـتطاعت سـفن المسلمين محاصرة أسطول دي جاما الذي انسحب إلى كنانور - شمال كـاليكوت - ثم إلى كوشن - جنوب كاليكوت - وعقد صلحاً مع ملكها ، ومن ثم عاد إلى البرتغال آخـذاً معه تسع سفن محملـة بما لا يقل عن خمسة آلاف قنطار من البهار [1] . وكان من أهم المكاسـب الاقتصادية التي حققتها البرتغال في تلك الفترة هو أنها أصبحت وسيطة التجارة بـين الـشرق والغرب - كنتيجة إيجابية لاكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح - فأصبحت السلع الـشرقية تصل لشبونة مباشرة بعيداً عن الرسوم الجمركية الباهظة ، التي كان يفرضها سـلاطين دولـة المماليك وبعيداً عن وساطة تجار البندقية وانخفضت فيها الأسعار بشكل مذهل الأمر الذي جعل تجار أوروبا يرتادون أسواقها ويستغنون عن أسواق مصر والشام [2] حيث كانت أسعار التوابل عن طريقهم تصل في أوروبا إلى ثلاثة أضعاف ثمنها الحقيقي [3] . ولقـد أدركـت البندقيـة خطورة ذلـك الأمر ، فأرسلـت وفداً في عـام (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) ، إلى الـسلطان المملوكي (قانصوه الغوري) ، برئاسة بندتوسـانوتو (Bendetto Sanuto) ، وعـرض عليـه تطورات الموقف في المياه الشرقية وطلب إليه العمل معاً من أجل القضاء على سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندي ، كما طالب السفير بتخفيض أسعار التوابل التي تشتريها البندقية من المماليك لمساعدتهم على الوقوف أمام منافسيهم البرتغاليين [4] . وتلت هذه السفارة سفارة أخرى عـام (٩١٠هـ/١٥٠٤م) لنفس الغرض ، وكان جواب السلطان المملوكي لكلا السفارتين بأنـه لا يستطيع أن يقف بمفرده أمام البرتغاليين ، ويجب على البنادقة معاونته في تجهيـز حملـة ضـد البرتغاليين في المحيط الهندي ولكن البندقية تلقت تهديداً شديداً من الملك البرتغالي مانويل بسبب تعاونها مع أعداء المسيحية وأعداء البرتغال [5] . وتابع البرتغاليون جهودهم الدينية الاقتـصادية هذه فبدأوا الخطوة الثانية لتحويل طريق التجارة العالمية،وذلك بمهاجمة السفن الإسـلامية عنـد

(٧) بانيكار ، نفس المرجع ، ص ٤١ـ٤٢ .

(١) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٢٥ ، فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٢) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ١٠٤ـ١٠٥ .

(٣) محمد عبد العال أحمد : البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني بامخرمة كما سجلها في مخطوط قلادة النحر ، الأسكندريه ، دار المعرفة الجامعية ، د.ط (١٩٨٩م) ، ص ٧٨ـ٧٩ .

(٤) محمد عبد الغني الأشقر ، المرجع السابق ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

مدخل البحر الأحمر والخليج العربي ، والاستيلاء عليها [١] كما هاجم البرتغاليون جزيرة سوقطرة [*] في عام (٩١٣هـ/١٥٠٧م) ، بقيادة الفونسودي البوكـيرك (Alfonso de Albuqeruqe) ، وأقامـوا ا حصناً للإشراف على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي [٢] . وفي نفـس العـام استولوا على هرمز مفتاح الخليج العربي [٣].

وفي عام (٩١٤هـ/١٥٠٨م) ، أرسل السلطان قانصوه الغوري أسطولاً بحرياً إلى المحيط الهندي في محاولة منه للقضاء على الوجود البرتغالي ، الذي استفحل خطره في المنطقة [٤] .

وتمكن الأسطول المملوكي بقيادة حسين الكردي من مفاجـأة البرتغـاليين في شـول (Chaul) بساحل المليبار ـ وأغرق وحـدات أسطولهـم ، وقتل قائدهم البرتغالي لـورنزودي الميدا (Lourenco de Almeyda) ، ابن نائب المـلك البرتغـالي في الهنــد فرانسيـسكـودي الميـدا (Francisco de Almeyda) ، غـير أن البرتغاليين تمكنوا في السنـة التالية ـ أي عـام (٩١٥هـ/١٥٠٩م) ، بقيادة نونوفازبيريرا (Nunno vaz pereira) ، من إنزال الهزيمة بالأسـطول المملوكي وتدميره في موقعة ديو (Dio) ـ قرب ساحـل الهنـد الغربي ـ ، الأمر الذي حقق للبرتغاليين هدفهم في حرية التنقل في المحيط الهندي [٥] . وبعد هزيمة المماليك في معركـة ديو ، لم تجد البندقية أمامها للحصول على التوابل سوى أن تخضع وتتجه إلى لشبونه أسوة ببقيـة دول أوروبا ، من أجل الحصول على التوابل [٦] . وفي عام (٩١٧هـ/ ١٥١١م) ، نجح البـوكيرك في الاستيلاء على ملقا ـ في الطـرف الشرقـي مـن آسيا ـ وهي تعد من أعظم المراكز العالمية

(٥) حسن صالح شهاب ، عدن فرضة اليمن ، ص ٢٠٠ .

(*) سوقطرة : هي أكبر الجزر العربية في خليج عدن وبحر العرب ، و تقع في خط الطول ٥٤ درجة شرقاً وفي العرض ١٢ درجة ، وهي تتبع اليوم لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . انظر : غسان الرمال ، المرجع السابق ، ص١٧٨ .

(٦) عيسى بن لطف الله بن المطهر : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوط مـصور علـى ميكـروفيلم بمعهـد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٦٢ / ٢تاريخ ، ق٧ ؛ بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٨٢ ، Serjeant op.cit.P.14.

(٧) ابن المطهر ، نفس المخطوطة ، ق ـ ٢٢ ، أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج٨ ، بيروت ، المكتـب التجاري ، د.ط (د.ت) ، ص٦٠ .

(١) وليد محمد جرادات ، المرجع السابق ، ص٩٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص٩٦ ، محمد عبد الغني الأشقر، المرجع السابق ، ص٤٣٤ .

(٣) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ١٠٦ .

التجارية ، حيث كانت تجمع فيها منتجات التجارة الشرقية بصفة خاصة [١] . ولكي يتم تحويل التجارة العالمية تماماً إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، سيطر البرتغاليون على سفالة وموزمبيـق ، ففي عام (٩١٩هـ/١٥١٣م) هاجم البرتغاليون زيلع [*] وبربرة [**] وجعلوا من هذه الموانئ مراكز لهم ، للاستيلاء على السفن العربية القادمة من البحـر الأحمـر ومـن ثم تحطيمهـا [٢] كمـا استخدموها لإمداد غزوا م في بلاد العرب وفرض الرقابة على السفن العابرة لكـي يـضمنوا لأنفسهم السيادة على أسواق التوابل [٣] .

وفي نفس العام كذلك قام البوكيرك بمهاجمة عدن ، ولكنه فشل في احتلالها لحـصانتها ولدفاع أهلها المستميت عنها [٤] فتوجه نحو كمران ، واستولى عليها ، غير أنه اضطر لمغادر ا ، بعد أن أدرك استحالة بقاء حامية برتغالية فيها ، لصعوبة تزويدها بالماء والطعام وإحاطة الخصوم ا من كل جانب [٥] . وبالتالي فقد كان على السلطان قانصوه الغوري أن يعمل جاهداً للقضاء على سيطرة البرتغاليين على منافذ التجارة الشرقية ، والذي كان يمثل ديداً صـريحاً للأمـاكن الإسلامية المقدسة ، ولتحقيق تلك الغاية كـان لابـد له أن يستعين بالقـوى الأخرى المحيطة به (كجمهورية البندقية ـ الدولة الصفوية ـ والدولة العثمانية) ، إذ إن دولة المماليك آنذاك كانت من الدول التي تأثرت اقتصادياً بتحويل التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الـصالح ، حيث أدى ذلك التحول إلى تدهور اقتصادها وعائدا ا والرسوم الضخمة التي كانـت تجنيهـا الخزانة المملوكية من موانئ مصر والشام والحجاز [٦] ،هذا بالإضافة إلى سوء الأحوال الزراعيـة

(٤) عبد الله حامد الحيد ، المماليك الجراكسسة في اليمن ، ص١٦٦ .

(*) زيلع : جزيرة على ساحل البحر من ناحية بلاد الحبشة . انظر : أبا عبيد البكري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٧٠٦ ، ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ا لد ٣ ، ص١٦٤ .

(**) بربرة : جزيرة تجاور سواحل اليمن في الحبشة ، وهي قاطعة من حد سواحل أبين ملتحقة في البحر بعدن . انظر : ياقوت الحموي ، نفس المصدر ، ا لد (١) ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

(٥) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص ١٠٤ .

(١) عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص ٦٨ ـ ٦٩ ، نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ١٠٤ .

(٢) يحيى بن الحسين بن القاسم ، المصدر السابق ، ص ٦٤٠ ، بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٠٢، جاكلين بيرين ، المرجع السابق ، ص٥٨ . انظر ملحق الصور ، رقم ٢ .

(٣) يحي بن الحسين بن القاسم ، نفس المصدر ، ص٦٤٠ ، وليد محمد جردات ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٤) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٣٨ .

والتجارية ، واستحداث ضرائب جديدة أرهقت الناس [1] ، لذا فقد لجـأ الـسلطان قانـصوه الغوري إلى البندقية طالباً منها العون العسكري لبناء أسطول جديد ، يستطيع تجديد المقاومة ضد البرتغاليين . إلا أن البندقية رفضت ، خاصة وأ ا كانت تسعى آنذاك إلى تحقيق مشروع تجاري جديد يهدف إلى إحياء طريق التجارة الشرقية إلى إيران والعراق عبر موانئ الشام على البحـر الأبيض المتوسط ، ومن ثم فقد تحالف البنادقة مع شاه إيران إسماعيل الصفوي [*] لتحقيق هـذا المشروع والعمل معاً من أجل القضاء على دولة المماليك [2] ، وقد أرسـلت البندقيـة بعثـة دبلوماسية إلى إيران لمفاوضة الشاه ، ولكن الدولة العثمانية تمكنت من إلقاء القبض على أعضاء تلك البعثة قبل وصولهم إلى إيران [3] ، وكان الشاه إسماعيل الصفوي يرغب بدوره في التحالف مع البنادقة والجنويين ليكونوا عوناً له ضد السلطان قانصوه الغوري [4] ، وقد حاول الـسلطان قانصوه الغوري الاتصال بالشاه إسماعيل الصفوي للاتفاق معه . ولكن البرتغاليين كـانوا قـد سبقوه إلى ذلك وأحبطوا تلك المحاولة [5] . ولهذا فقد لجأ إلى الاستعانة بالسلطان العثماني بايزيد الثاني (٨٨٦ - ٩١٨هـ/١٤٨١-١٥١٢م) الذي استجاب له ، وأمده بما يحتاجه من الأسـلحة والأخشاب اللازمة لبناء الأسطول ، وذلك دفاعاً عن الأماكن الإسـلامية المقدسـة [6] مـن الأطماع البرتغالية ، وكان البرتغاليون على علم بخطط السلطان قانصوه الغوري ضد البرتغاليين منـذ عام (٩١٨هـ/١٥١٢م) لتحطيم قو م في الشرق ، فأدركوا أنه لابد من القـضاء علـى الأسطول المملوكي في السويس،حتى لا يحقق انتصـاراً يكون دافعاً لانتصارات مملوكية أخرى

---

(٥) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص ١١٠ .

(*) هو إسماعيل بن الشيخ حيدر ابن جنيد بن ابراهيم ..بن الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي ، وإليه يرجع نسب أولاده فيقال لهم الصفويون . انظر : جمال الدين الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق٤١ ـ ٤٣ . ويعتبر الـشاه إسماعيـل المؤسـس الحقيقـي للدولـة الـصفوية في إيـران (٩٠٦ ـ ٩٣١هـ/١٥٠٠ ـ ١٥٢٤م) ، انظر : رأفت الشيخ ، المرجع السابق ، ص٦٥ .

(١) وليد محمد جردات ، المرجع السابق ، ٩٨ ، فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٤٢ .

(٢) محمد أنيس وآخر ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٣) محمد أحمد ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج٤ ، تحقيق محمد مصطفـى ، د.م ، الهيئة العامة لعصور الثقافة مركز تحقيق التراث ، ط٢ ، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ، ص ١٩١ .

(٤) محمد أنيس وآخر ، نفس المرجع ، ص ٢٦ .

(٥) وليد محمد جرادات ، نفس المرجع ، ص٢٠ ، محمد أنيس وآخر ، نفس المرجع ، ص٢٦ .

(*) رسالة مرسلة من القائد البرتغالي (اندري دو أمرال) ملك البرتغال بتـاريخ (٩١٨هـ/١٥١٢م) انظـر ملحـق الوثـائق وثيقـة رقـم ١ .
A.N.T.T.C.C. 1. 1147

ضد البرتغاليين [*] ، وعندما أصبح الأسطول جاهزاً في السويس حيث بلغ حوالي عشرين سفينة [1] توجهت الحملة المملوكية إلى زيلع ، وسيطرت عليها وكانت بقيادة حسين الكردي وسليمان الريس – وهو أحد البحارة العثمانيين الذين انضموا إلى المماليك لمساعدتهم في جهادهم ضد البرتغاليين في عام (٩٢١هـ/١٥١٥م) ، ثم توجهت الحملة نحو كمران بهدف التصدي للخطر البرتغالي [٢] .

وتابع الأسطول المملوكي سيره فتوجه نحو بلاد اليمن وسيطر عليها عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م) ، ومما ساعد المماليك على ذلك أن اليمن كانت تمر آنذاك بظروف سياسية صعبة ، بسبب المنافسة الشديدة بين سلاطين بني طاهر وبين الأئمة الزيدية ، الذين انحصر نفوذهم في الجزء الشمالي من اليمن خلال عهد السلطان الطاهري عامر بن عبد الوهاب [*] (٨٩٤ – ٩٢٣هـ / ١٤٨٨ – ١٥١٧م) ، إضافة إلى أن الإمام الزيدي شرف الدين (٩١٣ – ٩٦٦هـ / ١٥٠٧ – ١٥٥٨م) ، كان قد استنجد بالمماليك ضد الطاهريين ، فانتهز المماليك تلك الفرصة ودخلوا اليمن ، وتمكنوا من القضاء على الدولة الطاهرية فيها [٣] . ثم توجه القائد حسين الكردي بعد ذلك إلى جدة ، بعد أن ترك في اليمن نائباً عنه هو برسباي الجركسي ، وظل في جدة إلى أن بلغه نبأ سقوط الدولة المملوكية في أيدي القوات العثمانية عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) [٤] ، وكان على العثمانيين بعد أن ورثوا حكم الدولة المملوكية أن يحملوا لواء الحرب ضد البرتغاليين ، الذين تحالفوا مع الشيعة الصفويين أعداء الدولة العثمانية في إيران ، مما

---

(٦) ابن إياس ، نفس المصدر ، ج٤ ، ص٤٥٨ .

(٧) كمال الدين محمد بن إبراهيم بن المفضل : السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية ، جامعة القاهرة ، ق ١٢ب ، محمد أنيس وآخر ، نفس المرجع ، ص٢٦ .

(*) هو عامر بن عبد الوهاب بن داؤد بن طاهر بن معوضة القرشي الأموي الملقب بالملك الظافر آخر سلاطين اليمن من بني طاهر . انظر : خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٤ ، ص٢٢ – ٢٣ .

(١) ابن العماد ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ١١٥ ، أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص٤٦١ – ٤٦٢ .

(٢) ابن العماد ، نفس المصدر ، ج٨ ، ص١

السلطان قانصوة الغوري على يد القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول في مرج دابق شمال غربي حلب عام (٩٢٢هـ/١٥١٦م) . كما هزم المماليك أيضاً في موقعة الريدانية بمصر عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) . انظر : علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ط٣(١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ، ص ٦١ – ٦٢ ، أحمد شلبي ، نفس المرجع ، ج٧ ، ص٤٦٢ .

زاد من خطور م [1] ، حيث أن الشاه إسماعيل الصفوي ، استطاع أن يستعيد قوته بسرعة بعد هزيمته أمام العثمانيين في موقعة جالديران عام (٩٢٠هـ/١٥١٤م) [2] ، فكان على العثمـانيين إعادة السيطرة على الوضع في إيران [3] . إضافة إلى أن سيطرة السلطان العثمـاني سليم الأول (٩١٨ـ٩٢٦ه /١٥١٢ـ١٥١٩م)، على الدولة المملوكية في مصر عام (٩٢٣ه/١٥١٧م) ، كانت تجعله ينظر إلى تلك القوى المنتشرة على شواطئ البحر الأحمر من جدة إلى اليمن ـدف جعل هذا البحر بحيرة إسلامية آمنة من أية أخطار ، دد الأراضي المقدسة ، وتحمي التجارة بين الشرق الأقصى والبلاد الإسلامية وأوروبا [4] ، كذلك الحال بالنسبة لبحر العرب المشرف على المحيط الهندي .

ومن خلال ذلك يتضح لنا الأهمية الاستراتيجية لموانئ جنوب غربي شبه الجزيرة العربية ، بما فيها ميناء الشحر ، لموقعه الاستراتيجي المتميز في السيطرة على مقاليد التجارة الشرقية ، ومن ثم ظهور الأطماع البرتغالية بغرض السيطرة على ذلك الميناء الاستراتيجي . فماذا فعلت الدولـة العثمانية لتحقيق الأمان في هذه المنطقة ؟ هذا ما سيرد ذكره بالتفصيل لاحقاً .

---

(٣) فاروق أباظة : الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢ ـ ١٩١٨م) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط (١٩٨٦م) ، ص٢٠ .

(٤) عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، ص ٩٣ـ٩٤ .

(٥) محمد علي حوات : باب المندب أهميته الاستراتيجية وتأثيرها على الأمن القومي العربي ، د.م ، مكتبة مدبولي ، د.ط (د.ت) ص ٢٣ .

(١) محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة العثمانية إلى الانقلاب على الخلافة (٦٩٨ـ١٣٤٣ /١٢٩٩ـ١٩٢٤م) ، بيروت ، دار بيروت المحروسة ، ط١ (١٤١٥ /١٩٩٥م) ، ص١٦٢ .

الثورة الصناعية في أوروبا :

مما لاشك فيه أن المكاسب الاقتصادية الكبيرة التي حققها البرتغاليون بتدابيرهم الاقتصادية ضد العالم الإسلامي ، والتي توجت باكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح كانت سبباً رئيسياً في قيام نشاط رأسمالي كبير في البرتغال خاصة ، وفي غيرها من دول غرب أوروبا عامة [1] .

فقد انتقل مركز التجارة من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي ، وبالتالي ازدهرت الحركة التجارية في كل من موانئ البرتغال وإسبانيا ، ومن ثم موانئ غرب أوروبا ، كما نظمت في المحيط الأطلسي خطوطاً ملاحية بين أوروبا والمناطق المكتشفة ومنطقة المحيط الهندي ، ويطلق في التاريخ الاقتصادي على هذه الحركة اسم (الثورة الصناعية) ، وقد نتج عنها تدفق منتجات الشرق على أسواق أوروبا بكميات أوفر وبأسعار أقل مما كانت عليه قبل اكتشاف الطرق الملاحية الجديدة [2] . وفي سبيل تحقيق المزيد من الأرباح الاقتصادية بذل البرتغاليون جهوداً كبيرة في إقناع الدول الأوروبية بالحصول على مبالغ معقولة ، بحيث تسدد نفقة الرحلات التجارية دون النظر إلى الأرباح ، وذلك لتوجيه أنظار أوروبا إلى أسعارهم المنخفضة ، وهذا بالتالي يصرفهم عن التعامل مع أسواق مصر والشام [3] . وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير ، ففي عام (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) ، توجه التجار الإنكليز إلى أسواق لشبونه ، لرخص أسعارها عن الإسكندرية ، بالإضافة إلى قلة رسوم الجمارك [4] . ونتيجة لذلك صارت الأرباح في ازدياد مستمر لدرجة أنها كانت تصل أحياناً إلى خمسة أضعاف تكاليف الحملات التي كانوا يرسلونها [5] . فمثلاً عندما عاد فاسكودي جاما من رحلته عام (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) ، إلى

---

(١) غسان علي الرمال ، المرجع السابق ، ص٢٠١.

(٢) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٤٩.

(٣) غسان علي الرمال ، نفس المرجع ،ص١٩٩، جديون . س. ، تاريخ جنوب أفريقيا ،ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، الرياض ، دار المريخ للنشر ، د.ط (١٤٠٦هـ/١٩٩٨م) ، ص ٣٥-٣٦.

(٤) غسان علي الرمال ، نفس المرجع ، ص ١٩٩.

(٥) صالح رمضان محمود : الصراع البرتغالي في اليمن (١٥١٧/١٥٣٨م) ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٤٧ ، السنة (شوال ١٤٠٦هـ/يوليو ١٩٨٦م) ، ص ١٣٧، يوسف فضل حسن،المرجع السابق ، ص١١٧.

لشبونة ، كان يحمل معه سلعاً ضخمة من منتجات الهند قدرت بـ (٣٥،٠٠٠) ، قنطاراً مـن الفلفل والزنجبيل وجوز الطيب ، إضافة إلى الجواهر والأحجار الكريمة ، التي بلغت قيمتها مليون بندقي [*] . على الرغم من أن تكاليف حملته تلك لم تزد عن ٠٠٠ و٢٠٠بندقي [١] .

ولم ينتظر البرتغاليون بعد أن أغرقوا أسواق لشبونه بالمنتوجات الشرقية حضور التجـار الأوروبيين إليهم للشراء ، وإنما عملوا على إرسال السفن المحملة بمختلف أنواع التوابل إلى إنجلترا وغيرها من دول أوروبا [٢] . وقد قام الملك البرتغالي عما نويل الأول بافتتاح مستودعات تجارية في أنحاء البرتغال تمو ا لشبونه ، ومن ثم يتم توزيع البضائع منها إلى كآفة الدول الأوروبية،ومن أهم تلك المستودعات أنفرس [**] ، والتي كانت تشتهر بأ ا أكبر مركز تجاري في أوروبـا ، إذ إ ا كانت بالنسبة للبرتغاليين بمثابة السوق الرئيسية لتوزيع الأطنان الهائلة التي كانت تشتهر ـا لشبونه [٣] . كما عمد البرتغاليون في سبيل الترويج لبضائعهم الشرقية إلى معرفـة احتياجـات الدول الأوروبية من هذه البضائع ، ومن ثم العمل على توفيرها لهم [٤] .

لذا لم يكد القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي يقارب الانتهاء حـتى كانـت معظم دول أوروبا(إسبانيا وإنجلترا وايرلندا) ، تستقبل المنتجات الشرقية عن طريق البرتغـال ، أما في إيطاليا فقد تولت جنوه مهمة توزيع البضائع البرتغالية في معظم الولايات الإيطالية [٥] .

كذلك اتسعت عمليات تصدير الفضة والذهب وغيرهما من المعادن النفيسة إلى أوروبا، كنتيجة مهمة من نتائج حركة الكشوف الجغرافية [٦] . وكانت إسبانيا تعد آنذاك مركزا للفضة وسوقها الرئيسية في أوروبا. حيث كانت تقوم بتصدير سبائك الفضة إلى سائر البلاد الأوروبية ، وكان يطلق على عهد فيل

(*) البندقي من الدراهم الأجنبية والدرهم البندقي جاء عن طريق التبادل التجاري مع البندقية . انظر: غسان علي الرمال ، المرجع السابق، ص٥٠.

(١) نفس المرجع ، ص١٩٩ ، بانيكار ، المرجع السابق ، ص ٤١-٤٢.

(٢) غسان علي الرمال ، نفس المرجع ، ص ١٩٩.

(**) أنفرس : تقع على بعد١٢ ميل من لشبونه على امتداد الساحل . انظر : غسان على الرمال ، نفس المرجع ، ص ٢٠٢.

(٣) نفس المرجع ، ص٢٠٢.

(٤) نفس المرجع ، ص٢٠٠.

(٥) نفسه ، ص ٢٠٠.

(٦) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٣ ، عبد ا يد نعنعي : أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصـرة ١٤٥٣-١٨٤٨م ، بيروت ، دار النهضة العربية ، د . ط (١٩٨٣م) ، ص٢٠.

الفضة) في أوروبا ، وذلك بسبب ما تدفق على المدن النائشة فيها من ذهب وفضة [١] ، وقد أدى ذلك إلى توفر النقد المتداول ، ومن ثم تتابعت النتائج والآثار الاقتصادية المترتبة على وفرة العملة ، فزادت الأجور وارتفعت أثمان السلع . كذلك ارتفع مستوى دخل الفرد في المجتمع الأوروبي . غير أن أصحاب الدخل المحدود قاسوا كثيراً نتيجة لهذا الارتفاع في تكاليف المعيشة . وخاصة في أسعار المواد الغذائية مثل القمح بصورة خاصة [*] . وقد ذكر أحد المؤرخين بأن كثيراً من البحارة الأوروبيين كانوا يشاركون في الحملات البحرية الاستكشافية رغبة منهم في الحصول على الأجر المرتفع ، ومن ثم الهروب من الظلم الاجتماعي الذي ساد أوروبا في عصر الإقطاع [٢] . وقد لجأ البرتغاليون ليظلوا أ صحاب السيادة على مصادر التجارة الشرقية آنذاك إلى احتكار بعض أنواع السلع التجارية، ومن ثم خضع النشاط التجاري البرتغالي لهيمنة الدولة ، حتى يمكن القول عنه بأنه كان احتكاراً حكومياً ، مارس فيه الملك البرتغالي صلاحياته بالسيطرة على وكالة الهند [٣] ، فقد وضع البرتغاليون نظاماً دقيقاً لتجارتهم ، فكانت هناك حكومة لدول الهند وللهيئات المكلفة بالإدارة الاقتصادية في لشبونة ، التي كانت تشرف على تحديد أسعار السلع المصدرة [٤] . وقد وجد البرتغاليون في ذلك عوناً من بعض ملوك الهند ، ومنهم ملك كوشن الذي أعلن تأييده للملك البرتغالي عام (٩١٨هـ/١٥١٢م) ، وقام بإرسال الهدايا له . كما قدم مساعداته للسفن البرتغالية ، فكانت البضائع بما فيها الفلفل والقرفة وغيرها من التوابل تنقل من ملقا إلى البرتغال دون موانع أو عوائق [**] وأصبحت تجارة بعض السلع وخاصة التوابل احتكاراً لملك البرتغال ، ولا يحق لأحد المتاجرة بها دون تصريح برتغالي بعد دفع الضرائب ،

---

(١) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ٢١٨.

(*)كان النظام الإقطاعي هو أساس التنظيم الاقتصادي في أوروبا في العصور الوسطى ، فكان الناس ينقسمون إلى مجموعتين مجموعة عليا قليلة العدد وتملك الأرض فتستغل نتاجها ، وتتحكم بمصائر سائر من يقيمون عليها ، وأخرى دنيا تضم الأغلبية ، وتعمل في الأرض وتكون خاضعة لسيطرة أفراد المجموعة العليا ، في حين نلاحظ أن تلك الفوارق الاجتماعية لم تكن موجودة بين المسلمين في المجتمع الإسلامي بل شهد لهم بالأخوة والمساواة . انظر : عبد المجيد نعنعي ، المرجع السابق ، ص١٩، جميل المصري ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٧٣ .

(٢) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٥٣ ، عبد المجيد نعنعي ، نفس المرجع ، ص٢٠ـ٢٢ .

(٣) إسماعيل نور الربيعي : المرحلة الثانية من التنافس بين طريق رأس الرجاء الصالح وطرق القوافل التقليدية ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٤٤ ، السنة (محرم ـ صفر ١٤١٤هـ/يوليو ـ أغسطس ١٩٩٣م) ، ص١٣ :٤٦ .

(٤) غسان علي الرمال ، المرجع السابق ، ص٢٠٢ .

(* *) رسالة مرسلة من ملك كوشن إلى ملك البرتغال مانويل الأول بتاريخ (٩١٨هـ/١٥١٢م) ، انظر ملحق الوثائق ، وثيقة رقم (٢) . A.N.T.T.C.C.I.II.35 .

حيث كانت تصل إلى لشبونة ، ومنها توزع إلى أوروبا ، أما السفن التي لم تحصل على تصريح من قبل الحكومة البرتغالية في المحيط الهندي ، فقد كان مصيرها الأسر والإغراق ، وخاصة إذا كانت تلك السفن تابعة للتجار المسلمين [(١)] .

وقد أصدر ملك البرتغال أوامره لحكام الثغور البرتغالية في الشرق عام (٩٢٤هـ/١٥١٨م) بتوجيه نائبه في الهند لاتخاذ الإجراءات الحاسمة بتشديد الرقابة على الصادرات من الهند وتفتيش السفن التجارية ، وإنزال العقاب على كل من يحاول العبث بهذه الصادرات على اعتبار أنها حكراً بالبرتغاليين وحدهم دون غيرهم [(*)] .

كذلك عرض البرتغاليون إقامة تحالف تجاري مع البندقية كوسيلة للحفاظ على سياستهم الاحتكارية ـ تلك ـ إذ كانوا يخشون من منافستها لهم لكونها ذات مجد تجاري ، إضافة إلى الخطر المتمثل في علاقتها المستمرة مع المماليك ، وأهمية القضاء على تلك العلاقة في سبيل ضرب الاقتصاد المملوكي . وقد تضمن هذا العقد تسهيل مهمة تجار البندقية في الحصول على التوابل والسلع الشرقية من أسواق لشبونه ، مقابل قيامهم بتوزيعها في أسواق أوروبا ، ولكن كبرياء وعظمة البندقية منعاها من الاستجابة لهذا العرض [(٢)] . فما كان من البرتغاليين رداً على البندقية إلا أن سمحوا للسفن الفلورنسية الجنوية بمرافقة الأساطيل البرتغالية إلى الشرق ، وحمل ما تريده من بضائع شرقية ، مقابل أرباح معينة تعطى للبرتغاليين كوسيلة لإغراق الأسواق الأوروبية بهذه البضائع ولضرب البندقية [(٣)] والمماليك معاً . كما قام البرتغاليون في سبيل توفير المزيد من رؤوس الأموال التي تؤمن لهم الاستمرار بمشروعهم الاقتصادي بتأسيس جمعيات وشركات تجارية ، حرص على الانضمام إليها التجار الإيطاليون والألمان ، وكان من ضمن هذه الشركات شركة ويلر وفوجر التي حققت أرباحاً كبيرة من التجارة بالسلع الشرقية [(٤)] .

---

(١) غسان علي الرمال ، المرجع السابق ، ص٢٠٢ .

(*) الخطاب المرسل من حكام الثغور البرتغالية في الشرق الأفريقي والخليج العربي إلى نائب حاكم الهند ، بتاريخ (٩٢٤هـ/١٥١٨م) . انظر ملحق الوثائق ، وثيقة رقم٣ . A.N.T.T.C.C.I.I.I.405-406

(٢) غسان علي الرمال ، نفس المرجع ، ص٢٠١ .

(٣) نفس المرجع ، ص٢٠٠ـ ٢٠١ .

(١) إسماعيل الربيعي ، المرجع السابق ، ص٤٦ .

كذلك اهتمت البرتغال وإسبانيا بإغراق البلاد المكتشفة بمنتجاتها الصناعية ، مما أدى إلى نشاط كبير في عمليات القطاع الصناعي ، واتساع حجم التجارة بصورة كبيرة ومطردة ، ونشطت لذلك عمليات الاستيراد والتصدير عبر المحيطات [1] ، وأدخلت تحسينات كبيرة على بناء السفن التجارية ،من حيث الحجم والحمولة ، والسرعة ونوعية الأخشاب المستخدمة في صناعة السفن ، كما طرأ تقدم كبير على مختلف أنواع العلوم الجغرافية والفلكية والتاريخية [2]. الأمر الذي أدى إلى تطور دول غرب أوروبا اقتصادياً وسياسياً،فشهدت هجرة الآلاف من رعاياها إلى الأقاليم المكتشفة ، وهكذا فقد فتحت الكشوف الجغرافية ميادين جديدة للاستعمار ولمزيد من النشاط الاقتصادي [3] .

وإلى جانب كل ما سبق ذكره من الدوافع الدينية والاستراتيجية الاستعمارية وقيام الثورة الصناعية في أوروبا ، كان هناك دوافع أخرى أسهمت في دفع عجلة الكشوف الجغرافية ، ومنها الدوافع العلمية والرغبة في زيادة المعلومات الجغرافية في البحث العلمي والتنقيب ، خاصة بعد أن اطلع الأوروبيون على مجهودات العلماء المسلمين في ميدان الملاحة والفلك ، وعرفوا منهم الإسطراب والبوصلة ، مما شجعهم على توسيع خبراتهم الملاحية ، وبناء السفن الكبيرة والقوية [4]. وكانت المعلومات الجغرافية عن آسيا وأفريقيا لدى الأوروبيين ضئيلة وتعتمد على ما كانوا يتناقلونه من أخبار التجار الإيطاليين ، الذين كانوا يترددون على موانئ مصر والشام من أجل التجارة الشرقية ، كما أن معلوماتهم عن المحيط الأطلسي والبحار الجنوبية كانت شبه معدومة ، وتغلب عليها الخرافات والأساطير [5] ، فكانوا يعتقدون مثلاً بأن ساحل أفريقيا الغربي خالٍ من السكان ، وأن الرجل الأبيض عندما يصل إلى منطقة معينة من الشاطئ الأفريقي يتحول إلى اللون الأسود من شدة الحرارة ، وأن الملاحة تغدو مستحيلة كلما توغل الإنسان في الشاطئ

---

(٢) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٤٩ـ ١٥٠ .

(٣) جميل المصري ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٨٦ .

(٤) عبد العزيز الشناوي ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١٥٠ .

(٥) نفس المرجع ، ج١ ، ص١١٣ ، نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٧٨ . وكان الملاحون العرب قد عرفوا المرشدات الملاحية والخرائط البحرية منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، وقد اتخذوا من تجارهم الشخصية الواقعية أساساً جديداً للجغرافية الملاحية.
انظر : عبد العزيز الشناوي ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١١٩ .

(١) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٤ـ ١٠٥ .

الأفريقي ، وأنه لا يمكـن الدوران حول أفريقيا من ناحية الجنوب نظراً لالتـصاقها بالقطـب الجنوبي [1] .

ودفعت هذه المعتقدات البرتغاليين إلى التحقق من مدى صحة هـذه الآراء وإمكانيـة الالتفاف حول أفريقيا للوصول إلى الهند ، بعد أن تأكدوا تماماً من كروية الأرض ، إثر تحررهم من النظريات اليونانية القديمة [2] ، التي كانت تقول بأن الأرض قرص منبسط يحيط به البحر ، وأن مركزه بيت المقدس [3] .

كذلك استعان البرتغاليون بأساليب جاسوسية للحصول على المعلومات الملاحيـة مـن العرب ، فقاموا برحلات بين المشرق والمغرب لهذا الغرض ، وتظـاهروا بالإسـلام [4] ، وقـد سبقت الإشارة إلى الرحلات التي قام ـا بـيرودي كوفيلـهام وألفونـسودي بايفـا عـام (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) ، والتي أسهمت في الحصول على خارطات عربية عـن المحـيط الهنـدي ، ومعلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية في هذا المحيط ، بالإضافة إلى المعلومات الخاصة عن كل ما يتصل بتجارة التوابل وغيرها من البضائع الشرقية . وكان لذلك كلـه دور كبير في تقدم البعوث الكشفية الجغرافية للبرتغاليين لتحقيق الهدف الأساسي وهو الوصول بحـراً إلى الهند [5] .

ومن المؤكد أن هذه الدوافع مجتمعة أسهمت في اتساع أهداف الاسـتعمار الأوروبي ، ومن ثم التطور في مجال الكشوف الجغرافية ، حيث كان لذلك نتائج عدة أهمها اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ومن ثم السيطرة على مقاليد التجارة الشرقية ، وما تبعه من ا يار الاقتصاد المملوكي ، وتصدي الدولة العثمانية للأطماع البرتغالية المتزايدة في العالم الإسلامي والعـربي ، وخاصة في الجنوب العربي ، حيث تطلع البرتغاليون إلى مد نفوذهم على موانئ بحر العرب ومن

---

(٢) نفس المرجع ، ج١ ، ص١٠٥ ، نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص٧٨ .

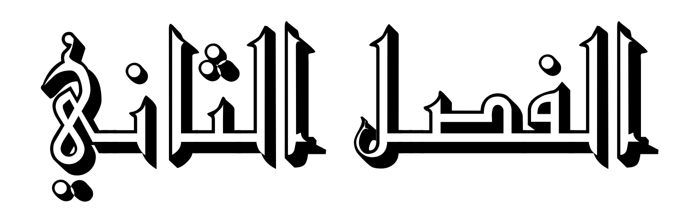
(٣) نوال حمزة الصيرفي ، نفس المرجع ، ص٧٩ .

(٤) عبد العزيز الشناوي ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١٠٥ .

(٥) نفس المرجع ، ج ١ ، ص١١٩ ـ ١٢٠ .

(٦) نفسه ، ج١ ، ص١٢٠ .

أهمها ميناء الشحر ، الذي كان عرضة لغزوهم نظراً لأهميته الاستراتيجية . وهذا ما سيرد ذكره بالتفصيل في الفصل التالي .



الفصل الثاني

الأطماع البرتغالية في ميناء الشحر وموقف المسلمين من الغزو الصليبي الاستعماري في تلك المنطقة

* غـ ـ ـزو البـ ـرتغاليين لميناء الشحر .
* الكثيريون حكام الشحر .
* موقف سكان الشحر من الغزو الصليبي الاستعماري الأوروبي .

غزو البرتغاليين لميناء الشحر :

بعد أن فشل البرتغاليون في احتلال جزيرة سوقطرة ، نظراً لعـدم تـوفر مقومـات الاستقرار فيها ، ومن ثم مغادرتم لها في عام (٩١٧هـ/١٥١١م) [١] ، أدركوا أن سـيطرتم على تجارة الهنـد المارة بالبحر الأحمر والخليج العربي لن تتحقق إلا باستيلائهم على مـوانئ شبه الجزيرة العربية ، لذا توجهت أنظارهم نحو تلك الموانئ لاحتلالها .

ففي عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) ، خرجت حملة برتغالية بقيادة نائب الملك البرتغـالي في الهند لوبوسواريز (Lopo soires) ، من جوا كان هدفها الأساسي القضاء على قوة المماليـك في البحر الأحمر وإغلاقه في وجه السفن العربية ، وذلك بتتبع بقايا الأسطول المملوكي بقيادة سلمان الريس ، الذي أثبت للبرتغاليين مدى قوته عقب محاولته السيطرة على عـدن عـام (٩٢٢هـ/١٥١٦م) ، التي كـان البرتغالـيون قد فشلوا أيـضـاً في احتلالـها عـام (٩١٩هـ/١٥١٣م) ـ كما سبقت الإشارة ـ كما كان من أهداف تلك الحملة الاتجاه إلى الحبشة لمساعدة نصارى الأحباش ضد إمارات الطراز الإسلامي ، وإنـزال بعثـة (داورت جالفان) الكاثوليكية إلى الأراضي الحبشية ـ رغبة في تحقيق أهدافهم الدينيـة ـ وأخـيراً احتلال عدن وتدميرها والتنكيل بأهلها [٢] . وقد وصلت الحملة البرتغالية أصلاً إلى عدن في عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) ، غير أن لوبوسواريز لم يهاجمها ، وإنما اكتفى بأن أخذ ما يحتاجه من مؤن ، بالإضافة إلى بعض المرشدين للاستعانة بهم في طريقه إلى جدة [٣] . وكان حاكم عدن آنذاك الأمير مرجان الظافـري قد اضطر إلى الاستجابة لمطالب القائد البرتغالي ، ولم يكـن ذلك تخاذلاً منه ، حيث تشير معظم المصادر اليمنية إلى أنه فضل مهادنة البرتغـاليين علـى مقاومتهم بسبب المشاكل التي كانت تواجهها عدن عقب فشل غارة المماليك السابقة عليهم [٤] .

---

(١) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٤٠ ، وليد جرادات ، المرجع السابق ، ص٩٢ .

(٢) غسان الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٣ ، صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ١٣٩ .

(٣) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ ، غسان الرمال ، نفس المرجع ، ص ٢٣٦ .

(٤) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ١٣٣ ، غسان الرمال ، نفس المرجع ، ص ٢٣٦ .

وعندما وصل لوبوسواريز إلى الحديدة (*) فكر في مهاجمتها ، خاصة عندما علم بمغادرة الأسطول المملوكي لها إلى جدة ، وعدم وجود مقاومة كافية فيها ، ولكنه فشل في احتلالهـا بسبب المقاومة الكبيرة ، بالإضافـة إلى تحطيم أجزاء كبيرة من أسطوله بسبب العواصـف الشديدة ، فاضطر للانسحاب إلى كمران حيث توفي فيهـا (داورت جالفـان) مبعـوث البرتغال إلى الحبشة ، ثم توجه القائد البرتغالي بعد ذلك إلى زيلع فهاجمها وقـام بنهبـها ، ثم غادرها إلى جنوب البحر الأحمر [1] . ولم يقـم بمهاجمة عدن في طريق عودته بسبب ما لحـق بأسطوله من خسائر كبيرة ، ولعدم تأكده من نتائج ذلك الهجوم [2] ، وقـد أدى هـذا إلى قيامه بتغيير سياسة سلفه البوكيرك ، والتي كانت تنص على عدم السماح للسفن البرتغاليـة غير الرسمية بالتحرش بأهالي المناطق التي يزورو ا ، فأصدر لوبو أوامره بالـسماح لكافـة السفن التجارية البرتغالية بالتجول حيثما شاءت ، بشرط أن تساعد القوات الرسمية علـى مطاردة سفن العرب ، وهكذا فقد تعرضت الموانئ العربية لموجـة شـديدة مـن غـارات البرتغاليين ، حيث قام تجارهم بالإغارة على الموانئ ومنها الشحر ، فنهبوا ودمروا وأغرقـوا السفن ، مما أدى بكثير من سكان المدن الساحلية مثل المخا والشحر إلى الفرار نحو المرتفعات [3] . وفي عام (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) ، أرسلت البرتغال حملة أخرى بقيادة لوبيزدي سـيكويرا (Lopez de Seaqeira) ، وجعلت من أهم أهدافها مهاجمة جدة أيضاً ومن ثم إنزال بعثـة دي ليما ، الذي خلف داورت جلفان في رئاستها إلى الحبشة ، وعلى الرغم من مرور الحملة أمام عدن إلا أ ا لم تحاول مهاجمتها ، بل اتجهت مباشرة إلى جدة ، غير أ ا فشلت في الوصـول

(*) الحديدة : بلدة مشهورة على ساحل البحر الأحمر غربي صنعاء ، وتعد الآن من أكبر الموانئ على ساحل البحر الأحمر في اليمن ، انظر : الحجري ، المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

(١) غسان الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص١٣٩ .

(٣) غسان الرمال ، نفس المرجع ، ص ٢٣٧ .

إليها بسبب معاكسة الرياح ولوجود حامية عسكرية كبيرة ا فتوجهت الحملة إلى السواحل الحبشية ، حيث لاقت نجاحاً كبيراً في إنزال بعثتها إلى هناك ، وقد ساعدهم في ذلك أن الأحباش كانوا على استعداد كبير للتعاون معهم ، وقد عادت الحملة بعد ذلك أدراجها إلى مدخل البحر الأحمر ، بعد أن تزودت من عدن بما تحتاجه من مؤن ، وكان الأمير مرجان آنذاك قد جدد استعداداته في هذه المرة منذ أن علم بوجود تلك الحملة البرتغالية على مقربة من عدن [١] .

ونتيجة لفشل الحملات البرتغالية السابقة ، فقد توجهت أنظارهم لاحتلال موانئ جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم تحقيق سيطرتم التامة على تجارة الهند ، ومن أهم تلك الموانئ ميناء الشحر المتحكم في الطريق البحري بين الخليج العربي والبحر الأحمر [٢] . وكانت الشحر منذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي تخضع لحكم سلاطين بني كثير ، كما أ ا كانت عرضة لغارات القوات البرتغالية منذ قدومهم إلى المشرق [٣] . وفي أثناء حكم السلطان بدر بن عبد الله الكثيري المكنى (أبو طويرق) للشحر تعرض الميناء لهجوم برتغالي غير أن تلك المحاولة باءت بالفشل وكان ذلك في عام (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) ، [٤] . ويمكن القول إن أول هجوم برتغالي منظم على الشحر كان في عام (٩٢٩هـ/١٥٢٢م) ، عندما جاءوا إليها في أربع عشرة سفينة [٥] ، بقيادة القائد البرتغالي دون لويس (Don Luis) [٦] .

---

(١) محمد عبد العال أحمد ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، ص ٢١٤ – ٢١٥ – ٢١٧ ، غسان الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٢) محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٣) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص١٤٣ .

(٤) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٥) محمد علي البار ، نفس المرجع ، ص٨٥ . وقد ذكر أحد المؤرخين بأن حجة البرتغاليين في غزو الشحر آنذاك تعود إلى أن تاجراً برتغالياً يدعى (ألفونس دي فيجا) مات في الشحر ، وأن السلطان بدر الكثيري استولى على أمواله حسب ادعاءاتم . فطلب قائد الأسطول البرتغالي تسليم تلك الأموال له دون تأخير . انظر : صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٦) غسان الرمال ، نفس المرجع ، ص٢٤٢ .

وقد أشار أحد المؤرخين إلى ذلك الهجوم ، وموقف أهالي الشحر منه ، حيث ذكـر بأ م كانوا على علم بأن بعض السفن الغريبة كانت في طريقها إليهم ، وهـو الخبر الـذي أشاعه فيما بينهم بعض الصيادين القادمين من عرض البحر . وعلى الرغم من أن الأهـالي تأكدوا من صحة ذلك الخبر بأنفسهم ، إلا أ م لم يأخذوا استعداداتم لذلك الخطر ، حيث كان بإمكا م ذلك خاصة وأن البرتغاليين لم يهاجموهم عند وصولهـم ، حتى أ ـم لم يغادروا سفنهم ، كما أنه لم يتوجه أي من السكان نحو تلك السفن ، ولكن الذي حدث أن فـوجئ الأهالي جوم البرتغاليين عليهم بعد ذلك [1] .

وهكذا يلاحظ أن الشحريين لم يتخذوا موقفاً دفاعياً في بداية الأمر ، ولعل ذلك مـا دفع بعض المؤرخين إلى توجيه الاتامات إليهم لتخاذلهم ، ومن ثم هزيمتهم أمام الغزو البرتغالي [2] . في حين يرى أحد المؤرخين أن موقفهم هذا ربما يعود إلى عدم معرفتهم بواقع الأمـر ، وتوقعهم بأن هذه السفن الغريبة جاءت لأغراض سلمية كالتجارة مثلاً ، ولكن ذلـك ليس بالعذر الكافي ، بل كان من واجبهم تقصي حقيقـة هـذه السفن ومعرفة أهـدافها منـذ وصولها إلى سواحل الشحر [3] ، ثم الاستعداد للدفاع عن بلادهم حين يتضح لهم أ ا سـفن الأعداء .

وكيفما كان الأمر فإن أهالي الشحر تصدوا فيما بعد لذلك الهجـوم ، ودارت بـين الطرفين عدة معارك استمرت ثلاثة أيام [4] . فتل خلالها عدد كبير مـن أعيـان الـشحر وفقهائها الذين استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم ، ومن بين أولئك الشهداء الأمير مطران بن

---

(١) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٤١ .

(٢) بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٥٧ ، الكندي ، المصدر السابق ، ص٦٥ .

(٣) محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص٨٦ .

(٤) محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ص٤١ .

(*) هو والي الشحر بالنيابة من قبل السلطان بدر الكثيري ، عزل عن ولايته عام (٩٢٦هـ/١٥١٩م) ، وحبس وصودرت بعض أمواله ، وتولى الإمارة بعده الأمير عطيف بن علي بن دحدح ، ثم أعيد الأمير مطران إلى الشحر مرة أخرى عام (٩٢٨هـ/١٥٢١م) . انظر : الكنـدي ، نفس المصدر ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

منصور [*] ، والشيخ أحمد بن عبد الرحمن بلحاج بافضل [1] . وقد عمد البرتغاليون خـلال ذلك الهجوم إلى نهب منازل الأهالي ومتاجرهم ، وإحراق أعداد كبيرة منـها ، مما ألحـق الخراب والدمار بها [2] . وقد أشار إلى ذلك المؤرخ بافقيه قائلاً : (و نهب البلد نهباً فظيعـاً ، نهبها أولاً الإفرنج ثم بعدهم الرماة العسكر ، وشياطين البلد ، وافتقر لذلك خلائق ..) [3] . غير أن البرتغاليين انهزموا بعد ذلك هزيمة نكراء ، واضطروا لمغادرة ميناء الشحر واتجهوا نحو دهلك [4] . ويمكن القول أن موقف الشحريين من ذلك الغزو وتصديهم له جـاء متـأخراً بعض الشيء ، إلا أنه أسهم في عدم استقرار البرتغاليين في الشحر ، وفـشل محاولتـهم في احتلال ذلك الميناء الاستراتيجي ، ثم واصلت الحملة البرتغالية طريقها ، حيث أغارت على عدن وضربتها بالمدافع عدة أيام غير أنها فشلت أيضاً نتيجة لمقاومة سكانها لذلك الهجوم [5] .

واستمر البرتغاليون في إرسال الحملات بعد ذلك ، ومنها حملة القائـد (هـايتوردي سلفيرا Heytor De silveyra) التي وصلت إلى عدن في عـام (٩٣١هـ/١٥٢٤م) وأجـبرت حاكمها الشيخ عبد الملك بن محمد بن داؤد على عقـد معاهدة ، تنص على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين ، وعلى أن تفتح ميناءها للسفن البرتغالية غير أن نائب الملك البرتغالي

---

(٥) محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٤١ . كان للشيخ أحمد بافضل دور كبير في هذه المعركة ، حيث قاتل قتال الأبطال ، وأرسـل رسلاً مستعجلين برسائل مؤثرة إلى حضرموت يستنفرهم إلى الجهاد . انظر : نفس المرجع ، ص ٤١ .

(٦) محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٤١ ، صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص١٤٠ . Serjeant op.cit. p 52

(٧) بافقيه ، نفس المصدر ، ص١٥٧ .

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ ، نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص١٣٤ .

ودهلك : اسم يطلق على الجزيرة الرئيسية في الأرخبيل المعروف بهذا الاسم في البحر الأحمر قبال مصوع بارتيريا ، ويقـدر عـدد جـزر الأرخبيل حوالي ١٢٥ جزيرة أكبرها دهلك الكبير . انظر : غسان الرمال ، المرجع السابق ، ص٩١ .

(٢) غسان الرمال ، نفس المرجع ، ص٢٤٣ .

في الهند فاسكودي جاما رفض إبرام تلك المعاهدة ، على اعتبار أن البرتغاليين يجب أن تكون لهم السيطرة التامة على المراكز التجارية ، ومن ثم تحقيق أغراضهم الاقتصادية [1] .

وهكذا فلم تحقق تلك الحملة أهدافها أيضاً ، فأرسلت حملة برتغالية أخرى إلى البحـر الأحمر في عام (٩٣٣هـ/١٥٢٦م) ، أسندت قيادتها أيضاً إلى دي سلفيرا ، والـذي أجـبر مصوع ودهلك على دفع الجزية ، ومن ثم اتجه إلى الساحل الحبشي ، حيث تمكن من استعادة المبعوث البرتغالي (دي ليما) ، كما حاول السيطرة على عدن ، ولكنه فشل بسبب الريـاح الشديدة التي فتكت بمعظم سفنه ، فاضطر إلى التوجه نحو هرمز [2] .

كذلك توجهت حملة برتغالية مكونة من أربع عشرة سفينة نحو سواحل المـشقاص (*) عـام (٩٣٤هـ/١٥٢٧م) فاستنجد الأهالي بالشيخ عمر بن أحمد العمودي (**) ، الذي توجه لنجدتهم مع عدد من أولاده وأقاربه وفقهاء فيدون (***) . ولكن الله عـز وجـل صـرف البرتغاليين عن سواحل المشقاص والشحـر ، إذ إن أهل الشحر كانوا آنذاك متخوفين أيضاً من هجوم البرتغاليين [3] ، الذين عاودوا محاولاتهم لغزو سواحـل الشحر وبحر العرب عـام

---

(٣) بافقيه ، نفس المصدر ، ص١٥٣ ، غسان الرمال ، نفس المرجع ، ص٢٤٣ـ٢٤٤ ، صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص١٤٠ .

(٤) غسان الرمال ، نفس المرجع ، ص٢٤٤ .

(*) المشقاص : بلدة تقع في الجنوب الشرقي من حضرموت . انظر : الحجري ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٧٥ .

(**) عمر بن أحمد بن محمد العمودي من كبار أهل العلم ، كان يدرس ويفتي ببلدة فيدون ، توفي في عام (٩٤٧هـ/١٥٤٠م) ، انظر : بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٨٣ـ٢٨٤ .

(***) فيدون : بلدة بوادي دوعن بحضرموت فيها آل العمودي . ودوعن : واديان من أعلى البلاد . أحدهما يسمى الأيمن ، والآخر الأيسر . به عدة قرى ومدن . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص٤٦١، الحجري ، نفس المصدر ، ج٤ ، ص٦٥٨ .

(١) صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية، القاهرة،شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط١ (١٣٦٨هـ/١٩٤٩م) ، ص ١٢.

(٩٣٥هـ/١٥٢٨م) وذلك عندما أبحر القائد البرتغالي أنطونيو دا أميرانــدا (Antonio Da Amiranda) من جوا في عشرين سفينة متوجهاً نحو بحر العرب لاعتراض السفن المتوجــه إلى البحر الأحمر ، ولكنه لم يغامر بمهاجمة الشحر لوجود سفن حربية عثمانية بقربها [1] .

وفي نفس العام (٩٣٥هـ/١٥٢٨م) قامت سفينة برتغالية بالهجوم على مركب كــان يبحر بالقرب من الشحر في طريقها إلى الهند ، وكان محملاً ببعض المؤن فاستولت عليهــا ، ولكن السلطان بدر الكثيري تمكن من استعادتها في حيريج [****] مقابل ألف وثمانمائة أشــرفي [2] وفي العام نفسه توجهت أيضاً حملة عثمانية بقيادة مصطفى بيرم وصفر سلمان اللذين قاما بمحاصرتها [*****] لفترة طويلة استمرت خمسة أشهر ، إلا أنه جرت فيما بعد معركة قوية بين الطرفين عام (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) ، وقد انتصر فيها أهل عدن [3] .

أما بالنسبة لمصطفى بيرم وصفر سلمان فقد توجها بسفنهما نحــو الهنــد ، إلا أنهمــا اضطرا إلى تغيير طريقهما إلى الشحر بسبب الرياح القوية ، حيث دخلوها بعد أن أذن لهــم السلطان بدر الكثيري بذلك [4] .

وفي عام (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) ، قــدم إلى ميناء الشحر تاجــر برتغالي من بلاد الهند ، فطلب الأمان على نفسه بحجــة أنه إنما جاء للقيام بعملية التبــادل التجــاري في الميـنــاء ،

---

(٢) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ١٣٥ .

(****) حيريج : مدينة مهرية قديــمة تقع على الساحل من الضفة الغربية من وادي المسيلة الذي يصب غربي مدينة سيحوت . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص ١٨٩ .

(٣) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ١٨٩ ، الكنــدي ، المصــدر السابــق ، ص ١٦٧ ، حســن صالح شهاب ، أضواء على تــاريخ الــيمن البحري ، ص ٢٠١ـ٢٠٢ .

(*****) كان صفر سلمان قد عقد صلحاً مع والي عدن الأمير عبد الصمد بن إسماعيل من قبل السلطان عامر بن داؤد الظاهري على أن تكون السكة والخطبة باسم السلطان العثماني سليمان القانوني ، بالإضافة إلى نصف عشور المراكب التي تصل من الهند ، غــير أن والي عــدن نقض ذلك الصلح فيما بعد مع إبقائــه للخطبة باسم السلطان سليمان ، لذلك توجهت تلك الحملة لإخضاع عدن مرة أخرى . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ـ١٩٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٩٣ـ١٩٤ ، الكندي ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

فأعطي الأمان .كما وصلت سفينة برتغالية إلى الميناء ، وكان فيها بعض الأسرى من المسلمين فطلب البرتغاليون الأمان لدخول المدينة ، فأمنهم السلطان بدر الكثيري ، فابتاعوا واشتروا فيها [1] . وهكذا يلاحظ أن البرتغاليين لجأوا إلى سياسة الاحتكاك المباشر بسكان سواحل جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، وخاصة في التجارة ، وذلك تنفيذاً للسياسة التي أعلنها القائد البرتغالي لوبوسواريز ، والتي سبق أن أشرنا إليها ، وهي السعي للسيطرة على تلك الموانئ والبلاد . وفي نفس العام تولى نونو دي كونها (Nuno De Cunha) منصب نائب الملك البرتغالي في الهند ، فأمر بتجهيز أسطول برتغالي بقيادة دي سلفيرا للاستيلاء على عدن التي وصلها عام (٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م) وأجبر حاكمها السلطان عامر بن داؤد الطاهري على التوقيع على معاهدة جديدة ، وهي لا تختلف كثيراً عن المعاهدة السابقة ، فقد كرر فيها السلطان خضوعه للبرتغاليين ، كما وافقه على دفع مبلغ عشرة آلاف أشرفي ذهب ضريبة سنوية ، وفي المقابل وافق دي سلفيرا على أن تتجول سفن أهل اليمن في البحر ، بشرط أن لا تدخل إلى البحر الأحمر ، وأن لا تذهب إلى مكة المكرمة [2] . وقد أثارت هذه المعاهدة الشكوك حول حاكم عدن ومدى وطنيته ، حيث تعرض للنقد الشديد . غير أن بعض المؤرخين أرجعوا ذلك إلى أنه قام باعتقال البرتغاليين الذين بقوا هناك ، واستخدمهم في صناعة الأسلحة ، كما أنه أرسل إلى السلطان العثماني سليمان القانوني يبلغه بالدخول في طاعته [3] . أما بالنسبة إلى الحملة العثمانية المذكورة التي استقرت بالشحر بقيادة مصطفى بيرم فقد غادرتا بعد أن ذكر قائدها للسلطان بدر الكثيري بأنهم تركوا وراءهم مركباً لهم فيه أولادهم ونساؤهم ، كما طلبوا منه أن يهتم بهم أثناء عدم تواجدهم في حالة وصولهم إلى الشحر . وعلى الرغم من أن المركب وصل إلى المكلا ، إلا أن السلطان اهتم بأمرهم وأرسل إليهم ما يحتاجونه من مؤن وعتاد [4] . أما الأمير مصطفى بيرم ومن معه فقد اضطروا للعودة إلى ميناء الشحر مرة أخرى بسبب قوة الرياح الجنوبية ، فاستقبلهم السلطان بدر بكل

---

(٣) بافقيه ، نفس المصدر ، ص١٩٤ .

(٤) فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص ٣٣١ ، صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص١٤١ .

(١) صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(٢) الكندي ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

حفاوة وتكريم ، وقد توجه الأمير مصطفى بعد ذلك إلى الهند خوفاً من وصول البرتغاليين ، غير أنه ترك صفر سلمان وبعض جنوده في الشحر [1] . وقد عاود البرتغاليون تعديهم على سواحل الشحر ، حيث قامت سفينة برتغالية بالهجوم على إحدى المراكب القريبة من ميناء الشحر ، فسرقوا ما فيها من الأشياء الثمينة كما اشتبكوا أيضاً في معركة ضارية عام (٩٣٧هـ/١٥٣٠م) ، مع مركب كبير بالقرب من الحامي [*] . غير أنهم تركوه دون أن يسرقوا منه شيئاً ، إذ كان هدفهم الإسراع بالوصول إلى قواعدهم في الهند ، لينذروا بخروج الأسطول العثماني [2] .

وفي نفس العام أيضاً وصلت ميناء الشحر سفينة برتغالية ودارت معركة بينها وبين عدد من المراكب القادمة من الهند ، وعندما علم صفر سلمان بذلك قام ومن معه من العثمانيين بالتوجه إلى بحر العرب لمواجهتهم ، وعندما رآهم البرتغاليون لاذوا بالفرار إلا أنهم في اليوم الثاني عاودوا هجومهم على أحد المراكب القادمة من الهند ، وذلك بالقرب من الحامي ، واستولوا عليه ، وعندما علم السلطان بدر بذلك أرسل صفر سلمان ومن معه من العثمانيين وبعض المهرة لمواجهتهم ، غير أن البرتغاليين هربوا عندما علموا بذلك ، وتركوا المركب بعد أن قبضوا على الربان ومساعده ، فتبعهم العثمانيون والمهرة إلا أنهم لم يدركوهم [3] .

وهكذا يلاحظ أن البرتغاليين لم يكونوا على استعداد آنذاك للدخول في معركة حربية مع العثمانيين،خاصة وأن الدولة العثمانية كانت آنذاك في أوج قوتها ، وتدل هذه الحادثة أيضاً على أن البرتغاليين لم يكن هدفهم سرقة تلك المراكب فحسب ، بل كان لديهم هدف أكبر وهو جمع المعلومات عن تلك الموانئ تمهيداً للهجوم الأكبر عليها فيما بعد . وليس أدل على ذلك من أخذهم لربان ذلك المركب ومساعده . وبعد أن غادر صفر سلمان ميناء

---

(٣) نفس المصدر ، ص ١٦٩ ، حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص ٢٠٢ .

(*) الحامي : بلدة تقع غرب الشحر . انظر : بافقيه ، المصدرالسابق ، ص ٤٦٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٦ .

(٥) نفسه ، ص ١٩٧ـ ١٩٨ ، الكندي ، نفس المصدر ، ص ١٩٦ـ ١٧٠ .

الشحر متجهاً نحو الهند ، عاود البرتغاليون عمليات قطع الطريق على المراكب في المشقاص ، فخرج لمواجهتهم جماعة من حصويل (*) ، وتمكنو من القضاء على عدد كبير منهم (1) . ومن ثم إبعاد خطرهم لفترة محدودة .

إلا أنه في العام التالي (٩٣٨هـ/١٥٣١م) ظهرت سفينة برتغالية بالقرب مـن ميناء الشحر وأخذت تقطع الطريق على السفن المارة بالميناء ، ومن ثم وصلت بعد ذلك سبع سفن برتغالية أخرى إلى الميناء ، وقامت بالاستيلاء على عدة مراكب من ضمنها مركب (الأمـير يوسف التركي) ـ أحد رجال السلطان بدر الكثيري ـ فقـام بعـض الأهـالي بإفـساد مراكبهم حتى لا يستولي البرتغاليون عليها ، الذين لم يكتفوا بالاستيلاء على المراكـب بـل هاجموا سكان الشحر بمدافعهم ، فتصدى لقتالهم أحد البحارة العثمانيين مع عدد من الأهالي ، واستمر القتال بين الطرفين وصار بعض البرتغاليين يرمون بأنفسهم في البحر ، وكـان أن انهزموا واضطروا لمغادرة الميناء ، وتمكن الأهالي من استعادة مراكبهم عدا مركب يوسـف التركي ، الذي أخذه البرتغاليون ورفضوا إرجاعه (2) .

وفي عام (٩٣٨هـ/١٥٣١م) وصلت إلى ميناء الشحر أربع سفن برتغاليـة أخـرى ، وعملت ما عملته سابقاتها من الاستيلاء على مراكب الأهالي ، وكان للبحار العثماني السابق الذكر دور كبير في التصدي لهم ، ولولا موالاة بعض ذوي المناصب الكـبرى في الـشحر للبرتغاليين لما استطاع هؤلاء أن يستولوا على شيء من الميناء ، إذ إنهم قاموا بنهي هذا البحار عن محاربة البرتغاليين ، غير أنه لم يستجب لهم ، فقاموا بحبس بعض الجنود الذين ساعدوه في مهمته ، وعاقبوهم بالضرب والحبس ، وقد كان لتلك الحادثة صداها العظـيم حيـث حزن المسلمون لذلك حزناً كبيراً . أما البرتغاليون فقد غادروا الميناء بعد ذلك في طريقهـم إلى الهند (3) . ثم توجهت حملة برتغالية أخرى إلى بحـر العـرب بقيـادة مانويـل دافـاس

(*) حصويل : من قرى قشن من بلاد المهرة على ساحل بحر العرب شرق مدينة الشحر . انظر : بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(١) نفس المصدر ، ص ١٩٨ .

(٢) نفسه ، ص٢٠٥ـ٢٠٦ .

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٠٦ـ٢٠٧.

كونسيلاـوا (Manoel Daves Concello) عـام (٩٣٩هـ/١٥٣٢م) لاعتـراض السفن المتوجهة إلى البحر ، غير أنها فشلت في مهمتها [١] .

وتوالت الحملات البرتغالية ، ففي العام التالي (٩٤٠هـ/١٥٣٣م) جاءت الأخبار إلى ميناء الشحر بخروج أربع سفن برتغالية في طريقها إلى مضيق باب المندب ، فمرت بميناء عدن ومن ثم غادرت ثلاث منها ، أما السفينة الرابعة فقد توجهت نحو ميناء الشحر ، وهناك قامت بالقبض على أحد المراكب القادمة من الهند بين الشحر وعدن ، ثم توجهت بـه نحـو الشحر للمساومة مع سكانها على تخليصه ، غير أن هذه المفاوضة انتهت بالفشل ، فغادرت السفينة البرتغالية الميناء ومعها ذلك المركب [٢] .

وفي نفس العام (٩٤٠هـ/١٥٣٣م) توجهت إحدى السفن البرتغالية الأربعة السابقة الذكر إلى ميناء الشحر ، وفي طريقها التقت بسفينة صغيرة لأهل الشحر بالقرب من (عـين بامعبد) [*] فرمى بحارتها وركابها بأنفسهم في البحر ، ونهب البرتغاليون معظم ما كان علـى تلك السفينة من القماش الحضرمي الأسود والقرنفل وغير ذلك من البضائع ، وعندما وصلت السفينة إلى الميناء ، قام بحارتها بالاعتداء على سفينة صغيرة أخرى تابعـة للشحريين بالقرب من روكب [**] ، ونهبوا ما خف حمله من السلع الثمينة ثم تركوها في الشحر [٣] .

كما توجهت أربع سفن برتغالية أخرى إلى البحر الأحمر ، وفي طريقهـا إلى كمـران التقت بسفينة صغيرة تابعة لليمنيين ، فقبضـوا على عـدد من ركابها ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى الزهاري [***] ، وفاجأوا أهلها بالهجوم عليهم ففر الأهالي ، غير أن البرتغاليين تمكنوا من القبض على عدد منهم مختبئين بين الأشجار ، ومن بينهم نسوة وأطفال ، وعندما وصلوا إلى الشحر افتدى السلطـان بدر الكثيري والأهالي معظم الأسرى ، وعامل السلطان البرتغاليين

---

(٢) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ١٣٥ .

(٣) بافقيه ، نفس المصدر ، ص٢٢٠ـ ٢٢١ ، حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص٢٠٧ .

(*) عين بامعبد قرية صغيرة في الجنوب الغربي من حضرموت . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص٢٢١ .

(**) روكب : بلدة تقع على بعد عشرة أميال تقريباً إلى الشرق من مدينة المكلا . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٤٦١ .

(٤) بافقيه ، نفس المصدر ، ص٢٢١ ، حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص٢٠٧ .

(***) الزهاري أو الزهرة : مدينة تقع إلى الشرق من حديدة على ساحل البحر الأحمر . انظر : يحيى شامي ، المرجع السابق ، ص١٣٥ .

معاملة حسنة ، ليتجنب شرهم ، وعند مغادرتم للميناء عـام (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) ، قـدم لقائدهم فرساً هدية ، كما أهدى فرسين آخرين لاثنين من رفاقه [(١)] .

وهكذا يتبين أنه في الفترة التي تلت الحملة البرتغاليـة الأولى على مينـاء الشحر في عام (٩٢٩هـ/١٥٢٢م) . لم يقم البرتغاليون خلالها بالهجوم على ذلك الميناء مرة أخرى. غير أن احتكاكهم بذلك الميناء تكرر أكثر من مرة عن طريق إرسال حملات صغيرة ، وقـد ورد ذكر الهدف من هذه الحملات في جمع أكبر قدر من المعلومات عن جغرافية ذلك الميناء وعن الأوضاع السياسية التي كانت تمر ا المنطقة ، ومراقبة تحركات العثمانيين البحرية في ذلـك الميناء وغيره من موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية ، إضافة إلى ما حققـوه مـن مكاسـب اقتصادية من جراء اعتدائهم على السفن والمراكب العربية ، التي كانت تمر بذلك المينـاء ، إلا أن احتلال ميناء الشحر كان الأمل الذي ظل يراود البرتغاليين ، ولذلك فكروا بإعـداد حملة عسكرية أكبر من الأولى لتحقيق تلك الرغبة ، خاصة وأ م صـاروا علـى درايـة بالسواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية بعد احتلاله بعض مناطقها لفترات محـدودة [(٢)] . ولذا فقـد توجهوا نحو ميناء الشحر عام (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) ، وصادف أثناء وصولهم إليها وجود السلطان بدر الكثيري فيها الذي كان عائداً من حيريج ، بعـد أن سـيطر عليهـا . وكذلك الأشراف الزيدية [(*)] قد عادوا أيضاً إلى الشحر برئاسة الشريف ناصر أحمـد بـن حسين وبني عمه أهل الجوف [(**)] . وكان السلطان بدر قد استعد لملاقاة البرتغاليين هذه المرة استعداداً كبيراً،فلما وصلوا إلى الميناء قام السلطان بالسيطرة على سفنهم . وفي نفس العـام

---

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٢٨ـ ٢٣٠ ، حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص ٢٠٧ .

(٢) محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص٨٧ ـ ٨٨ .

(*)الزيدية : بلدة لها أعمال في اليمن من ناحيـة سردد شـمال حديدة ، ويسكنها طائفة من الحسنيين . انظر : الحجري ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٩٦ ـ ٣٩٨ .

(**) الجوف : بلدة تقع في الشمال الشرقي من صنعاء . انظر : الحجري ، نفس المصدر ، ج١ ، ص١٩٥ .

وكان الشريف ناصر وأهل الجوف قد وفدوا قبل ذلك في عام (٩٤١هـ/١٥٣٤م) على السلطان بدر الكثيري فأكرمهم وأحسن وفادتم ، وذلك بعـد أن سيطر الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين من أشراف صنعاء على صعدة شمال صنعاء وشتتهم ، ومن ثم تم الصلح بينهم وبينه . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص٢٢٦ ، الحجري ، نفس المصدر ،ج٣ ، ص ٤٦٧ـ٥٣٦ .

(٩٤٢هـ/١٥٣٥م) ، وقعت معركـة كبيرة في الميناء بين الطرفين بحراً وبراً ، وقد تصدى الشحريون للبرتغاليين تصدي الأبطال ، ورأى البرتغاليون منهم ما لم يعهدوا مثلـه قـط في الماضي من النـزال والكفاح [١] . وكان أكثر القتلى من البرتغاليين الذين اضطروا إلى طلب الأمان من السلطان بدر ، خاصة بعد أن علموا بوقوع معظم سفنهم في قبـضته ، فأمنـهم السلطان واستسلم معظمهم له ، فأخذ ما كان معهم من أموال ومتاع ، ثم قام بتوزيعها على قواته ، فجعل للأشراف الزيدية عشرة أسرى ، وللعساكر الزيود عشرة ، وللعـسكر مـن يافع عشرة ، وللعبيد النوبيين [*] عشرة . وقد تمكن بعضهم – نحو مائة شـخص – مـن الهرب بإحدى سفنهم ، كما عثر جنود السلطان على عدد منهم وهم مستخفون في البيـت بعد هزيمتهم الساحقة ، وقد بلغ عدد المأسورين منهم حوالي سبعين أسيراً [٢] .

كما قدم بعض البرتغاليين إلى ميناء الشحر من جهة سواحل شرق أفريقيـا ، ولكـن السلطان بدر قبض عليهم ، وأخذ ما كان معهم من أمـوال ، وضمهم إلى من سبقهم مـن الأسرى [٣]. وبعد أن انتهى السلطان بدر من قتالهم أرسل خمسة وثلاثين أسيراً برتغاليـاً إلى السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٧ـ٩٧٤هـ/١٥٢٠ـ١٥٦٦م) ، حيث ذهب م القائد مصطفى التركي إلى جدة ، فلما وصلوا إلى مكان يقال له الثغر قريباً من جدة ، تمكن سبعة منهم من فك قيودهم ، وهجموا على القائد مصطفى ومن معه ، فقاتلهم ثم قتل السبعة جميعهم ، وأرسل باقي الأسرى بعد أن وصلوا إلى جدة في سـفينة ضـخمة إلى الـسلطان العثماني ، كما أرسل السلطان بدر أحد عشر أسيراً منهم إلى ظفار ، حيث قتل واحداً منهم

---

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ، محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

(*) النوبيون : النوبة نسبة إلى البلد المعروف بمصر ، وفي حضرموت كان يطلق على العبيد السود ا لموبين من أفريقيا العبيد النوبيين . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص٢٣٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٥ ، محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٤٢ .

(٣) محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٤٢ ، محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص٨٩ .

(**) السلطان محمد بن عبد الله الكثيري ، تولى السلطنـة بعد وفاة أبيه عام (٩١٠هـ/١٥٠٤م) تنازل عـن ولاية الشحـر لأخيه الـسلطان بدر عام (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) ، وحدث بينهما عدة فتن فيما بعد نتيجة للتنافس علـى الحكـم . انظـر : محمـد بن هاشـم ، نفـس المرجع ، ج١ ، ص ٣٠ ـ ٣٢ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

، فأمر السلطان بأن يقسم الباقون مناصفة بينه وبين أخيه السلطان محمد (**) ، الذي كـان والياً على ظفار آنذاك ، وقد قام السلطان بدر بقتل الخمسة من الأسرى الذين كانوا معه ، وأما السلطان محمد فقد أرسلهم إلى هرمز بعد أن زودهم بالمؤن وكساهم ، وكان ذلك من أسباب خلافه مع أخيه السلطان بدر [1] . وتوجه السلطان بدر بعد ذلك إلى حضرموت في عام (٩٤٣هـ/١٥٣٦م) . وكان في صحبته ثلاثون أسيراً برتغاليـاً [2] ، وأعقـب ذلـك اضطراب العلاقات بين السلطان بدر وبين البرتغاليين من حرب إلى صلح ومـن صـلح إلى حرب ، وكثر أسرى البرتغاليين عنده ، واختلطوا بالأهالي وقد حاول هـؤلاء الأسـرى أن يغدروا بالسلطان ، غير أنه أدرك ذلك فأمر بقتلهم ، ثم أرسل رؤوسهم إلى السلطان العثماني سليمان القانوني [3] .

وهكذا تتضح السياسة الجديدة التي انتهجها السلطان بدر في مواجهته الخطر البرتغالي عن طريق كسب ود الدولة العثمانية ، للاستعانة بها فيما بعد ضد الأطمـاع البرتغاليـة ، خاصة في ظل انشغاله بإخماد الفتن والثورات الداخلية ، سواءً من داخل الأسرة الكثيرية ، أو من المناطق والقبائل المحيطة به،والتي كانت تهدد أمن الشحر وموانئها ، بل إن تلك الأحداث كثيراً ما كانت تصرفه عن الاستعداد الجاد لمواجهة الخطر البرتغالي . وهذا ما ستتعرض لـه الدراسة فيما سيأتي .

---

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ـ٢٣٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٨ .

(٣) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٤٣ ، محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص٨٩ـ ٩٠ .

الكثيريون حكام الشحر :

ذكرنا فيما سبق أن حكم الكثيريين لمدينة الشحر كان تكليفياً ، أي بالنيابة عن حكام اليمن من بني رسول ثم بني طاهر ، ولقد استمروا في هذا الحكم إلى أن نجح السلطان جعفر بن عبد الله الكثيرى في انتزاع السلطة من يد كندة (سعد بن مبارك بادجانة) ، وذلك في عام (٩٠١هـ/١٤٩٥م) [١] . إذ إن الشحر كانت آنذاك عرضة لأطماع الكثير من القبائل ، وقد ظلت الشحر في أثناء حكم بني كثير تتوسع تارة وتتقلص تارة أخرى ، حتى تولى السلطان بدر الكثيري (أبو طويرق) حكمها ، عندما تنازل له أخوه السلطان محمد الكثيري عن ولايتها عام (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) [٢] . وقد بذل السلطان بدر جهوداً كبيرة في سبيل إقامة دولة كثيرية في حضرموت قوية الأركان رفيعة الشأن [٣] ، فعمل على توحيد مناطق حضرموت إلى أقصى حدودها تحت سلطته ، ونجح في ذلك إلى حد كبير [٤] ، فامتد سلطانه من العوالق [*] غرباً إلى سيحوت شرقاً ، ومن سواحل بحر العرب جنوباً إلى رمال الأحقاف شمالاً [٥] ، وقد قيل في سبب تسميته بأبي طويرق أنه طرق معظم أراضي حضرموت فاتحاً فسيطر عليها من ظفار إلى عين بامعبد [٦] ، وقضى على معظم الفتن والخلافات التي ابتليت بها حضرموت آنذاك ، فقد كان يرى ضرورة القضاء على السلطات

---

(١) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٩٥ .

(٢) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٠ ـ ٣٢ ، محمد أبو بكر حميد ، المرجع السابق ، ص٥٠ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١١٩ ـ ١٢٠ .

(٣) صلاح البكري ، الجنوب العربي قديماً وحديثاً ، ص ١٦٥ .

(٤) سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٢٠ .

(*) العوالق : ناحية مشهورة من النواحي المجاورة للبيضاء ويافع في الجنوب الشرقي من صنعاء . انظر : الحجري ، المصدر السابق ، ج٣ ـ ٤ ، ص ٦١٧ ـ ٧٧٣ .

(٥) محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٣٤ ، سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص١٢١ .

(٦) محمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٣٧ .

المتفرقة ، التي كانت سبباً في انتشار الفوضى والاضطرابات وفقد الأمن وخراب العمـران وسوء الحالة العامة (١) .

ويقول أحد المؤرخين واصفاً جهود السلطان بدر في القضاء على تلك الفتن : (كان شجاعاً مقداماً فكم أباد أحزاب الضلال ومزقها ، وأزال فرق الفساد وفرقها) (٢) . ويقول أحد المؤرخين أيضاً : (وكان محظوظاً جداً ، حتى لا يقصد باباً مغلقاً إلا انفتح ، ولا يقـدم على أمر مبهم إلا اتضح ، ولا يتوجه إلى مطلب إلا نجح) (٣) وقد ثارت ضده بعض قبائـل حضرموت في دوعن والمهرة وغيرها ، كما ثارت عليه بعض عشائر من قومـه آل كـثير ، فصمد أمامهم صمود الأبطال (٤) .

وكانت طريقته في حماية الأمن في الداخل تعتمد على إنشاء سلـسلة مـن مراكـز الحدود مجهزة بالجنود ، يعمل كل منها تحت إمرة قائد حربي ، ووضع حاميات عـسكرية في نقاط استراتيجية مهمة في أنحاء البلاد لتأمين المواصلات والتصدي للخارجين عن السلطة (٥) . وقد سعى لأن يكون أكثر جيشه من عناصر غير حضرمية ، فكونه من الأفريقيين ومن يافع وبعض قبائل اليمن من الزيود وغيرهم ، لكي يطمئن إلى ولائهم ، ويضمن عدم ثـورتم أو تمردهم . كذلك استعان بضباط وجنود من الدولة العثمانية ، عندما رأى الروح العـسكرية خامدة بين جنده ، وأدرك أن الثقة بينه وبين غيره من أولى الشأن في حضرموت غير متوفرة ، وأن القوة التي لديه غير كافية لحل المشاكل المحيطة به (٦) .

(٧) محمد جبريل ، المرجع السابق ، ص١٦ـ١٧ ، سعيد باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٢٠ .

(١) الكندي ، المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

(٢) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٩٥ .

(٣) صلاح البكري ، الجنوب العربي قديماً وحديثاً ، ص ١٦٥ .

(٤) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٥) نفس المرجع ، ص١٢٠ ـ ١٢١ ، إسماعيل بن علي الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ، ص٣٥٨ ، محمد جبريل ، المرجع السابق ، ص١٧ . كان لسياسة السلطان بدر في اعتماده على عناصر غير حضرمية آثارها السيئة حيث أثارت ضده بعض أهالي حضرموت ، وقد أشار أحد المؤرخين إلى أن تصرفه هذا إنما عائد إلى رغبته القوية في إنفاذ ملكـه وتوحيد بلاده ، وأنه لم يجد من يستجيب له ويشد من أزره ويكون له عوناً ونصيراً ، خاصة وأنه وجد معارضة ومقاومه شديدة من معظم بني كثير . انظر : صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص ٩٦ ـ ٩٧ .

وقد وصلت إليه وهو بالشحر أول قوة عثمانية عام (٩٢٦هـ/١٥١٩م) تحت قيادة أحد كبار القادة العثمانيين ، ويدعى رجب التركي [١] . وكان أول عمل حربي قام به السلطان بدر هو السيطرة على شبام ، وانتزاعها من آل محمد ، الذين استقلوا بالسلطة فيها ، فكتب إليهم ينذرهم وينصحهم بالتسليم ، ولكنهم رفضوا ، وكانت آنذاك تحت حكم السلطان محمد بدر الكثيري [*] ، وقد نجح السلطان آنذاك بدر الكثيري (أبو طويرق) في السيطرة عليها عام (٩٢٦هـ/١٥١٩م) [٢] ، ثم توجه إلى تريم عاصمة السلطنة اليمانية [**] وكان حاكمها السلطان محمد بن جردان فحاصرها نحو عشرين يوماً ، ومن ثم استسلم السلطان محمد وآل يماني ، وسلموا البلاد للسلطان بدر الذي أخرجهم بعد ذلك إلى اليمن ، وأبقى بعض عبيدهم وأتباعهم رعايا محكومين من آل كثير ، وكان ذلك بداية حكم آل جعفر الكثيريين بتريم [٣] . كذلك توجه إلى هينن عام (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) ، وتمكن من السيطرة عليها بعد حصار طويل ، وجعل عليها والياً من قبله هو (عبدالله بن علي المرهون) ، ثم زحف بجيوشه إلى جميع أنحاء حضرموت حتى خضعت له خضوعاً تاماً ، وفي نفس العام أيضاً تنازل له أخوه السلطان محمد عن الولاية ، وكتب بخط يده إلى خطيب الشحر الشيخ أحمد بن محمد السبتي أن يسقط اسمه من خطبة الجمعة ، ويخطب لأخيه السلطان بدر [٤] . غير أن الأمور لم تستقر طويلاً للسلطان بدر ، فقد ظهر حزب سياسي

---

(٦) سعيد باوزير ، نفس المرجع ، ص١٢٠ .

(*) هو السلطان محمد بن بدر بن محمد بن عبدالله بن علي الكثيري ، كانت له مدينة شبام وماحولها ، وعندما سيطر عليها السلطان بدر ، سجنه في حصن قرية مريمة – على الطريق المار من سيئون إلى تريم – فاستمر في سجنه إلى أن توفي في (٩٤٦هـ/١٥٣٩م) ، انظر : بافقيه ، المصدر السابق ، ص٤٦٣ ، خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٦ ، ص٢٧٥ .

(١) بافقيه ، نفس المصدر ، ص١٤٩ – ١٥٠ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، ص١١٧ .

(**) تنسب السلطنة اليمانية إلى مؤسسها السلطان مسعود بن يماني وكانت هذه السلطنة على خلاف مع بني كثير منذ القدم واستمرت الحروب فيما بينهم لمدة قرن وربع القرن ، انظر : محمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٤٧ – ٢٥٥ .

(٢) بافقيه ، نفس المصدر ، ص١٥٠ ، سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص١٢٢ ، محمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢٣١ ، سقاف علي الكاف ، المرجع السابق ، ص٥٢ .

(٣) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ١٥٤ ، محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٢ ، صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، ص١١٧ .

ضده في عام (٩٣٣هـ/١٥٢٦م) ، بقيادة الأميرين محمد بن بدر بن محمد الكثيري في هينن ، ومحمد بن عبد الله بن عمر الكثيري [١] ، وكان الدافع الأكبر لثورة هذين الأميرين هو انفراد السلطان بدر بتلك الشهرة الواسعة النطاق التي أحرزها ، من خلال إعادته مجد الدولة الكثيرية وتوليه قيادتا ، بالإضافة إلى عدم إشراكه للأمير محمد بن بدر في ولاية شبام ، مع أن أباه كان والياً فيها ، ولم يكن امتناع السلطان بدر عن ذلك الشيء سوى ضعف شخصية الأمير محمد وعدم قدرته على القيام بأمر شبام غير أن الأمير محمد اعتبر ذلك إسقاطاً لقدره . ولقد قوى هذا الحزب السياسي واتسع نفوذه ، حيث تدخل في شؤون الحكم ، وخالف بعض الأوامر التي كان يصدرها السلطان بدر ، وفكر الأميران في الهجوم على شبام ، لكن السلطان بدر ألقى القبض عليهما واعتقلهما في حصن مريمة [٢] .

وفي عام (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) قامت ثورة جديدة ضد السلطان بدر أبي طويرق ، وكان مصدرها الحموم [*] ، وذلك بسبب أن السلطان قبض على جماعة منهم ، كانوا قد أساؤوا إلى الدولة الكثيرية ، فأعلنت قبيلتهم عندئذ التمرد والعصيان رسمياً ، وأخذوا يغيرون على المناطق المحيطة بالشحر ، وأكثروا من عمليات النهب وقطع الطريق وتخويف المارة ، فهرب بعض سكان تلك المناطق إلى الشحر ، وعلى الرغم من انشغال السلطان بدر

---

(٤) سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٣١ ، صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص ٩٨ . كان بعض الأمراء من آل كثير ينقمون على السلطان بدر لعدة أسباب منها : استبداده بالأمر دونهم وإسناده شؤون الدولة الكبرى إلى شخصيات غير كثيرية ، بالإضافة إلى التنافس على الجاه والمجد والمطامع المادية . فكان ذلك من أهم أسباب الخلافات بينهم وبين أبي طويرق . انظر : سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٣١ .

(١) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١٣١ ، صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٩٨ . و لقد ظل الأميران محبوسين في حصن مريمة حتى توفي الأمير محمد بن بدر الكثيري في عام (٩٤٩هـ/١٥٤٢م) ، بعد أن قضى في السجن ست عشرة سنة عام (٩٥١هـ/١٥٤٤م) ، وسعى بعض عقلاء آل كثير لدى السلطان بدر لإطلاق سراح الأمير محمد بن عبدالله من السجن ، فأجابهم إلى ذلك انظر : صلاح البكري ، نفس المرجع ، ج١ ، ص ٩٨ .

ـ ومريمة : قرية على الطريق المار من سيئون إلى تريم . انظر : بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٤٦٣ .

(*) الحموم : هم قبائل مستقرة وبادية وأكثرهم يعيشون في الجبال في المنطقة الواقعة جنوب وادي المسيلة إلى جهة البحر ، يحدهم شرقاً المهرة ، وغرباً الطريق الشرقية والأسواق التي يردونها في الشحر وسائر المدن الساحلية الشرقية ، ولهم بلاد واسعة في ساحل حضرموت شرقي الشحر والمكلا . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٢٠٨ ، الحجري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٥ .

(**) غيل بن يمين : الغيل أرض واسعة بها عيون وماء غزير،ومنه غيل عبد الله بن يمين وأولاده في المناطق المحيطة بالشحر . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٢٧٣ـ٣٠٣ـ٤٦٣ .

بالاستعداد لمواجهة البرتغاليين إلا أنه توجه من الشحر للقضاء على تلـك الثـورة فكـان يقضي على كل من يلاقيه من الحموم ،حتى وصل إلى غيل بن يمين (**) ، ونجح في الـسيطرة عليه ، وقد زاد ذلك الأمر من غضب الحموم - لأن صاحب الغيل كان قد التجأ إليهم - فأغاروا على تبالة وقتلوا ما قتلوا من أهلهـا ، كما نهبوا منها أموالاً عظيمة ، كان الناس قد نقلوها من الشحر خوفاً من البرتغاليين [1] .

وفي عام (٩٣٨هـ/١٥٣١م) جاء خبر إلى الشحر من المشقاص بأن أحمد بن جردان وسعيد بن عبد الله بن عفرار قد حشدوا قبائل المهرة ، وأظهروا لهم أنهم يريدون الـشحر ، غير أن محمد بن طوعري بن عفرار (*) لم يساعدهم في ذلك ، فصار أهل الشحر في خـوف مستمر من البرتغاليين ومن بني مهرة وآل عبد العزيز (**) ، لأنهم علموا بأن جماعة مـن آل عبد العزيز خرجوا من السور ، ولم تعرف وجهتهم ، ولذلك فزع أهل الشحر إلى تبالـة ، لأن التجار وغيرهم قد نقلوا غالب أموالهم إليها [2] .

أما عن طبيعة العلاقات بين السلطان بدر وبين أخيه السلطان محمد فإنها لم تكن دائماً على ما يرام ، فقد عملت الوشايات على خلق جو من المنافسة بينـهما أدت إلى الفتنـة ثم الحرب ، ومن ذلك أن السلطان محمد جهز جيـشاً مـن مهـرة لغـزو الـشحر عـام (٩٤٠هـ/١٥٣٣م) ، وعندما وصلوا إليها حاصروها لمدة يومٍ وليلة ، ثم رجعوا إلى المشقاص وهم خائبون [3] ، الأمر الذي يثبت حصانة الشحر ومنعتها ، وقد ساد الصفاء والوئام بعد

---

(٢) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ١٩٢ ، محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ص ٣٨ ـ ٣٩ . كان استيلاء السلطان بدر على غيل بن يمين ، قد أثار ضده أخاه السلطان محمد الذي طلب منه تسليمه له ، ولكنه رفض في بداية الأمر ، ثم استجاب له بعد ذلك وسلمه الغيل ، ومن ثم قام السلطان محمد بتسليمه إلى أولاد بن يمين . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(*) هـو شيخ بني زياد ، توفي في عام (٩٤٢هـ/١٥٣٦م) ، وبيت زياد قبيلة في سيحوت والمناطق السفلى من وادي المـسيلة ، يتكلمـون اللهجة المهرية . انظر : بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(**) آل عبد العزيز : فرع من آل عامر من الشنافر . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص١١ .

(١) الكندي ، المصدر السابق ، ص١٧١ .

(٢) بافقية ، نفس المصدر ، ص ٢١٨ ، محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ص٣٢ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٣١ .

ذلك مدة بين الأخوين ، حيث تم عقد الصلح بينهما عـام (٩٤١هـ/١٥٣٤م) ، واكتفـى السلطان محمد بولاية الشحر نائباً عن السلطان بدر أبي طويرق [1] .

ولم تبدأ أحوال التمرد على السلطـان بـدر ، فقد أعلن علي بن عمر بن جعفـر الكثيري [***] تمرده أيضاً في منطقة شبام ، وبايعه بعض أقربائه ، فخلع طاعة السلطان بدر أبي طويرق ، وأغار على شبام وانتزعها من سلطة السلطان عام (٩٤٣هـ/١٥٣٦م) ، واسـتقل بها خمسة عشر عاماً ، وقد اهتم السلطان بدر بأمره ، فقام بـالهجوم عليـه ، واسـتمر في ملاحقته حتى انتصر عليه ، وسيطـر على شبام عام (٩٥٨هـ/١٥٥١م) ، وقبض علـى (علي الكثيري) وسجنه بحصن مريمة [2] وفي عام (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) ، ثار بنـو مهـرة في المشقاص مرة أخرى ، وأخذوا يعدون العدة لمهاجمة الشحر ، وعندما علم الـسلطان بـدر بذلك جهز جيشاً كبيراً لمواجهتهم ، وجعل قيادته للأمير أحمد بن مطران والأمير علي بـن عمر الكثيري والفقيه محمد بن عمر بحرق ، وتوجه هو وأخوه السلطان محمد معهم ، وقـد سيطرت الحملة على قشن ثم عاد الجيش بعدما بنى حصناً هناك ، وجعل السلطان بدر على أهل مهرة الأمير أحمد بن مطران والفقيه محمد بحرق نائبين عنه في قشن [3] . ولم يلبث المهرة أن ثاروا مرة أخرى ، فقتلوا الأمير أحمد واستردوا بلادهم وحـاصروا الحـصن ، فـاتهم الســلطان أبو طويرق أخاه السلطان محمد بإغراء المهرة وتحريضهم على العصيان - كمـا

---

(٣) الكندي ، نفس المصدر ، ص١٧٧ ، سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص١٣١ـ١٣٢ .

(***) هـو ابن عم السلطان بدر أبي طويرق سلطان شبام بحضرموت ، ولد بها عام (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) ، وقد نشبت عدة معارك بينه وبين السلطان بدر . انظر : خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٥ ، ص١٣٢ .

(١) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١٣١ ، سقـاف علي الكـاف ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ، خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٥ ، ص ١٣٢ .

(٢) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣ ، محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ص ٤٩ ، سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٣٠ ، محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص ٩٢ .

فعل سابقاً – فاعتقله وقيده بالشحر ، ثم توجه إلى المشقاص ونجح في السيطرة على قشن مرة أخرى بعد قتالٍ عنيف ، ومن ثم عاد إلى الشحر وأطلق سراح أخيه محمد [1].

وعندما ضاقت المهرة بما تلقى من سيطرة جنود السلطان بدر ، توجه رئيسهم سعيد بن عفرار سراً إلى الهند مستنجداً بالبرتغاليين ، وجاء بعدد منهم عام (٩٥٥هـ/١٥٤٨م) ، وتمكن بمعونتهم من الاستيلاء على حصن قشن ، وقتل معظم جنود السلطان بدر ، وعندما وصلت أنباء هذا الحادث إلى أبا طويرق الذي كان في حضرموت قدم إلى الشحر ، حيث جهز جيشاً كبيراً لملاقاتم ، وعندما وصل إلى حيريج خاف سعيد بن عفرار لما رأى كثرة جيش السلطان ، فذهب إلى السلطان نادماً معتذراً ، فقبل منه اعتذاره ، ومن ثم تم عقد الصلح بين الطرفين ، تعهد المهرة فيه بأن لا يتحرشوا بموانئ السلطان بدر ، ولا بأي جزء من بلاده ، وأن لا يستعينوا بالبرتغاليين ضده ، وفي مقابل ذلك يترك لهم السلطان حكم بلادهم . وقد غادر السلطان بدر بعد ذلك بجنده حيريج بعد أن أمنها [2] .

ومما سبق تتبين الأوضاع الداخلية في حضرموت والتي عانى منها السلطان بدر كثيراً فقد تزامنت مع الأطماع البرتغالية في احتلال سواحل جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وكان لها تأثيرها السلبي على سير الأحداث السياسية في تلك الجهات ، وقد استطاع السلطان بدر بسياسته وقوة جيشه أن يقضي على تعدد السلطات في حضرموت ويجمعها في قبضته ، وأن يمد نفوذه على معظم أجزاء حضرموت وظفار [3] ، على الرغم من أن معظم القبائل قد خضعت له بالطاعة . ويقول في ذلك أحد المؤرخين : (وأذعنوا له بالطاعة ، ومهدت الأرض بعد أن أخذها ، وصير ولاتا رعايا ، فأزال الظلم عن الرعية ، وأقام الأحكام ونشر أعلام الشريعة المحمدية) [4] . إلا أنه لم يستطع أن يضع البلاد في إطار

---

(٣) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٢٣٣–٢٣٢ ، محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٤٩ ، سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٣٠ .

(٤) سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٣١ ، محمد علي البار ، نفس المرجع ، ص٩٢–٩٣ .

(١) صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، ص ١٢١ .

(٢) محمد بن علي الجبيد ، إجمال عن العرب قبل الإسلام ، ص ١٠٥ .

الوحدة الشاملة أمداً طويلاً ، فقد كان تعدد السلطات والقبائل من أهم عوامل القلاقل والفتن التي مزقت أجزاء البلاد [1] .

كما أدت النزاعات الدينية والمذهبية وأعمال السلب والنهب وغياب السلطة الحكومية القوية إلى جو من عدم الثقة وإلى صدامات قبلية ، مما جعل البلاد هدفاً سهل المنال للبرتغاليين [2]. فاضطر السلطان إلى مهادنتهم حتى يتفادى شرهم ، خاصة وأنهم كانوا كثيراً ما يترددون على ميناء الشحر بغرض المتاجرة ، فيقتلون من يتعرضهم من الأهالي ، وكان لهذا التصرف من السلطان أثره في معارضة الكثير لتلك السياسة ، فقد ارتفعت أصوات النقد ضده ، كما هجاه الشعراء لتخاذله أمام البرتغاليين بقصائد شعبية منها : وين بتودي الوجه والحربية حولك صفف وخزائنك مليانة [3] .

وعندما اشتد ضغط البرتغاليين على السلطان بدر مع سوء الأوضاع الداخلية في بلاده ، لجأ إلى سياسة جديدة في مواجهة تلك الظروف ، حيث قام بإعلان تبعية بلاده اسمياً للسلطان العثماني سليمان القانوني ، والاعتراف بالولاء له [4] . غير أن سياسته تلك قد أثارت عليه بعض زعماء القبائل الحضرمية ، إذ لم يوافقوه على ذلك ، ومنهم الشيخ عثمان العمودي (شيخ وادي دوعن) ، الذي أعلن رفض هذه السياسة ، وانحاز إلى إمام الزيدية في اليمن (الإمام شرف الدين) ، وتكونت بذلك جبهة سياسية معارضة لسياسة السلطان بدر ، وقد كانت من نتائجها أن دارت معارك شديدة بينهما ، وكان الشيخ عثمان يبادئ السلطان بدر بالهجوم دائماً، ويشن عليه الغارات في الساحل والداخل . فقد أغار في إحدى المرات على تبالة عام (٩٣٨هـ/١٥٣١م) ، وكان بها أموالٌ وبضائع ثمينة لبعض التجار من الشحر ، وكانوا قد حصنوها فيها خوفاً من هجمات البرتغاليين ، فأخذ العمودي تلك

---

(٣) محمد جبريل ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٤) محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص٢١٨ .

(٥) فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨ـ٣٣٩ .

(٦) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ ، صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١، ص١٠٠.

الأموال جميعها وعادوا إلى دوعن [1] ولقد استمرت الحروب بينهما لفترة طويلة ، إلى أن تم عقد الصلح بينهما عام (٩٥٦هـ/١٥٤٩م) ، وبقي كلٌ منهما بعد ذلك في موضعه لا يتعرض للآخر [2] .

وبالنسبة لموقف آل كثير من تلك السياسة التي انتهجها السلطان بدر فقد وجد منهم من عارض موقفه ذلك ، وفي مقدمتهم ابنه الأمير عبد الله بن بدر الكثيري ، حيث كان لا يوافق على كثير من تصرفات والده ، ومنها اعترافه بالطاعة للعثمانيين ، ومما زاد الأمر سوءًا أن السلطان بدر لم يرد على معارضة أهل هينن للحكم الكثيري ، وقطع علاقاتهم بسيئون [*] . ومن ثم إعلانهم الاستقلال التام لذلك جمع الأمير عبد الله بعضاً من أعيان آل كثير ، وكونوا منهم حزباً يخالف سياسة والده ، ويعارضه في كثير من أوامره ، وقد قرروا القبض عليه وإبعاده عن ميدان السياسة ، وتمكن الأمير عبد الله بمعونة بعض أعوانه من الهجوم على والده وهو بحصن سيئون فألقى القبض عليه عام (٩٧٦هـ/١٥٦٨م) ، ثم نقله إلى حصن مريمة حيث تم اعتقاله هناك [3] .

وقد رأى بعض المؤرخين بأن عزل الأمير عبد الله أباه من الحكم يعد جرأة ليس لها مثيل في التاريخ الحضرمي ، وانقسم الناس أمام ذلك إلى فريقين منهم من عارض ذلك التصرف ، ومنهم من أعجب بجرأة الأمير عبد الله وأكبر فيه همته وغيرته [4] . ويرى بعض

---

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ٥٣ ، صلاح البكري ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٠٠ .

(٢) محمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٤٢-٢٤٣ . ظل خلفاء الشيخ عثمان من آل العمودي موالين لأئمة اليمن الزيود مدة حكمهم السياسي في دوعن على العكس من سلاطين آل كثير ، الذين لم تكن علاقات بعضهم بأئمة اليمن ودية نظراً لاختلافهم في المذهب . انظر : سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٥٣ .

(*) كان السلطان بدر قد اتخذ من سيؤن عاصمة لدولته ، ثم بقيت المركز التقليدي ، حيث تحول المركز الإداري في أواخر حكمة إلى الشحر لأهميتها كميناء على الساحل في السيطرة على الداخل . انظر : سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

(٣) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٦٠ ، سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٣٣ ، صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص١٠٠ .

(١) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٦٠ ، صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص١٠٠ .

المؤرخين كذلك بأن الأمير عبد الله كان له العذر ، إذ إن أباه لم يهتم بتوسيع نطاق الملك كما كان في أول أمره ، بل ولم يعمل على استرداد هينن التي خرجت عن حكمه ، أما الاعتراف بالطاعة للعثمانيين فهو وإن كان يظهر للبعض أن فيه عيباً ، فإنه لم يأت بشر للبلاد ، ولم ينقص شيئاً من استقلال الدولة الكثيرية ، إذ لم يكن هناك من العثمانيين من قام بأمر من أمور البلاد ، أو ناب عنها في شأن من شؤونها الخاصة أو العامة فجميع ولاة الأمور كانوا من الحضرميين ، وأما الاعتراف بالطاعة إنما كان اعترافاً اسمياً لا غير [1] .

أما عن موقف السلطان بدر من العزل فإنه لم يعارض ذلك ولم يعمل على إعادة مركزه أو سلطانه علماً بأنه لو فعل ذلك لو جد أنصاراً من قومه ومن القبائل الموالية لحكومته ومن الدولة العثمانية ، لماله من نفوذ عظيم وشهرة واسعة النطاق . ولكنه رضي بالعزل وأخلد إلى السكون والصمت ، ولعله رأى أن المطالبة بذلك الحق سوف تجلب الشقاق والخصام والخراب للبلاد ، ولذلك لم يطالب بإعادة الحكم إليه حباً في جمع الكلمة وتوحيد الصفوف ، وقد توفي بعد ذلك في سيئون عام (٩٧٧هـ/١٥٦٩) [2] .

أما السلطان عبد الله بن بدر الكثيري الذي خلف والده فقد باغتته الأزمات السياسية منذ أن تولى الحكم ، فقد كان أخوه الأمير جعفر بالشحر حينما بلغه قبض السلطان عبد الله على أبيه ، فتمرد وأعلن العصيان ، فتوجه السلطان عبد الله إلى الشحر لإخضاعه ، وما لبث أن سيطر عليها ، وأخرج أخاه منها ونفاه إلى قشن [3] . ويلاحظ هنا أن الأمير جعفر بن بدر الكثيري كان أميراً على الشحر ، وقد كان فيها عندما أعلن العصيان ، فوجد مساندة أهلها في ثورته ضد أخيه السلطان عبد الله ، مما يعني أنهم - أي الشحريين - لم يكونوا على رضاً تام بما قام به السلطان من خلع أبيه السلطان بدر .

وقد ثار جعفر مرة أخرى بمساعدة المهرة بهدف الهجوم على الشحر ، غير أن السلطان عبد الله توجه من الشحر عام (٩٧٧هـ/١٥٦٩) بجيوش كثيفة لغزو المهرة ، ولم

---

(٢) صلاح البكري ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١٠٠-١٠١ .

(٣) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٥٩ ، صلاح البكري ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١٠١ .

(٤) محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ص٦١ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٣٣ .

يتمكن من إخضاعهم ، حتى عقد بينهم الصلح ثنائياً عام (٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م) [١] . وبعد وفاة السلطان عبد الله بن بدر الكثيري عام (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م) ، بسيئون ، تولى الحكم ابنه السلطان جعفر بن عبد الله بوصية من والده [٢] ، ولكنه لم يكن كأبيه في السياسة والحزم وقد حاول السيطرة على قبائل نهد [*] فحاصرهم ومنع وارداتهم من الدخول في أسواق هينن وغيرها ، فحقدت عليه هذه القبائل ، وقد توفي بعد ذلك عام (٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م) [٣] . وتولى الأمر من بعده السلطان عمر بن بدر أبي طويرق ، الذي اشتهر بالعدل والعقل والفضل . وقد قام منذ توليه بفك الحصار عن نهد ، كما بذل مجهوداً في نشر الأمن في أنحاء البلاد . وقد توفي عام (١٠٢١هـ/١٦١٢م) في الشحر [٤] .

ثم توالى حكم سلاطين بني كثير بعد ذلك للدولة الكثيرية مع ما تخلل تلك الفترة من فتن وثورات في المنافسة على الحكم ، والتي كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الكثيرية الأولى [٥] . ويقول أحد المؤرخين : (وولي بعده – أي السلطان بدر أبو طويرق – أولاده من مد يد إلى أن أراد الله ، واختلت أحوال العباد ، وساروا بسيرة ذميمة ، وظلموا مظالم عظيمة) [٦] . وفي عهد السلطان جعفر الكثيري [**] تعرضت الدولة الكثيرية للضعف والوهن على الرغم من جهوده الكبيرة التي بذلها في سبيل إعادة أمجاد تلك

---

(١) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٦٢ .

(٢) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٤١٩ ، محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٦٢ .

(*) نهد : بلاد نهد من قبائل اليمن ونسبهم في قضاعة . انظر : الحجري ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٧٤٥ .

(٣) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص١٠١ .

(٤) محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٦٣ ، صلاح البكري ، نفس المرجع ، ج١ ، ص ١٠١ – ٢٠١ ، خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٥ ، ص١٩٩ – ٢٠٠ .

(٥) صلاح البكري ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١٠٣ – ١٠٤ .

(٦) محمد بن علي الجبيد ، المرجع السابق ، ص١٠٥ .

(**) جعفر بن عمر بن جعفر بن علي بن عبد الله بن بدر أبي طويرق ، كان رجل همة ونشاط ، اشتهر بعد له بين رعيته ، قام بالسلطة بعد ابن عمه علي بن جعفر . ويعتبر آخر سلاطين الدولة الكثيرية الأولى . والتي انتهت عام (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) . انظر : محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص١٠٩ .

الدولة في منتصف القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي ، حيث بزغ نجم يافع في حضرموت ، وانتهت بذلك الدولة الكثيرية الأولى [1] .

ويتضح مما سبق أن الأوضاع الداخلية للدولة الكثيرية – وخاصة لمنطقة الشحر – كانت مضطربة سياسياً ، وفي الوقت الذي كان فيه سلاطين الدولة في أمس الحاجة إلى التكاتف فيما بينهم والتوحد مع المناطق والقبائل المحيطة بهم لمواجهة الغزو الصليبي الاستعماري الأوروبي ، كانوا في صراع مستمر على السلطة . وهذا ما يبرر لجوء السلطان بدر أبي طويرق إلى طلب المساعدة من السلطان العثماني سليمان القانوني ، وبأنه لم يكن مخطئاً في سياسته التي انتهجها ، إذ إن المنطقة كانت في حاجة إلى قوة عظمى تساعده وتمد يد العون للبلاد .

وسيتبين فيما بعد أن تلك الظروف كان لها أثرها في موقف سكان الشحر من الخطر البرتغالي . وفي موقف السلطان العثماني من طلب السلطان بدر الكثيري .

---

(١) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٠٩ ، صلاح البكري ، الجنوب العربي قديماً وحديثاً ، ص ١٦٩ .

موقف سكان الشحر من الغزو الصليبي الاستعماري الأوروبي :

كان لسكان الشحر موقف مشرف وبطولي في مواجهة العدوان البرتغالي على سواحلهم ، على الرغم من أن الأوضاع السياسية والاقتصادية لبلاد اليمن كانت مضطرب به آنذاك ، نتيجة لعدم وجود سلطة واحدة تجتمع عليها كآفة القوى السياسية ، وكذلك ضعف الإيرادات المالية وسوء الحالة الاقتصادية بسبب الحصار البرتغالي الطويل ، وتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح والمهاجمة المستمرة للسفن العربية الإسلامية وإغراقها [1] . وكانت سواحل الشحر على خط المواجهة المباشرة ضد العدوان البرتغالي وقد تعرضت لهجما م المتكررة ، كما تعرضت المراكب الراسية في موانئها للنهب والسلب [2] .

وكان لأعيان الشحر وفقهائها دور كبير في التصدي لأول هجوم شنه البرتغاليون على مينائها عام (٩٢٩هـ/١٥٢٢م) ، والذي انتهى بفشلهم فشلاً ذريعاً في احتلال الميناء [3] . ويمكن أن يلاحظ مدى التأثير الإيجابي لتلك المقاومة من خلال تتبع مراحل الهجوم البرتغالي بحملات كبيرة على ميناء الشحر ، والذي لم يتكرر إلا في عام (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) [4] ، حيث اكتفى البرتغاليون خلال تلك الفترة بحملات صغيرة تقوم على أعمال النهب السلب وقطع الطرق على السفن المارة بذلك الميناء ، مما يؤكد أن البرتغاليين قد أدركوا مدى صعوبة احتلال ذلك الميناء الاستراتيجي دون إعداد حملة عسكرية كبرى ، نظراً للمقاومة الإسلامية ، وبعد أن يتم لهم التعرف الجيد على طبيعته الجغرافية وعلى الأوضاع السياسية التي تمر ا السواحل الجنوبية العربية آنذاك وعلى الرغم من الاستعدادات البرتغالية الكبيرة إلا أن حملتهم الثانية على ميناء الشحر عام (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) قد باءت بالفشل أيضاً ، حتى أ م اضطروا أمام القتال العنيف الذي قابلهم به سكان الشحر إلى طلب الأمان ، كما استسلم عدد كبير منهم إلى السلطان بدر الكثيري [5] . وهكذا استبسل سكان الشحر في الدفاع عن مدينتهم ، وضربوا بذلك أروع الأمثلة في

---

(١) عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، ص ٩٨ .

(٢)حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص ٢٥٧ .

(٣)انظر ما سبق ، ص ٦٦ .

(٤)محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٤١ ـ ٤٢ .

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٣٥ ، محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٤٢ .

البطولة والتضحية [1] . ويلاحظ في هذه الفترة أن سكان الشحر لم يعملوا على توجيه حمـلات بحرية لمواجهة البرتغاليين ، بل اكتفوا بدور الدفاع عن مينائهم ، ولعل ذلك يعـود إلى ضـعف إمكانا م العسكرية ، بالإضافة إلى انشغالهم بمواجهة غارات القبائل المحيطة م .

وكانت هناك جهود محلية في اليمن وحضرموت نحو وقف الحروب والفتن الداخليـة ، ومن ثم تحويل الجهود ضد البرتغاليين [2] . فعلى الرغم من أن النظام القبلي كان هو الـسائد في تلك الجهات ، إلا أن ذلك لم يكن يمنع أن يتكاتف أفراده فيما بينهم لمواجهة أي خطر خارجي والذي كان كثيراً ما يهدد أمن جنوب شبه الجزيرة العربية،فكان رؤساء القبائل يتناسـون مـا بينهم من صراع ونزاع ، ويتكاتفون معاً لمواجهة أي تدخل خارجي مهما كان نوعه أو مصدره [3] . وقد أدرك بعض السلاطين وبعض رؤساء القبائل أن ذلك الهدف لـن يتحقـق لهـم إلا بالتعـاون فيما بينهم لمواجهة ذلك الخطر ، ومنهم من رأى أنه لابد من الاستعانة بقوى أخرى ، ومن ذلك أن السلطان بدر الكثيري كان قد استعان ببعض القبائل اليمنية من يافع والزيـود وبعض الأفريقيين ، واستعان كذلك بالعثمانيين في تكوين جيشه ، الذي أعده لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي دد دولته ، أي إنه استعان بعناصر غير حضرمية للقيام بتلك المهمة [4] . وقد سبقت الإشارة إلى الأسباب التي دفعت السلطان إلى اتخاذ مثل هذا الإجـراء . كـذلك يلاحظ أن السلطـان محمد بن عبدالله الكثيري كان قد تنازل عن حكم الشحر لأخيه السلطان بدر الكثيري ، عندما رأى أن المصلحة العامة تقتضي ذلك [5] ، وقد تطلع السلطان بدر إلى قوة إسلامية كبرى تقف إلى جانب بلاده ضد العدوان البرتغالي ، ألا وهي الدولة العثمانيـة الـتي كانت آنذاك في أوج عظمتها وقو ا البحرية [6] .

---

(٢)صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص ١٤٠، وعاود البرتغاليون هجومهم على الشحر واحتلوها عـام (١٠٩٦هـ/١٦٨٦م) ، ولكنـهم واجهوا مقاومة باسلة من الأهالي واستشهد عدد كبير منهم ،من بينهم العلماء والسادة والمشايخ . واستطاعوا أن يطردوا البرتغـاليين عـام (١٠٩٧هـ/١٦٨٧م) ، بعد معارك قوية . انظر : محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٣) عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، ص ٩٩ .

(٤) صلاح البكري ، الجنوب العربي قديماً وحديثاً ، ص ١٤٨ ، السيد مصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص٢١ .

(٥) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٦) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ١٥٤ . محمد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٣٢ .

(١) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٣ ، فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٤٩ .

وكانت علاقة السلطان بدر الودية بالعثمانيين تقوم على ولائه وطاعته لهم وقد سبق ذكر الحملة العثمانية بقيادة رجب التركي عام (٩٢٦هـ/١٥١٩م) ، والتي استعان بها السلطان بدر في القضاء على الفتن والثورات الداخلية [1] . وهناك أيضاً الحملة العثمانية التي كانت بقيادة مصطفى بيرم وصفر سلمان والتي وصلت إلى ميناء الشحر عام (٩٣٥هـ/١٥٢٨م) بهدف مطاردة البرتغاليين في قواعدهم ببلاد الهند ، وقد رحب السلطان بدر بهذه الحملة التي ساندته في حروبه على بعض القبائل المجاورة الخارجة عليه ، ولم تقتصر العلاقة بين السلطان بدر والدولة العثمانية على مساعدته بالحملات وفي مواجهة الغزو البرتغالي لميناء الشحر [2] . بل إنه كان يؤكد ولاءه للعثمانيين دائماً ، فقد أرسل بعض الأسرى للسلطان العثماني سليمان القانوني إثر هزيمة البرتغاليين في حملتهم الثانية على الشحر عام (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) [3] ، وذلك تمهيداً لكسب ود العثمانيين ومن ثم الاستعانة بهم فيما بعد ضد الغزو البرتغالي .

وعندما اشتد ضغط البرتغاليين على الشحر اضطر السلطان بدر إلى قبول سيادة الدولة العثمانية عليه وتأكيد اعترافه لها بالولاء والطاعة [4] وكان لهذه السياسة التي انتهجها السلطان بدر أثرها في معارضة بعض القبائل الحضرمية له ، بالإضافة إلى معارضة البعض من آل كثير ، الذين لم يوافقوه على ذلك التصرف كما ذكر سابقاً [5] .

أما بالنسبة لموقف سكان الشحر من ذلك ، فلم يثبت أن عارضوه في سياسته تلك كما يلاحظ ذلك في بعض المصادر التاريخية مثل تاريخ الشحر لبافقيه ، حيث لم يرد في كتابه هذا أي خبر عن قيام الشحريين بثورات ضد السلطان بدر الكثيري أما موقف الدولة العثمانية من طلب السلطان بدر ، فقد أعلن السلطان سليمان القانوني موافقته عليه ، وأصدر بذلك

---

(٢) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٣) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٩٣ـ ١٩٤ـ ١٩٧ـ ١٩٨ ، حسن شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص٢٠٢ .

(٤) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٢٣٥ـ ٢٣٦ .

(٥) صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، ص١١٩ .

(٦) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص ١٠٠ ، خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

مرسوماً عام (٩٤٤هـ/١٥٣٧م) [(١)] إذ إن العثمانيين كانوا قد أدركوا أن سيطرتهم الفعلية على بلاد اليمن وسواحل حضرموت ستحقق أهدافهم في حربهم ضد البرتغاليين بحكم موقعها الجغرافي المتميز في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية من حيث وقوع موانئها على طريق التجارة مع الهند ، بالإضافة إلى إشرافها على مضيق باب المندب ، فهي تعتبر منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة العثمانية من ناحية الجنوب ، بحيث يمكنهم حين السيطرة عليها أن يضمنوا سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز ، وأن يتحكموا في البحر الأحمر وبحر العرب ، خاصة أن البرتغاليين حققوا بعض العمليات الحربية الناجحة في جنوب البحر الأحمر والمحيط لهندي وقاموا بمحاصرة السفن الإسلامية ، ومنعها من الوصول إلى مصدر تجارتها كما عاثوا في الموانئ العربية تخريباً وإحراقاً [(٢)]. بالإضافة إلى أن الدولة العثمانية سوف تضمن بذلك موقعاً استراتيجياً متميزاً يمكنها من الهجوم على الأساطيل البرتغالية في البحار الشرقية ، ومن ثم تطويق أعدائها من الشيعة الصفويين في إيران من الجنوب حيث الطريق البري للتجارة الشرقية ، والذي تسيطر عليه الدولة الصفوية الأمر الذي أضر بالمنافع التجارية العثمانية [(٣)] وبعد أن ورث العثمانيون حكم الدولة المملوكية في عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) ، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى حمل لواء الحرب ضد البرتغاليين في البحار الشرقية بوجه عام وفي البحر الأحمر بوجه خاص ، إذ كان على العثمانيين أن يعالجوا أهم المشاكل السياسية والاقتصادية التي واجهوها في مصر ، والتي كان من أهمها تحول الطريق التجاري إلى رأس الرجاء الصالح ، ومحاولة إعادة هذا الطريق إليها ، مما جعل الحرب مع البرتغاليين ضرورةٌ حتمية [(٤)] ، ومن ثم فقد بدأ العثمانيون الجهد الرئيسي في العمل للرد على التهديدات البرتغالية [(١)] .

---

(١) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٤٩ ، محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، محمد عيسى صالحية ، التدخل العثماني في اليمن (١٣٤٤ـ١٣٩٨هـ/١٩٢٤ ـ ١٩٧٨م) ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد٢٤ ـ السنة السادسة (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص٩١ .

(٢) فاروق أباظة ، نفس المرجع ، ص٤٩ .

(٣) محمد سهيل طقوش ، نفس المرجع ، ص ٢١٧ـ٢١٨ .

(١) فاروق أباظة ،عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٤٩ . السيد مصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص٢٩ .كان العثمانيون قد أبقوا للمماليك السيادة الاسمية في جنوبي البحر الأحمر وخاصة في بلاد اليمن غير أنهم انصرفوا إلى أعمال السلب والنهب

ففي عام (٩٤٤هـ/١٥٣٧م) أصدر السلطان سليمان القانوني أوامره بالاستعداد لقتال البرتغاليين ، فأعدوا جيشاً عظيماً مكوناً من نحو أربعين ألف مقاتـل بقيادة سليمان باشا الطواشي [*] وزوده بأسطول بحري مؤلف من مائة سفينة صغيرة ، وما يزيد عن ثمانين سفينة كبيرة ، كما أرسل مـن الدولة العثمانية القائد سليمان ريس وكان يعدمن أشهر الملاحين البحريين ـ لمساعدة القائد سليمان باشا في هذه الحملة ، وقدتم تجهيز السفن اللازمة في ميناء السويس ، ومن ثم توجه سليمان باشا في طريقه إلى الهند [٢] .

ويرجع الاهتمام بسرعة تجهيز هذه الحملة إلى عدة أسباب أهمها :

أ) تزايد سيطرة البرتغاليين على العديد من المواقع الاستراتيجية في خليج عدن والبحر الأحمر .

ب) إمداد البرتغاليين للدولة الصفوية بالمعونات العسكرية إثر سقـوط بغداد بيد العثمانيين عام (٩٤١هـ/١٥٣٤م) [٣] .

ج) استنجاد السلطان بهادر شاه (سلطان كجرات) ، بالسلطان سليمان القانوني بسبب تهديد همايون شاه (ملك الهند) له [٤] .

، كما أنهم حاولوا الاحتفـاظ بكيانهم الخاص هناك ، رغم اعترافهم بالسيادة للعثمانيين ولذلك رأى العثمانيون ضرورة اتخاذ خطوة إيجابية تجاه ذلك الموقف . انظر : فاروق أباظة ، نفس المرجع ، ص ٤٩ .

(٢) محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص٢١٨ .

(*) هو سليمان باشا الأرناؤطي ، كان وزيراً للدولة العثمانية بمصر ، ويقال له الطواشي أو الخادم لأنه في الأصل من مماليك السلطان سليمان القانوني . انظر : محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٣ .

(٣) أبو سرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، مخطوط مصور علي ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٥ ـ ١١ ، التاريخ ، ق ٢٩ .

(٤) محمـد بن هاشم ، نفس المرجع ، ج١ ، ص ٤٣ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ ، إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، تقديم ومراجعة حسن الزين ، بيروت ، دار الفكر الحديث ، د.ط (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ، ص٩٧ ، حسن صالح شهاب ، عدن فرضة اليمن ، ص٢٢٢ .

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، ط١ ، (١٣١٢هـ) ، ص٥٤٧ ، حسن صالح شهاب ، عدن فرضة اليمن ، ص ٢٢٢ .

وفي أثناء الإعداد للحملة وصلت إلى الشحر بعثة عثمانية بقيادة الأمير فرحات شوباصي الذي قدم إلى السلطان بدر مرسومين وخلعتين من السلطان سـليمان القانوني فأخبره على لسان قائده سليمان باشا عن أخبار الحملة التي أعدها السلطان سـليمان لمواجهة البرتغاليين ، كذلك كان مع الأمير فرحات خلعة ومرسوم أيضاً للسـلطان عامر بن داؤد (*) حاكم عدن وقد قرأ له المرسوم وخلع عليه ، ووعد السـلطان عامر الأمير فرحات بأن يعطيه الجواب بعد رجوعه من الشحر إلى عدن (١) . أما بالنسبة لموقف السلطان بدر من البعثة ، فقد عقد اجتماعاً كبيراً بمسجد الجامع في الشحر ، قام فيه الأمير فرحات خطيباً ، فقدم إلى السلطان بدر المرسومين ، وأشار إلى الحملة التي جهزت لحرب البرتغاليين ، وقام الشيخ عبد الله عمر بامخرمة (**) . بقراءة المرسوم السلطاني ، ومن ثم قام السلطان بدر بالترحيب ـذا المرسوم ، وأشار إلى أنه سيأمر بأن يخطب الخطباء في المساجد باسم السلطان سليمان القانوني ، وهي أول خطبة للعثمانيين في الشحر . ثم غادر الأمير فرحات ميناء الشحر مزوداً ـدية ثمينة (***) من السلطان بدر للسلطان سليمان القانوني (٢) .

وقد ذكر أحد المؤرخين بأن بعثة الأمير فرحات شوباصي إلى الشحر كان لها أثر كبير في تغيير الأوضاع في المنطقة إلى الأفضل ، حيث قام السلطان بدر بإغلاق المتاجر البرتغالية وألقي بعمالها في السجن ، كما جمع سفنهم وباعها في السوق ، ووزع أثما ا على المتضررين من سكان الشحر (٣) . وقد توجه الأمير فرحات بعد ذلك إلى عدن لكي يعرف قرار

(*) هو السلطان عامر بن داؤد الطاهري ، آخر سلاطين بني طاهر في عدن واليمن . انظر : خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٤ ، ص١٧ .

(٢) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤ـ٢٤٥ ، الكندي ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ ،فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

(**) هو الفقيه المؤرخ عبد الله بن عمر بن عبد الله بامخرمة المتوفى عام (٩٧٢هـ/١٥٦٤م) ، اشتهر بين الناس بأنه فقيه ضليع وهو صاحب الفتاوى الفقهية المشهورة بين العلماء والمعروفة بالفتاوى الهجرانية . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٨ .

(***) هي من قطعة الألماس النادر الوجود ، وخمسمائة مثقال من العنبر الأصيل . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٢٤٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤٥ ، محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٤٤ .

(١) فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

حاكمها ولكنه لم يجده هناك ، وفي أثناء طريقه إلى الشحر قابل سفينة برتغالية فدارت بينهم معركة انتصر فيها فرحات ومن معه وهرب البرتغاليون [1] . وفي أثناء ذلك وصلت إلى الشحر سفينة عثمانية تحمل مؤناً غذائية وبعض الأسلحة لتودع هناك تحت تصرف الأسطول العثماني [2] . أما الحملة العثمانية بقيادة سليمان باشا ـ فقد تأخرت في وصولها ، لأنه عندما وصلت بعض السفن العثمانية إلى جدة ، رأى السلطان سليمان القانوني أنها غير كافيه للهجوم على البرتغاليين في الهند ، ولم يرد أن يجازف بذلك ، فأمر سليمان باشا بالعودة إلى السويس ومضاعفة الاستعدادات ، وكان السلطان بدر قد أصابه القلق والخوف بسبب ذلك التأخير ، فأرسل إلى سليمان باشا يستعلم منه عن سبب ذلك [3] . فجاءه مرسوم عام (٩٤٤هـ/١٥٣٧م)من مصر جواباً على سؤاله ، وفيه أن الحملة قد خرجت من الدولة العثمانية وأنها وصلت إلى السويس وأصبحت جاهزة لحرب البرتغاليين في الهند [4] .

وقد حدث أثناء ذلك أن قدم إلى ميناء الشحر سفينة برتغالية وطلب ملاحوها مقابلة القائد البرتغالي الـذي كان من ضمن الأسرى البرتغاليين بالشحر ، فوافق السلطان بدر على ذلك ، وكان هدفهم هو معرفة أخبار الحملة العثمانية ، كما أنهم طلبوا من السلطان أن يكتب لقائد سفينتهم بأخبارها ، فنفذ لهم طلبهم تفادياً لشرهم [5] ، وهذا يدل على أن البرتغاليين كانوا في يقظة وحذر من خلال مراقبتهم للتحركات العثمانية في سواحل جنوب غربي شبه الجزيرة العربية .

وفي عام (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) وصلت الحملة العثمانية إلى عدن ، وكان حاكمها عامر بن داؤد ، حيث راوغهم في الرد على الرسالة التي أبلغه إياها الأمير فرحات شوباصي ، فكان ذلك من أسباب قتله غدراً عقب وصول الحملة إلى عدن ، إذ إن القائد سليمان باشا

---

(٢) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٤٥ .

(٣) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٤ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٤ .

(٥) نفسه ، ص٤٤ .

(٦) بافقيه ، نفس المصدر ، ص٢٤٧ .

طلب من السلطان عامر أمير عدن بالنيابة (عبد الصمد) بأن يتوجه لملاقاته على ظهر سفينته ، وكان السلطان عامر قد كتب إلى القائد سليمان باشا كي يساعده على الإمام شرف الدين في صنعاء ، فرد عليه سليمان باشا مما يوهم الوعد بالمساعدة ، حتى يتمكن من الد ول بعدن [*] . فتوجه إليه السلطان عامر ومعه ستة من كبار أتباعه بناءً على دعوته وقد أحسن سليمان مقابلتهم في بادئ الأمر ، ولكنه عندما تأكد من خبر سيطرة جنوده على عدن ، تنكر لهم وأمر بشنقهم ، ثم تركوا مشنوقين بالجسارة – قرب باب الساحل – لمدة يومين كاملين ، ثم دفنوا في اليوم الثالث ، وبعد ذلك غادر سليمان باشا عدن ، بعد أن كتب إلى السلطان بدر يخبره بوصوله إلى عدن ، و بأنه سيطر عليها دون قتال – ولعله أراد بذلك تحذيره من الخروج عن طاعة العثمانيين ، وقبل مغادرته كـان قد ترك ـرام عاملاً على عدن من قبله وهو أول أمير عثماني في عدن بعد بني طاهر ، كما ترك معه بعض الجنود [1] ، وكان سليمان باشا قد أخفى أسلوبه الغادر في قتل السلطان عامر والسيطرة على عدن عن المسؤولين العثمانيين في استانبول ، وكان لذلك أثره في أن يفقد العثمانيون ثقة الأهالي في هذه المناطق ، كما أنه ضيع عليهم فرصة تكوين جبهة إسلامية في البحار العربية والمحيط الهندي لمواجهة البرتغاليين [2] . وعندما وصل سليمان باشا إلى ساحل كجرات ، بلغه أن السلطان ـادر شاه – الذي كان قد طلب مساعدة الدولة العثمانية قد تصالح مع خصمه ، وكانت الأساطيل البرتغالية قد استولت على ثغور كجرات وعلى قلعة ديو وما جاورها من البلاد ، ولكن ـادر شاه توفي في الحرب ومن ثم تحالف سليمان باشا مع السلطان محمود .

(*) كان الأئمة الزيود قد استنجدوا بالمماليك في القضاء على ملك بني طاهر ، فلم يبقوا لهم إلا منطقة عدن . انظر : أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص٤٦٥ .

(١) زين الدين المعبري ، المخطوطة السابقة ، ق – ٣٠ب ، الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق – ٤٤٥ ، المتوكل ، المخطوطة السابقة ، ق١٢١ – ١٢٢ ، يحيى بن الحسين بن القاسم ، المصدر السابق ، ص ٦٨٤ ، محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٥ .

Dr-Hulusi yavaz:yemen, de osmanli Hakimiyeti (1517-1571) . cagaloglu Istanbul - 1984. p. 45-46 .

(٢) فاروق أباظة ،عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٥٢ ، محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ ، Serjeant . op cit . p.19

وتمكن سليمان من محاصرة ديو براً وبحراً وعلى بعض قلاعها الأمامية ، إلا أن مقاومة البرتغاليين له جعلته يدرك بأنه ليس من السهل السيطرة عليها (*) . خاصة عندما رفض السلطان محمود إمداده بالذخيرة ، بل إنه فضل مصالحة البرتغاليين ـ خوفاً من أن يغدر سليمان باشا به كما فعل مع السلطان عامر حاكم عدن ـ ومن ثم اضطر سليمان باشا إلى رفع الحصار عن ديو والعودة إلى السويس (١) . وبعد فشل الحملة في تحقيق النجاح ضد البرتغاليين في المحيط الهندي ، توجه سليمان باشا إلى الشحر ، وعندما شاهد أهالي الشحر الأسطول العثماني فزعوا لاعتقادهم بأنه أسطول برتغالي ، ومن ثم نزل الجنود العثمانيون إلى المدينة ، وقاموا بعمليات البيع والشراء وأمنوا الناس ، وقد طلب سليمان باشا منهم تسليم الأسرى البرتغاليين الذين أعطاهم السلطان بدر الأمان سابقاً ، كما طلب أيضاً تسليم القائد البرتغالي الأسير بحصن عرف (**) . فأحضر وأصحابه وسلموا للباشا ، ولم يكن السلطان بدر موجوداً آنذاك ، فأناب عنه الأمير أحمد بن مطران في مقابلة الباشا والترحيب به ، حيث توجه إليه في سفينته ، فقابله الباشا مقابلة حسنة ، وأخبره بأن الدولة العثمانية سوف ترسل للسلطان بدر مرسوماً بعقد الولاية له من باب عدن إلى مدينة ظفـار ، وقدم له الأمير أحمد هدايا فاخرة وما يحتاج إليه من مؤن . ثم غادر الباشا الشحر في طريقه إلى عدن بعدما وضع على الشحر رسوماً سنوية قدرها عشرة آلاف أشرفي ، تسلم كل سنة إلى مندوب الدولة الذي يصل سنوياً لأخذها (٢) .

(*) كانت قلعة ديو حصينة جداً تحيط بها مياه البحر من ثلاثة جوانب ، ويحدها من ناحية البر سور عظيم وأشجار عالية ، بينها استحكامات قوية . انظر : محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(١) زين الدين المعبري ، المخطوطة السابقة ، ق ٢٨ب ـ ٣٠ب ، بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٥٧ـ٢٥٨ ، إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص٥٤٨ ، حمزة علي لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ، دار مصر للطباعة ، د.ط (١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) ، ص١٣٣ .

(**) عرف : قرية بالقرب من الشحر بها مزارع . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص٤٦٢ .

(٢) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٥ـ٤٦ ، إسماعيل سرهنك ، نفس المرجع ، ج١ ، ص٥٤٨ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٢٧ـ١٢٨ .

وهكذا استطاع السلطان بدر أن يحسن علاقاته مع أقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت وأن يضمن ولاءها ومساعدتها [١] . وقد توجه سليمان باشا بعد ذلك إلى عدن ، ثم أخضع زبيد وتعز والمخا وغيرها من المناطق الساحلية لسيطرة الدولة العثمانية ، والتي أصبحت بعد ضمها لتلك المناطق تمتلـك قواعد استراتيجية متقدمة ومهمة في الدفاع عن منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي [٢] ، وخاصة في مواجهة الأطماع البرتغالية المتزايدة للسيطرة على المراكز التجارية في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية . وسيتبين في الفصل الثالث نتائج هذا الغزو البرتغالي على الشحر ـ بإذن الله ـ .

---

(١) سعيد باوزير ، المرجع السابق ، ص١٢٨ .

(٢) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ ، محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

الفصل الثالث

نتائج الغزو البرتـغالي للشحر

* سيطرة البرتغاليين على مراكز التجارة في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية .

* تحالف البرتغاليين مع الحبشة وموقف العثمانيين من ذلك التحـالف .

* لفت أنظار القوى الأوروبية لأهمية موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية .

* آثار الغزو البرتغالي على سكان الشحر .

سيطرة البرتغاليين على مراكز التجارة في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية :

أشرنا فيما سبق إلى محاولة البرتغاليين احتلال الشحر ، بعد أن أدركوا أهميتها في السيطرة على طريق تجارة الهند المارة بالبحر الأحمر والخليج العربي ، وأن ميناءها لا يقل أهمية عن ميناء عدن التجاري .

وكان قد نتج عن انتصار هؤلاء البرتغاليين أن اشتد خطرهم وتفاقم طغيانهم في مناطق الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي وعند منافذ البحر الأحمر ، وأصبحوا يهددون طرق التجار الهندية [1] ، فقاموا بمحاصرة السفن الإسلامية والعربية ، ومنعوها من الوصول إلى مصدر تجارتنا ، وهاجموا المراكز التجارية الإسلامية والعربية ، وخاصة في المحيط الهندي ، كما عاثوا في الموانئ العربية تخريباً وإحراقاً [2] . يقول المؤرخ زين الدين المعبري : (...وسبحانه وتعالى لما أراد امتحان عباده أمهل الإفرنج [*] ومكنهم في كثير من البنادر [**] ... وصارت التجارة لهم في هذه البنادر وغيرها ، وتجار المسلمين فيها متذللون ومطيعون لهم) [3]. ولقد ظهرت آثار السيطرة البرتغالية على تجارة الشرق جلية على المنطقة العربية ، فبينما كانت أسواق مصر وسوريا قبل عام (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) تمتلئ بالتوابل التي لا تكاد تجد من يشتريها لكثرة الفائض منها في حين لم تعثر سفن البنادقة التجارية التي كانت تتعامل مع تلك الأسواق إلا على القليل من التوابل عام (٩٠٨ ـ ٩١٠ هـ/ ١٥٠٢ ـ ١٥٠٤م) ، في الوقت الذي كانت سفن البرتغال تحمل آلاف الأطنان منها متوجهة إلى لشبونة لتوزعها على نطاق واسع في أنحاء أوروبا [4] . وكان للقائد البرتغالي (البوكيرك) دور كبير في نجاح التحركات البرتغالية داخل البحر الأحمر ، حيث كان غرضه من وراء الزحف نحو ذلك البحر هو الاستيلاء على عدن ، لتأمين طريق البرتغال الجديد

---

(١) أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ، ج٢ ، القاهر ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، د.ط ، (د.ت) ، ص٧٩ـ٩٨ .

(٢) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٥١ ، محمد صالحية ، المرجع السابق ، ص٩١ .

(*) الإفرنج : أي البرتغاليون .

(**) البنادر : الموانئ .

(٣) زين الدين المعبري ، المخطوطة السابقة ، ق٣٦ـ ٣٧ أ .

(٤) وليد محمد جرادات ، المرجع السابق ، ص ٩٣ـ ٩٤ .

حول رأس الرجاء الصالح ، باعتبار أن ذلك جزءًا من خطته العامة وهي السيطرة على مصادر التجارة الشرقية وإغلاق المنافذ البحرية العربية . وبالرغم من فشله في الاستيلاء على عدن عام (٩١٩هـ/١٥١٣م) ، فقد نجح في أن يرسم للقادة البرتغاليين من بعده خطة غزو هذا البحر إلى أقصى شماله [١] .

كذلك لجأ البرتغاليون إلى سياسة جديدة في طبيعة العلاقات مع الدولة العثمانية ، حيث حاولوا كسب ودها عام (٩٥١هـ/١٥٤٤م) من خلال تبادل المراسلات بين الطرفين غير أن السلطان العثماني سليمان القانوني لم يكن مقتنعاً بصدق رغبة الملك البرتغالي في عقد الصداقة ، حيث أرسل إليه رسالة بهذا الشأن ، تدل على حرصه على سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة . ومن ذلك ما نصه : (.... وفي حالة عدم قصد الصداقة فأعلمونا بها أيضاً حتى نتدارك الوضع فيما يدعو ذلك في الجانب الهندي...) [*] . من هذا نرى الأسباب التي دفعت العثمانيين آنذاك إلى إرسال الحملات العثمانية للقضاء على الغزو البرتغالي للبحار الشرقية . وقد تمثل ذلك في إرسال الحملة العثمانية إلى اليمن بقيادة سليمان باشا عام (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) التي يمكن القول بأنها كانت أول حملة رئيسية إلى اليمن وإلى الهند ، إذ إنها كانت بداية الجهود العثمانية الحقيقة في هذا الميدان [٢] ، والذي كان من أهم أهدافها ضرب المراكز البرتغالية في الهند [٣] . وبالرغم من فشل تلك الحملة ، إلا أن سليمان باشا نجح في تثبيت السيطرة العثمانية على السواحل اليمنية ، والتي أصبحت بذلك قاعدة بحرية مهمة عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، كما تحول هذا البحر بدوره إلى بحيرة عثمانية [٤] . ويرى أحد المؤرخين أن الغرض الخفي من وراء تلك الحملة العثمانية إنما هو احتلال اليمن ،

---

(١) صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ـ١٣٩ .

(*) رسالة السلطان سليمان القانوني إلى ملك البرتغال D .joao الثالث عام (٩٥١هـ/١٥٤٤م) .

من الأرشيف التركي باستانبول . انظر : ملحق الوثائق ، وثيقة رقم (٤) .

(٢) محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص١٥١ .

(٣) صالح رمضان محمود ، نفس المرجع ، ص١٤٤ .

(٤) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٣٩٦ .

الذي يمكن عن طريقه تحقيق الأغراض الدفاعية والتوسعية للدولة العثمانية [١] . والحقيقة أن هذه الدولة هي دولة إسلامية جهادية وليست توسعية استعمارية ، وأن الظروف السيئة التي كان يمر بها العالم الإسلامي والعربي آنذاك ، والتي تتمثل في الخطر البرتغالي ، كانت قد فرضت على الدولة العثمانية سياستها في البحار العربية الجنوبية لصد الغزو البرتغالي على البحار الشرقية ، وبطبيعة الحال كانت بلاد اليمن وحضرموت تمثل نقطة مهمة في القيام بذلك الدور ، نظراً لموقعها الاستراتيجي المتميز في الدفاع عن الأماكن الإسلامية المقدسة .

وقد قوبلت البحرية العثمانية في البحر الأحمر بعد سنة عام (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) ، بتحد برتغالي كبير ، كرد فعل مباشر لحملة سليمان باشا المتجهة إلى الهند ، ورغم فشلها هناك فقد أثارت هذه الحملة قلق البرتغاليين ، ودفعتهم إلى الإصرار على القضاء على هذه القوة البحرية حتى لا تظل مصدر تديد دائم لنفوذهم ومصالحهم في الهند [٢] وكانت خطة البرتغاليين قد تغيرت منذ عهد اصطدامهم بالمماليك فلم تقف عند مهاجمة السفن التجارية العربية في عرض البحار ، أو مجرد إغلاق المنافذ العربية بل تعدى ذلك إلى الرغبة في القضاء على القوة العثمانية البحرية في البحر الأحمر [٣] .

ففي عام (٩٤٧هـ/١٥٤٠م) ، توجهت حملة برتغالية كبرى إلى البحر الأحمر ، بقيادة ستيفن دي جاما (Stephen de Gama) نائب ملك البرتغال في الهند ، وهو الابن الأكبر للقائد ومعه أخاه كريستوفر (christopher) ، فاسكودي جاما ـ لمهاجمة السويس على أساس أن هذا الميناء أصبح قاعدة بحرية عثمانية رئيسية في البحر الأحمر ، وقام قائد الحملة وهو في طريقه إلى السويس بالمرور على عدن حيث ضربها بالمدافع ، ثم هاجم دهلك وسواكن ، وانتهز حاكم سواكن الفرصة فأرسل إنذاراً إلى العثمانيين في السويس يخبرهم بقدوم البرتغاليين ، وعندما وصل الأسطول البرتغالي

---

(٥) فاروق أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، ص٢٢ .

(١) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٣٩٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٧٩ ، صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

بالقرب من السويس قام القائد البرتغالي بإرسال بعض السفن الاستطلاعية إلى ذلك الميناء لمعرفة أخبار العثمانيين ، فعادت هذه السفن وأبلغته بأن الأسطول العثماني في حالة استعداد تام ، ومن ثم قام العثمانيون بمفاجئة الأسطول البرتغالي ، وألحقوا الهزيمة به ولكن القائد البرتغالي تمكن من الهروب ، وتراجع بأسطوله إلى دهلك [1] .

وهكذا فشلت الحملة البرتغالية إلى البحر الأحمر أيضاً ، وقد ترتب على هذه الحملة البرتغالية عدة نتائج مهمة كان لها آثار بعيدة المدى على كلا الجانبين البرتغالي والعثماني ، فقد أدرك البرتغاليون خطورة الإقدام على مثل هذا المشروع مرة أخرى ، حتى لا يعرضوا أساطيلهم للدمار داخل البحر الأحمر الذي أصبح بحراً إسلامياً ، ولذلك ركز البرتغاليون جهودهم بعد ذلك في الحبشة توطئة لعمل مشترك كبير في داخل هذا البحر [2] . كما رأى البرتغاليون مهادنة الدولة العثمانية،وعدم الاستمرار في إثارتنا ، كما حدث عندما حاول ستيفن دي جاما الهجوم على السويس ، فحاولوا عقد اتفاق تجاري مع العثمانيون عام (٩٤٨هـ/١٥٤١م) ، ينص على إحضار كميات معينة من الفلفل إلى الموانئ العثمانية ، مقابل أن يسمح العثمانيون للسفن البرتغالية بالتجول في البحر الأحمر ولكن لم تسفر المفاوضات حينئذ عن أية اتفاقيات ، لأن الدولة العثمانية فضلت سلامة ممتلكاتنا في مناطق البحر الأحمر على المكاسب المادية [3] كما فشلت محاولات البرتغاليين بعد ذلك في عام (٩٥١هـ/١٥٤٤م) ، لعقد صلح مع الدولة العثمانية [4] .

---

(٣) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٧٨ـ٢٧٩ ، السيد رجب حراز : ارتريا الحديثة (١٥٥٧ ـ ١٩٤١م) ، د.م ، معهد البحوث والدراسات العربية ، د.ط (١٩٧٤م) ، ص٢٩ ، حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص٢١٢ـ٢١٣ ، فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص٣٥٨ـ٣٥٩ـ ٣٦٠ .

(١) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٣٩٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٠٥ ، فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص٣٦٢ـ ٣٦٣ ، صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص١٤٩ Danvrs.op. cit.p. 451 .

(٣) السيد مصطفى سالم ، نفس المرجع ، ص٤٠٥ـ ٤٠٦ ، صالح رمضان محمود ، نفس المرجع ، ص١٤٩ .

أما بالنسبة للعثمانيين فقد أدركوا ضرورة اتخاذ الخطوات الحاسمة اللازمة لصد الخطر البرتغالي في البحار الشرقية ، فعملوا على إغلاق البحر الأحمر في وجه السفن الأجنبية ، وازداد نشاط الترسانة البحرية في السويس في بناء سفن حربية جديدة ، كما عملوا على دعم قواتهم في البحر الأحمر ، وأخذت وحدات الأسطول العثماني تجوب بصفة منتظمة جنوب البحر الأحمر وباب المندب منعاً لأي اتصال بين البرتغاليين وحلفائهم الأحباش والتوجه بالفتوحات العثمانية نحو شرق الجزيرة العربية لطرد البرتغاليين من هذه المنطقة من ناحية ، ولتوجيه الضربات من منطقة الخليج العربي إلى الدولة الصفوية من ناحية أخرى. وفي نفس الوقت عزز العثمانيون قواتهم في اليمن وحضرموت وبسواحلهما بصفة خاصة لضرب المراكز البرتغالية في شرقي الجزيرة العربية وللسيطرة على البحر الأحمر (١) . والقضاء على المراكز البرتغالية المنتشرة في السواحل العربية الجنوبية (٢) . وفي عام (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) ضم العثمانيون البصرة بقيادة أياس باشا الذي عين والياً على اليمن عام (٩٥٣ ـ ٩٥٤ هـ/ ١٥٤٦ـ١٥٤٧م) ، وبنوا فيها داراً لصناعة السفن ، حيث أخذت أساطيلهم تنطلق في الخليج العربي بالإضافة إلى البحر الأحمر لمهاجمة الأساطيل البرتغالية في المحيط الهندي (٣) .

وفي العام التالي (٩٥٤هـ/١٥٤٧م) تمكن العثمانيون من إعادة سيطرتهم على صنعاء بقيادة إياس باشا نتيجة وقوع الخلافات الأسرية بين أولاد الإمام الزيدي شرف الدين (٤) . أما عدن ـ مفتاح البحر الأحمر ـ فلم يترك البرتغاليون أية فرصة تسنح لهم للاستيلاء عليها . ففي عام (٩٥٣هـ / ١٥٤٦م) انتهز أحد الأمراء المحليين في اليمن وهو(علي بن سليمان البدوي) (*) الطولقي ـ أمير خنفر ـ (**) انشغال العثمانيين بالحروب في شمال

---

(٤) صالح رمضان محمود ، نفس المرجع ، ص١٤٨ـ١٤٩ .

(١) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٤٠٦ .

(٢) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ١٣٢ .

(٣) محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(*) وهو من قبيلة مبارك ، وهي فخذ من آل فضل ، وهم عرب من سكان البادية ، كانوا يسكنون وادي أبين ، وأبين مدينة على ساحل بحر العرب شرق عدن . وكان عملهم قطع الطريق وسلب القوافل .. انظر : الحجري ، المصدر السابق ، م١ ، ج١ ، ص٥٥ ، محمد البحراوي ، المرجع السابق، ص١٥٨ .

(**) خنفر : باليمن من مدن أبين وهي قاعدتها . انظر : بافقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٦ .

اليمن فأعلن ثورته،واستولى على عدن ، وسعى إلى التحالف مع البرتغاليين ضـد الدولـة العثمانية ، كما وعدهم بالمساعدة والسماح لهم باستعمال ميناء عدن مقابل مساعدتهم لـه ضد الإمامة الزيدية ، وهذا ما دفع والي مصر داود باشا إلى إرسال حملة عثمانية كـبرى إلى عدن عام (٩٥٤ هـ /١٥٤٧) ، وقد نجحت هذه الحملة في السيطرة على عدن ، وقتل علي بن سليمـان البدوي عام (٩٥٥هـ/١٥٤٨م) ، أما البرتغاليون فقد جاءوا إلى عدن متأخرين حيث وجدوا حليفهم قد انتهى أمره [1] .

ولكن الأمـور لم تستقر بيد العثمانيين في عـدن ، إذ إن سكانها قاموا بثورة ضـد العثمانيين [2]، مما اضطرهم إلى تجهيز حملة كبرى في السويس ، أسندت قيادتها إلى بيري محيي الدين رئيس [*] لإقرار الأمور في عدن في عام (٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م) ، وقـد قـام رئـيس بقصف تحصينات عدن ، ونجح في السيطرة عليها وطرد البرتغاليين الذين كانوا قد انتـهزوا الفرصة ونفذوا إلى هناك ، ثم ترك فيها حامية قوية [3] وتوجه بعد ذلك إلى الشحر وهنـاك فقد عدة سفن له نتيجة عاصفة قوية ، ومن ثم توجه ببقية سفنه فحاصر مسقط [4] ، وقـد نجح في السيطرة عليها بعد أن أجبر حاكمهـا البرتغالي جـون دي لـسبـوا (John de Lisboa) علـى الاستسلام هو والحامية [5] ، ثم توجه نحو هرمـز في محاولـة لاستردادها ، إلا أن عاصفة شتت الأسطول العثماني ، فلجأت خمس عشرة سفينة منـها إلى

---

(٤) ابن المطهر ، المخطوطة السابقة ، ق٣٨٦ـ٣٨٧ ، النهروالي ، المصدر السابق ، ص١٠٠ـ١٠١ ، بافقيه ، نفس المـصدر ، ص٣٢٥ ، محمد البحراوي ، نفس المرجع ، ص١٥٨ ، إريك ماكرو : اليمن والغرب ١٥٧١ـ١٩٦٢م ، نقله إلى العربية حسين عبد الله العمري ، دمشق ، دار الفكر ، ط٢ (١٤٠٧هـ/١٩٧٨م) ، ص٢١ .

(٥) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٥٤ .

(*) كان بيري رئيس ، جغرافياً وملاحاً ممتازاً ، ألف كتاباً بالتركية سماه (البحرية) ، كما يقال : إنه رسم خريطة الدنيا عثر عليها ممزقة في مكتبة سراي باستانبول عني بدراستها المستشرق الألماني كالة Kahle في برلين . انظر : عمر سالم بابكور ، حزام الأمن العثماني ، ص ٣٣٨ .

(١) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٥٤ ، عمر سالم بن بابكور ، نفس المرجع ، ص٣٣٦ .

Milles, S.B:The countries and tribes of the persian Galf, London. 1966. p.168

(٢) Sousa. op.cit.vol.2.p.164

(٣) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

ـاية الخليج العربي في البصرة ، وبقي مع بيري ثلاث سفن فقط،غرقت واحدة منـها عنـد البحرين ، وعادت الإثنتان إلى ساحل بحر العرب فالبحر الأحمر ثم السويس [1] . حيث وصل إلى مصر بسفينتين فقط ، وهناك جاء الأمر من استانبول بإعدامه نظير فشله في مهمته [2] .

وكانت النتيجة السلبية التي انتهت إليها الحملة البحرية بقيادة بيري رئيس أ ـا قـد فرضت على العثمانيين أن يحاولوا من جديد القضاء على تحركات البرتغاليين في الـسواحل الجنوبية ، ولذلك أعدوا حملة بحرية جديدة بقيادة مراد بك في عام (٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م) ، وكانت الأوامر الصادرة إلى ذلك القائد تجهيز السفن في ميناء البصرة ، والخـروج للقـاء البرتغاليين في الخليج العربي ، فخرج في سبع عشرة سفينة ، وعندما وصل إلى مضيق هرمـز وقعت معركة بحرية بينه وبين القائد البرتغالي ديجـو دي نورونـ ـها (Diejo de Noronha) ، فهزم فيها ، وقتل عدد من قادة أسطوله ، ومن ثم اضطر مراد بك إلى الرجوع إلى البصرة [3] . ثم جهز العثمانيون حملة أخـرى في عـام (٩٦١ هـ / ١٥٥٣ م) بقيادة سيدي علي ريس ، وعندما وصل إلى البصرة باشر في إصلاح السفن ، ومن ثم أبحـر منها في عام (٩٦٢ هـ / ١٥٥٤ م) [4] حتى وصل إلى هرمز لملاقاة البرتغاليين هناك ، وكان الأسطول بقيادة فرناندیز دي مـ يـيس (Fernandez de Menezes) وانطونيودي نورو ـا (Antonio de Noronha) ، وكانت سفنهـم ثلاثـة أضعاف سفن القائد العثماني [5] ، وتقابل الأسطولان العثماني والبرتغالي في جهـات هرمز ، ووقعت معركة انتصر فيها العثمانيون ، وأغرقوا عدداً كبيراً من سفن البرتغاليين ، ثم تتبع العثمانيون أعدائهم إلى مسقط ، ودارت معركة ثانية بالقرب منها وهبت خلالها عاصفة

---

(٤) نفس المرجع ، ص١٣٧ .

(٥) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص١٤٨ .

(٦) إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص٤٩ . Mills.op.cit.p.171

(١) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص١٤٩. 173- Mills.op.cit.p.p.171 .

(٢) إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج١ ، ص ٥٥٠ .

شديدة شتتت سفن سيدي علي ريس ، وجرفت أمامها كثيراً من سفنه ، حتى وصلت إلى سواحل بلاد الهند ، وهناك لجأ سيدي علي ريس إلى ملك كجرات في الهند ، وسرح معظم جنده ، وسار مع خمسين من أتباعه قاطعاً بلاد الهند براً إلى فارس ثم إلى الأراضي العثمانية (١) .

أما عن أوضاع العثمانيين في اليمن فإنها لم تكن مستقرة (٢) . فقد كان الولاة العثمانيون يتوالون ولاية اليمن الواحد تلو الآخر ، وذلك منذ حملة سليمان باشا عام (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) (٣). غير أن لجوءهم إلى تغيير تلك السياسة وذلك بتقسيم اليمن إلى قسمين هما : اليمن العليا وعاصمتها صنعاء ، واليمن السفلى وعاصمتها زبيد ، وكان من بين أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار الفوضى والاضطرابات في المنطقة (٤) . وفي ذلك يقول أحد المؤرخين : (... واستمر كذلك في تصرف البكلربكي (*) الذي تولى من الباب الشريف السلطاني يتولاها واحداً بعد واحد إلى أن وزعت مملكة اليمن بين بكلربكين وكان هذا عين الخطأ، فإن ذلك مظنة للاختلال والجدال) (٥) .

ومع أن الجيوش العثمانية سيطرت على أغلب الأقاليم اليمنية ، حتى وصلت إلى صعدة شمالاً ، وذلك أثناء ولاية أزدمر باشا (٩٥٦-٩٦١هـ/ ١٥٤٩-١٥٥٣م) ، إلا أن الثورة الزيدية في اليمن الشمالية كانت على أشدها ، خاصة عندما تمكن الإمام الزيدي

---

(٣) نفس المرجع ، ج١ ، ص ٥٥٠ .p.p.177-178 Serjeant. op.cit.p.20 Milles .op.cit

(٤) فالح حنظل ، المرجع السابق ، ٣٩٦ .

(٥) أبو السرور البكري ، المخطوطة السابقة ، ق٣٥ .

(٦) محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص٢٢٩ . وقد ارتأى الولاة العثمانيون أن سوء الإدارة في اليمن - والذي أدى إلى انتشار التذمر في أوساط السكان وبين صفوف الجنود - كان قد نتج عن اتساع رقعة الولاية ، لذلك قاموا بتقسيم اليمن ، غير أن هذا التقسيم أثار خلافات حادة بشأن تقسيم الجيش والخزينة وأملاك الدولة ، وتحولت هذه الخلافات إلى صراع طويل أدى إلى ضعف السلطة وأفقدها قوتها أمام الجبهة المعارضة . انظر : نفس المرجع ، ص ٢٢٩ .

(*) البكلربكي : أي رئيس الولاية أو الإمارة . انظر : النهروالي ، المصدر السابق ، ص٧٠ .

(١) أبو السرور البكري ، المخطوطة السابقة ، ق - ٣٥ .

المطهر بن شرف الدين من إنزال ضربة قاصمة بالقوات العثمانية عام (٩٧٥ هـ / ١٥٦٧ م) وذلك في معركة شعوب شمال صنعاء وبعدها جلاء العثمانيين الأول عن أرض اليمن [١] فأعلن الإمام الزيدي أن اليمن الشمالية دولة مستقلة لا نفوذ ولا سيادة للعثمانيين عليها ولم يكتف المطهر بذلك ، بل أراد أن يمد نفوذه إلى الأجزاء الجنوبية ، فأرسل حملة بقيادة علي بن الشويع على رأس جنده من الزيديين للسيطرة على عدن ، وكانت فيها حامية عسكرية ، عثمانية قليلة ، قد أضناها الجوع وانقطع عنها المدد براً بسبب الحروب ، وبحراً بسبب سيطرة البرتغاليين [٢] . وقد وصف أحد المؤرخين الحالة السيئة التي كانت عليها تلك الحامية العثمانية آنذاك بقوله : (... ومنعوا عن وصول شيء إليهم من البر وسائر الجهات بحيث أداهم ذلك إلى أكل الكلاب والميتات ومضغوا الجلود وهم محصورون ، ليس عندهم ما يأكلون ، ولاعندهم علوفة [*] ولا خزينة ، غير عيون باكية وقلوب حزينة) [٣] . وعندما سمع بدر الكثيري سلطان الشحر بذلك ، أرسل بعضاً من سفنه محملة بالتمر لبيعها إلى العثمانيين المحاصرين ، لكي يستفيد من ذلك ، ويمكنهم في الوقت نفسه من مقاومة الحصار ، غير أن العثمانيين قاموا بأخذ ما كان على تلك السفن من بضائع دون أي مقابل لعدم وجود الأموال معهم ، ولذلك أمتنع السلطان بدر بعد ذلك عن مساعدتهم فاضطر العثمانيون إلى تسليم عدن إلى علي بن الشويع ، ثم جعل علي أخاه قاسم بن شويع والياً على عدن [٤] وبذلك خضعت اليمن كلها للزيدية ماعدا مدينة زبيد [١] .

---

(٢) فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص٣٩٦ ، عبد الله أحمد الثور ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(٣) النهروالي ، المصدر السابق ، ص١٩٠ ، فالح حنظل ، نفس المرجع ، ص٣٩٦ ، محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص ١٧١ .

(*) علوفة : المرتب الشهري أو السنوي ، وجمعها علوفات . انظر : النهروالي ، نفس المصدر ، ص ٨٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٠ .

(١) النهروالي ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ ، فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص٣٩٦ ، محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص١٧١ . ارتأى السلطان بدر الكثيري مساعدة العثمانيين المحاصرين بعدن ، حتى يضمن ولاءهم ومساعدتهم له كما أنه كان شافعي المذهب ، وكان يخشى من سيطرة الزيدين على الأجزاء الجنوبية من بلاد اليمن ، إضافة إلى أن أهالي اليمن الجنوبية كانوا شافعيين ، وكانوا على خلاف مع اليمن الشمالية التي تخضع للزيديين الشيعة . انظر : فالح حنظل ، نفس المرجع ، ص٣٩٦ ، محمد البحراوي ، نفس المرجع ، ص١٧١ .

وقد شعرت الدولة العثمانية بخطورة الموقف ، ثم أصدر السلطان سليم الثاني (٩٧٤ـ ٩٨٢هـ/١٥٦٦ـ ١٥٧٤م) أوامره بإرسال حملة عثمانية كبرى بقيادة سنان باشا والي مصر ، الذي تم تعيينه والياً على اليمن ، وذلك في عام (٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م) لإعادة فتحها [٢] ومما يدل على مدى اهتمام السلطان العثماني باسترداد اليمن ، وخاصة عدن قوله لسنان باشا : (إن استردادنا لمملكة اليمن وإن كان ذلك مما يتعين علينا ، لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس - أي السلطان سليمان القانوني - ولكن جل قصدنا من ذلك إنما هو حفظ ثغر عدن صوناً للحرمين الشريفين عن الكفار) [٣] . كما أن استجابة الدولة العثمانية لطلب سنان باشا بإمداد حملتها تدل على مدى اهتمام الدولة وحرصها على ولاية اليمن [*] . ومن هذا نرى أن الدافع الحقيقي من وراء إرسال تلك الحملة العثمانية إنما هو الحفاظ على سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة من الخطر البرتغالي ، وفي هذا رد أيضاً على من ادعى بأن توجه العثمانيين إلى اليمن إنما كان بهدف التوسع والاستعمار . وقد وصل سنان باشا إلى اليمن في نفس العام (٩٧٦هـ / ١٥٦٨م) ومن ثم قام بتجهيز حملتين لإعادة فتح عدن بقيادة الأمير خير الدين القبطان [٤] . وعندما علم والي عدن قاسم بن الشويع بذلك فكر في التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين ، وقد وافقه الإمام المطهر على ذلك . أما البرتغاليون فقد أرسلوا سفينة واحدة فيها عشرون ضابطاً ، تمكنوا من الدخول إلى عدن واجتمعوا بقاسم الذي أطلعهم على قوة التحصينات في مدينة عدن ، ومن ثم تم الاتفاق فيما

---

(٢) فالح حنظل ، نفس المرجع ، ص ٣٩٦ . كان الوالي العثماني حسن باشا (٩٧٥ـ ٩٧٦هـ/١٥٦٧ـ ١٥٦٨م) ، آنذاك تمكن من المحافظة على زبيد وعلى المناطق الساحلية المحيطة بها والتي تصل بينها وبين البحر الأحمر ، وخاصة أن موقفه أصبح قوياً بمن انضم إليه من أهالي البلاد ، الذين أسهموا في المعركة ضد الزيدي . انظر : السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب . (١٨٤٠-١٩٠٩م) ، القاهرة ، المطبعة العالمية ، د.ط (١٩٧٠م) ، ص ٧٦ ، محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ٢٢٠ .

(٣) النهروالي ، نفس المصدر ، ص ٢٣٢ ، فالح حنظل ، نفس المرجع ، ص٣٩٧ . Dr.Hulusi Yavaz.op.cit. P.91

(٤) النهروالي ، نفس المصدر ، ص٢٣٢ .

(*) حكم صادر من الباب العالي إلى الوالي العثماني في ولاية الشام ، وكذلك إلى الوالي العثماني في ولاية مصر لإمداد حملة سنان باشا ، بتاريخ (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) ، من أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول ، وثيقة رقم ٢١٠٠ من دفتر المهمة رقم ٧ . انظر : ملحق الوثائق وثيقة رقم (٥) .

(٥) محمد البحراوي ، نفس المرجع ، ص١٧٢ـ ١٧٣ ، فالح حنظل ، نفس المرجع ، ص٣٩٧ .

بينهم على أن يقوم البرتغاليون بمواجهة العثمانيين من ناحية البحر ، بينما يقوم هو بمنازلتهم براً ، ثم عاد الوفد بعد أن وعد قاسم بإرسال قوة عسكرية برتغالية ضد العثمانيين [١] . غير أن وصول الحملة العثمانية إلى عدن كان قد سبق وصول القوة البرتغالية إليها [٢] ، وقد قام الأمير خير الدين القبطان بمطاردة السفن البرتغالية حتى ولت فراراً ، ثم عاد بجيشه إلى عدن ، حيث أطبقوا الحصار عليها بحراً وبراً ، وتمكنوا من دخولها من ناحية قلعة شمسان فاستسلم قاسم بن الشويع ومن ثم قتل [٣] .

وهكذا تم الفتح الثاني لعدن على يد العثمانيين عام (٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م) [٤] ، وقد قام سنان باشا بتعيين حسين بك والياً على عدن، لكي يحافظ عليها [٥] من خطر الزيديين والبرتغاليين. ثم توجه سنان باشا إلى صنعاء ، حيث تمكن من فتحها عام (٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م) [٦] ، غير أن الحرب لم تتوقف بين الطرفين ، وتكبد العثمانيون خلالها خسائر فادحة ، إلى أن تم الاتفاق بينهما على عقد صلح ، ففي عام (٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م) عقدت معاهدة بين الطرفين العثماني والزيدي على أساس اعتراف المطهر بالسيادة العثمانية وقبوله وجود حامية عثمانية رمزية ، في صعدة [٧] مقابل اعتراف العثمانيين بالإمام المطهر زعيماً للزيديين [٨] .

وقد استمرت الدولة العثمانية بعد ذلك – وبالتحديد في السنوات الأخيرة من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي – في التصدي للأساطيل البرتغالية وإرسال الحملات البحرية [٩] . ومن أشهر تلك الحملات الحملة العثمانية بقيادة علي بك عام (٩٨٩هـ /١٥٨١م) وذلك في عهد السلطان العثماني مراد الثالث

(١) النهروالي ، المصدر السابق ، ص٢٤٩-٢٥٠ ، محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص١٧٣ .

(٢) النهروالي ، نفس المصدر ، ص٢٥٠ .

(٣) بافقية ، المصدر السابق ، ص٣٢٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص٣٩٢ ، محمد البحراوي ، نفس المرجع ، ص١٧٣ .

(٥) Dr.Hulusi Yavaz.op.cit. p 93

(٦) علي حسون ، المرجع السابق ، ص١٢٤ .

(٧) السيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص٧٦ ، محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص٢٣٠ .

(٨) محمد سهيل طقوش ، نفس المرجع ، ص٢٣٠ .

(٩) نوال حمزة الصيرفي ، الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا ، ص٣٣٤ .

(٩٨٢ـ١٠٠٣هـ/١٥٧٤ـ١٥٩٤م) ، حيث توجه علي بك من المخا لمواجهة السفن البرتغالية في بحر العرب والخليج العربي واسترداد مسقط ، بعد أن تمكن البرتغاليون من الاستيلاء عليها من الحامية العثمانية التي تركها بيري رئيس من قبل ، وعندما وصل علي بك إلى مسقط قام بمحاصرتها وتمكن من تحقيق النصر على البرتغاليين ، ثم وضع حامية عثمانية فيها ، وعاد إلى المخا ومن ثم استمر في مواصلة جهوده لمواجهة الأساطيل البرتغالية في البحر الأحمر وبحر العرب كما نجح في السيطرة على معظم السفن البرتغالية التي كانت تحاول الوصول إلى تلك الجهات . كذلك امتد نشاطه إلى ساحل شرق أفريقيا المطل على المحيط الهندي منذ عام (٩٩٢ هـ / ١٥٨٤ م) [١] ، غير أن العثمانيين انتهجوا فيما بعد سياسة جديدة في مواجهة البرتغاليين ، خاصة بعد فشل حملاتهم البحرية في الهند ، فقاموا بدور الدفاع بدلاً من الهجوم وعملوا على تقوية نفوذهم في البحر الأحمر والقضاء على المراكز البرتغالية الموجودة على طول السواحل العربية ، ومن ثم أهملوا فكرة معاودة الهجوم على البرتغاليين بحملات أكبر [٢] .

والحقيقة أن هناك عدة عوامل أسهمت في الضعف الذي أصاب القوة البحرية العثمانية في مواجهة العدوان البرتغالي على البحار الشرقية . ومن أهمها :

* إن تدهور قوة الردع العثماني للوجود العدواني البرتغالي في السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية كان مرتبطاً بالضعف الذي أصاب القوة البحرية العثمانية في أعقاب هزيمتها أمام الحلف الصليبي في معركة ليبانتو [*] عام (٩٧٩هـ / ١٥٧١م) [٣] .

* عدم قيام العثمانيين بجهد حربي ضد البرتغاليين إلا في عام (٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م) ، وهو العام الذي أرسلت فيه الدولة العثمانية الحملة الكبرى بقيادة سليمان باشا ـ ولعل

---

(١) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٤٢٣ ، نوال حمزة الصيرفي ، الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا ، ص ٣٣٤ .
Milles .op.cit .p.181.

(٢) محمد عيسى صالحية ، المرجع السابق ، ص١٠٢ .

(*) ليبانتو أوليبانتي : مدينة تقع في الطرف الشمالي الغربي لخليج كورنث في اليونان اليوم . انظر : علي حسون ، المرجع السابق ، ص١٢٥ .

(٣) عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، ص١٤٤ .

ذلك يرجع إلى انشغال السلطان العثماني سليمان القانوني آنذاك بالفتوحات في البلقان وفارس والعراق وعدم التفاته للخطر البرتغالي مبكراً [1] . وكان البرتغاليون آنذاك قد وطدوا أقدامهم في بعض المعاقل المنيعة في الخليج العربي مثل هرمز ومسقط ، وفي ساحل مليبار الهندي في جوا [2] .

* طبيعة بناء الأسطول البرتغالي كانت هي الأنسب لمعارك فيما وراء البحار على الرغم من أن قطع الأسطول البرتغالي كانت تتوافد على المحيط الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح الطويل،فيما كان العثمانيون يبنون أسطول كل حملة في السويس ، وهي الأقرب إلى ذلك المحيط [3] .

* إن القوى التي كانت موجودة باليمن والخليج العربي والهند لم تكن على استعداد لتعاون كامل منسق مع الحملات العثمانية فضلاً عن أن معظم تلك القوى ومصالحها الخاصة فوق المصلحة العامة [4] وإذا كان العثمانيون قد نجحوا في السيطرة - بعض الوقت - على الموانئ الواقعة على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية بما فيها موانئ حضرموت ، فإن سلطانهم لم يستقر هناك ، لأن سكان المناطق الداخلية - خاصة الزيديين الشيعة - لم يعترفوا بالولاء للسلاطين العثمانيين [5]، فأعلنوا ثورتهم ومقاومتهم ضد الوجود العثماني ، كما أن وقوع اليمن بعيدةً عن عاصمة العثمانيين وصعوبة نقل الإمدادات إليها ، والتكاليف المرتفعة التي كانت تصرف على الجنود هناك ، كل تلك الأسباب دفعت العثمانيين إلى الجلاء عن اليمن في عام (١٠٤٥هـ/١٦٣٥م) [6] .

---

(١) يوسف فضل حسن ، المرجع السابق ، ص١٢٠ .

(٢) عبد العزيز نوار ، الشعوب الإسلامية ، ص ١٤٤ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٥ .

(٤) نفسه ، ص١٤٤ .

(٥) فاروق أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٢٢-٢٣ .

(٦) صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص١٤٧ .

ونلاحظ أن العثمانيين قاموا أثناء تواجدهم في شبه الجزيرة العربية بحمايـة المـوانئ اليمنية ومراكز التجارة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية من عدوان البحريـة البرتغالية ، كما أمنوا الأماكن الإسلامية المقدسة ، وأحبطوا محاولات التدخل البرتغالي في اليمن [1] .

ومن هذا نرى أنه على الرغم من فشل العثمانيين في تحطيم السيطرة البرتغالية علـى المحيط الهندي ، إلا أ م تمكنوا بدون شك من عرقلة النشاط التجاري للبرتغاليين مما أدى إلى فشل محاولاتم في السيطرة الكاملة على تجارة السلع الشرقية المارة عبر موانئ مصر والشام [2] ، وعلى تجارة الهند المارة بالبحر الأحمر والخليج العربي . هـذا بالإضـافة إلى موقـف العثمانيين من ذلك التحالف البرتغالي الحبشي ، وجهودهم التي بذلوها منعاً لأي اتصال فيما بين تلك القوى . وهذا ما سيرد ذكره لاحقاً .

---

(٧) جاد طه ، المرجع السابق ، ص٣٩ .

(١) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص١٦٨ .

تحالف البرتغاليين مع الحبشة وموقف العثمانيين من ذلك التحالف :

يعتبر تحالف البرتغاليين مع الحبشة أثراً من آثار الغزو البرتغالي للشحر ، إذ إن البرتغاليون كانت لهم أطماع كبيرة في السيطرة على مراكز التجارة في جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومن أهمها مينائي الشحر وعدن . وعندما وجد البرتغاليون مدى صعوبة الاستيلاء على تلك الموانئ نتيجة لتصدي الأساطيل المملوكية ومن ثم العثمانية ، وفرض حمايتها عليها ، لجأوا إلى البحث عن حليف يساعدهم في تحقيق تلك الأطماع ، وكانت مملكة الحبشة بحكم موقعها الاستراتيجي المطل على البحر الأحمر خير مثال لذلك .

والحقيقة أن الساحل الشرقي لأفريقيا لم تكن له فائدة تجارية بالنسبة للبرتغاليين سوى الحصول على الذهب والعاج ، وتأسيس قاعدة لهم على طريق الشرق . أما الهدف الأساسي للبرتغاليين من التحالف مع الأحباش ، فهو تكوين حلف صليبي لتشتيت وإضعاف القوى الإسلامية في شرق أفريقيا ، ومحاربة الإسلام هناك ، وكذلك إضعاف الدولة العثمانية حتى تتراخى قبضة المسلمين عن البحر الأحمر [1] وكذلك بحر العرب ، مما يمكنهم من الاستيلاء على الأماكن الإسلامية المقدسة في مكة والمدينة ، وضرب مصر اقتصادياً والسيطرة عليها من ناحية الجنوب [2] . وفي الوقت الذي كان البرتغاليون يعملون على الاتصال بالأحباش ، كانت الحبشة من جانبها تتطلع إلى مساعدة دولة مسيحية أوروبية لتعينها في حروبها ضد دويلات الطراز الإسلامية [*] المجاورة لها ، والتي حققت في فترات كثيرة انتصاراً كبيراً على الأحباش المسيحيين [3]غير أن هذه الدويلات كانت تتأرجح بين القوة والضعف حسب حالة الوحدة القائمة فيما بينها ، أو قيام أمارة متزعمة تقود حركة الجهاد ، بالإضافة

---

(١) نوال حمرة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص١٦٠ .

(٢) محمد عبد العال أحمد ، بنور سول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، ص٤٧٢ .

(*) دويلات الطراز الإسلامية . وسميت بذلك لأ ا إذ تطل على البحر الأحمر كانت كالطراز في الثوب . وهي مملكة أو فات ـ دوارو ـ بالي هدية ـ أرابيني شرخة ـ دارة . انظر : نوال حمزة الصيرفي ، الجهاد الإسلامي في شرق أفريقية ، ص٢٦ـ ٢١ .

(٣) محمد أنيس وآخر ، المرجع السابق ، ص٢٧ـ ٢٨ .

إلى الوضع الجغرافي الصعب الذي يسود مناطق المسلمين ، فهـم يقيمـون في مـساحات شاسعـة رديئـة المواصلات ، مما صعب عملية جمع الجيش وتعبئته [1] .

وفي عهد ملك الحبشة إسحاق الأول بن داود (٨١٧ـ٨٣٣هـ/١٤١٤ـ١٤٢٩م) ، عمل على اضطهاد المسلمين والتنكيل بهم [2] ، وكانت لدى الملك إسحاق فكرة القيـام بحرب صليبـية ضد دولة المماليك فقام بمراسلة ملـوك أوروبـا عـام (٨٣٢هـ/١٤٢٨م) للتحالف معهم ضد المسلمين ،غير أن ذلك المشروع لم ينفذ ، وتوفي الملك إسحاق على أثر ذلك عام (٨٣٣هـ/١٤٢٩م) [3] ، واستمر خلفاء إسحاق من بعده على نفس سياسـته في اضطهاد المسلمين ، ففي عهد الملك زرء يعقوب (٨٣٨ـ٨٧٣هـ/١٤٣٤ـ١٤٦٨م) قـام باضطهادهـم والاستيلاء على بلادهم ، كما هاجم مملكة أوفات [*] وأصـبحت الممالـك الإسلامية تدفع الجزية لملك الحبشة [4] . ولكن بعد وفاته لم تستمر الأمور على ما كانت في عهده من سيطرة خلفائه على الممالك الإسلامية ، بل عادت الأمور إلى سابق عهـدها مـن الاشتباكات والحروب مع القوى الإسلامية ، واستمرت الاضطرابات خلال عهود من ملوك الحبشة ، حيث تناقلت أثناءها الانتصارات من فريق إلى آخر [5] .

وفي مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي أخذ البرتغاليون يتسللون إلى الحبشة لمساعدة أباطرتها في الوقوف أمام الدويلات الإسلامية [6] ، رغم قيام بعثات كشفية

---

(١) عبد الله حامد : سفارة الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم إلى البلاط الملكي في عاصمة الحبشة جوندار عام (١٠٥٧هـ/١٦٤٧م) ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة ، العدد الثالث ، السنة الثالثة (١٣٩٧ـ١٣٩٨هـ) ، ص١٦ .

(٢) محمد عبد العال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، ص ٤٦٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص٤٨٦ ، عبد المجيد عابدين : الحبشة والعرب ، د.م ، دار الفكر العربي ، د.ط (د.ت) ، ص١٨٢ـ١٨٣ .

(*) أوفات : هي أهم دويلات الطراز الإسلامية وأكبرها ، وكانت تسيطر على مساحة شاسعة من بلاد الحبشة ، تبدأ من ساحل البحر الأحمر إلى وسط الحبشة شاملة لإقليم شوا الشرقي ، وكانت تشمل أيضاً إمارات (مورا و عدل) . انظر : فتحي غيث ، المرجـع الـسابق ، ص١٠٨ .

(٤) عبد الله حامد الحييد ، سفارة الإمام المتوكل على الله ، ص١٧ ، إبراهيم علي طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية بالحبـشة ، المجلـة التاريخية المصرية ، القاهرة ، المجلد الثامن ، العدد الخامس ، السنة (١٥٩) ، ص١٦ .

(٥) فتحي غيث ، نفس المرجع ، ص١٤٨ .

(٦) عمر سالم بن بابكور ، حزام الأمن العثماني ، ص٢٠٣ .

برتغالية إلى بلاد الحبشة قبل دخول البرتغاليين إلى الشرق . وقد وردت فيما سبق الإشـارة إلى البعثة البرتغالية بقيادة بيرو دي كوفيلهام عام (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) ، إلا أنه بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح عام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) ، بدأ البرتغاليون اتصالاتهم الفعلية مـع بـلاد الحبشة [(١)] . مما كان بمثابة الضربة القاضية لدولة المماليك ، وسرعان ما ظهر أثر ذلـك في تعاون الأحباش والبرتغاليين معاً ضد المماليك وضد الدويلات الإسـلامية في الحبـشة [(٢)] . وعندما تولى الملك لبنادنجـل (Lebna Dengel) عام (٩١٤ـ٩٤٧هـ/١٥٠٨ـ ١٥٤٠م) ، كان صغير السن ، فقامت والدته الملكة هيلين (Heleni) بإدارة شؤون البلاد [(٣)] ، ونتيجة لانتصارات الدويلات الإسلامية على مملكتها ، رأت الملكة أن الخطر الإسلامي صار يهـدد الحبشة ، وقد شجع المسلمين ضد الأحباش آنذاك سياسة السلطان المملوكي قانصوه الغوري وإرساله حملات بحرية إلى البحر الأحمر ضد البرتغاليين في الهند [(٤)] ،كما فشلت جهودهـا في طلب المساعدة من السلطان قانصوه الغوري من أجل السلام بين المسلمين والمـسيحيين في الحبشة ، لذلك اتجهت إلى طلب المساعدة من البرتغاليين الذين كانوا قد حققوا انتـصارات كبيرة في المحيط الهندي ، كما حققوا انتصاراً كبيراً على الأسطول المملوكي في موقعة (ديو) عام(٩١٥هـ/١٥٠٩م) [(٥)] .

ولقد تم في عهد البوكيرك ـ نائب الملك البرتغالي في الهند ـ أول اتصال مباشر بـين الحبشة والبرتغال ، ففي عام (٩١٥هـ/١٥٠٩م) ، أرسلت الملكـة هيلين أحـد مبعوثيهـا ويدعى ماثيو (Mathieu) إلى الهند ليعرض على البوكيرك رغبـة الملكـة في التعـاون مـع البرتغاليين لإعلان حرب عامة ضد المسلمين وخاصة المماليك في مـصر[(٦)] ،كماطلبـت أن

---

(١) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص١٢٧ .
(٢) فتحي غيث ، المرجع السابق ، ص١٠٥ .
(٣) عبد ا يد عابدين ، المرجع السابق ، ص١٨٨ .
(٤) محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص ٦٤ .
(٥) الحسن بن أحمد الحيمي : سيرة الحبشة ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ، مطبعة دار العلم العربي ، ط٢ (د.ت) ، ص٢٥ ، محمد البحراوي ، نفس المرجع ، ص٦٤ ، إبراهيم علي طرخان ، المرجع السابق ، ص٦٨ .
(٦) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٦٨ .

يزودها البرتغاليون بأسطول قوي يعمل ضد القوى الإسلامية في البحر الأحمر [1] ، غير أن ماثيو لم يتمكن من مقابلة البوكيرك إلا في عام (٩١٨هـ/١٥١٢م) . وقد قام ماثيو بإرسال رسالة إلى الملك البرتغالي ، شرح له فيها الطرق التي سلكها ، والصعوبات التي واجهها من أجل مقابلة البوكيرك . كما ظهر من خلال هذه الرسالة مدى الحقد الدفين الذي يحمله ماثيو ضد المسلمين [*] . ومن ثم قام البوكيرك بإرسال المبعوث الحبشي إلى البرتغال لمقابلة الملك البرتغالي مانويل الذي رحب به ، وأعلن تأييده التام لمطالب الملكة [2] ، وكان من البديهي أن يرحب البرتغاليون بإقامة علاقات مباشرة مع الحبشة ، الأمر الذي يمكنهم من تحقيق أطماعهم الدينية والاقتصادية .

وفي عام (٩٢٢هـ/١٥١٦م) ، هاجم الإمام محفوظ - حاكم زيلع والذي كان يقود جيوش مملكة عدل - الأحباش ، ولكنه هزم وقتل ، فاستولى ملك الحبشة لبنادنجل على مملكة عدل ، كما قام البرتغاليون بإحراق وتدمير مدينة زيلع ، مما دفع الملك أبو بكر بن محمد - الحاكم الفعلي في المنطقة - إلى نقل العاصمة من زيلع إلى هرر[*] عام (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) [3]. وفي تلك الأثناء نجح القائد البرتغالي لوبيزدي سكويرا في إنزال المبعوث البرتغالي (دي ليما) إلى ميناء مصوع ، وكان بصحبته ماثيو المبعوث الحبشي إلى البرتغال ، والذي توفي بعد نزوله إلى الساحل مباشرة . وقد عاد المبعوث البرتغالي دي ليما

---

(٧) محمد البحراوي ، نفس المرجع ، ص٦٥ .

(*) الرسالة التي أرسلها ماثيو لملك البرتغال عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) . ضمن الوثائق البرتغالية التي أعدها المجمع الثقافي بمركز الوثائق والدراسات ، أبو ظبي : أنظر ملحق الوثائق ، وثيقة رقم (٦) .

(١) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ص٦٨ ، محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص٦٥ .

(**) هرر مدينة تقع إلى الشرق من الحبشة ، وتشمل المنطقة المنخفضة بين البحر الأحمر والمرتفعات الغربية . انظر : عمر سالم بن بابكور ، حزام الأمن العثماني ، ص٢١١-٢١٢ .

(٢) محمود شاكر : أرتيريا والحبشة ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ط٢ (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ، ص٢٧ .

من الحبشة عام (٩٣٣هـ/١٥٢٦م) ، وهو يحمل معه خطابين من ملك الحبشة إلى ملك البرتغال،كما يصطحب معه سفيراً حبشياً [١] ، وقد ظهر في هذين الخطابين مدى حرص ملك الحبشة على معاداة المسلمين ، وطلبه من البرتغاليين بأن يقدموا له كل مساعدة ، حتى يتمكن من الوقوف أمام القوى الإسلامية المحيطة به ، وكذلك رغبة الملك الحبشي في أن يرسل ملك البرتغال إليه الكثير من الفنيين والخبراء في مختلف المجالات لمساعدته في تطوير بلاده وفي صنع الأسلحة اللازمة لمحاربة المسلمين المحيطين به [٢] . كما اقترح أن تتعاون دول أوروبا في إرسال قواتها إلى البحر الأحمر مع البرتغاليين ، حتى يتمكنوا جميعاً من شن حرب صليبية عامة على المسلمين ، بحيث تقوم إسبانيا باحتلال زيلع ، وفرنسا باحتلال سواكن أما ملك البرتغال فيتخذ من مصوع قاعدة له ، ومن ثم يقوم هؤلاء بمساعدة القوات الحبشية في الهجوم على العالم الإسلامي ، وفي الاستيلاء على جدة ومكة وغيرها من المدن الإسلامية من جهة ، وبالتالي تهديد مراكز العثمانيين في تلك المناطق من جهة أخرى [٣] . غير أن المبعوث البرتغالي غضب لذلك ، لأن اقتراح ملك الحبشة كان يعني القضاء على احتكار البرتغال للطريق البحري الجديد حول رأس الرجاء الصالح ، وعلى انفراد الحبشة بالسيطرة على تجارة الشرق [٤] .

---

(٣) السيد مصطفى سالم ، نفس المرجع ، ص١٠٦ .

(١) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص١٠٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص١٠٩ ، فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص٣٢٣ .

كان السبب الذي دفع الملك الحبشي لبنادنجل إلى مثل ذلك الاقتراح هو أن المبعوث البرتغالي كان قد أهداه خريطة العالم المعروفة آنذاك ، فلاحظ الملك أن البرتغال صغيرة المساحة ، واعتقد لذلك أنها ليست على درجة كافية من القوة لحماية البحر الأحمر من العثمانيين . انظر : السيد مصطفى سالم ، نفس المرجع ، ص١٠٩ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٠٩ .

(*) هو الإمام أحمد بن القرين (٩١٢هـ - ٩٥٠هـ/١٥٠٦-١٥٤٣م) . ويطلق عليه لقب جران أي الأشول . تزوج من باتي ابنة الإمام محفوظ ، وكسب بذلك تأييد أتباع الإمام . انظر: فتحي غيث ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص٤٠١ .

ونتيجة لتطور تلك العلاقات البرتغالية الحبشية ، فقد أدرك العثمانيون مدى الخطـر الذي يهددهم من جراء قيام مثل ذلك التحالف ، لذلك صمموا على فتح بلاد الحبـشة ، فلجأوا إلى الاتفاق مع المسلمين في عدن ، وأمدوهم بالأسلحة النارية ، كما سعوا أيـضاً إلى التحالف مع الإمام أحمد إبراهيم القرين (*) ، وأمدوه بما يحتاج إليه من الأسلحة والمدافع (١) . وكان الإمام أحمد قد نجح في عام (٩٣٤هـ/١٥٢٧م) في السيطرة على مدينة هرر بعـد أن ضعفت مقاومة حاكمها الملك أبي بكر محمد (٢) . ومن ثم عمل على تكوين جـيش قـوي ضخم من القبائل الصومالية . وما أن جاء عام (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) حتى كون الإمام أحمـد دولة قوية ذات نفوذ على استعداد لخوض غمار حرب طويلة مع الأحباش (٣) .

وفي عام (٩٣٨هـ/١٥٣١م) توجه الإمام أحمد بفتوحاته نحو بلاد الحبـشة ، فـسيطر على معظم مد ا (٤) . فيتجاور ، ودباروا ، وأوفات ، وبالي ، وشوا حتى وصل إلى ر أواش . ثم أمهرا ولاستا في عام (٩٤٠هـ/١٥٣٣م) ، ووصل بذلك إلى قلب أراضي بلاد الحبـشة المسيحية ، وامتدت مملكته من البحر الأحمر شرقاً حتى كـسلا غربـاً (٥) . وأمـام هـذه الانتصارات المتلاحقة اضطر الملك لبنادنجل عام (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) إلى طلب المساعدة مـن البرتغاليين ولقد استجاب البرتغاليون لطلبـه ، فبعث ستيفن دي جاما نائب الملك في الهنـد أخاه كريستوفر لمساعدة الأحباش ، وعندما وصلت الحملة البرتغاليـة إلى الحبـشة (عـام

---

(٤) محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص٦٧ ، عبد ا يد عابدين ، المرجع السابق ، ص١٩١ـ١٩٢ .

(٥) العيدروسي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

(١) محمود شاكر ، ارتيريا والحبشة ، ص٨٢ .

Tamrat Ethiopia the Red Sea in the cambridge history of Africa .volume 3 ,London , 1977 . P.P.170-171.

(٢) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٠١ـ٢٠٢ .

(٣) فتحي غيث ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ـ١٥٣ ، عبد الله حامد الحبيد ، سفارة الإمام المتوكل على الله . ص١٨ـ١٩

Tamrat.op.cit.p.p.173-174

٩٤٨هـ/١٥٤١م) [١] كان الملك لبنادنجل قد توفي ، فخلفه في الملك ابنه الملـك جلاديوس (Galadewos) (٩٤٧ـ٩٦٧هـ/١٥٤٠ ـ ١٥٥٩م) [٢] الذي واصل سياسة أبيه ،حيـث طلب معونة البرتغاليين في حربه ضد المسلمين [*] .

ومن ثم اشتبكت القوات البرتغالية بقوات الإمام أحمـد القرين،وحقـق البرتغـاليون انتصاراً على الإمام أحمد ، فاضطر للهرب إلى جبال زابول – على الحافة الشرقية للهـضبة الحبشية – لكي يعمل على جمع قواته وتنظيم صفوفه ، ثم قام بطلب المساعدة مـن الـوالي العثماني في زبيد باليمن مصطفى باشا النشار عام (٩٤٧ـ٩٥٢هـ/١٥٤٠ـ١٥٤٥م) الذي أرسل قوة عثمانية لمساعدته [٣] . وفي معركة أوفلا (Wofla) انتصر المسلمون انتصاراً باهراً على التحالف الصليبـي . ووقع القائد البرتغالي كريستوفر أسيراً بيد الإمام أحمد الذي قام بقتله ، ثم شتت قوات الملك الحبشي [٤] .

من هذا نرى أن حملة كريستوفر دي جاما كانت قد لفتت أنظار العثمانيين إلى ميدان جديد هو الميدان الحبشي ، فقد اضطرتم الأحداث المحلية هناك إلى أن يرسـلوا أول حملـة عسكرية لهم إلى داخل الحبشة . ولم يقف نجاح العثمانيين في ذلك الوقت عند حدود الميدان

---

(٤) فتحي غيث ، نفس المرجع ، ص١٥٣ .

(٥) نفس المرجع ، ص ١٥٣ .

(*) رسالة مؤرخة في الثالث عشر من مارس عام (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) . من دوم جوا الثالث ملك البرتغال إلى ملك الحبشة جلاديوس . انظر : نوال حمزة الصيرفي ، الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا ، ص ٣٩٧ .

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٩٠ـ٢٩١ ، السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٤٠١ـ٤٠٣ ، فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص ٤١٦ .

(٢) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص١٧٧ . Sergeant.op.cit.p.19

الحبشي الداخلي ، بل نجحوا بحرياً أيضاً في قطع الاتصال بين الأحباش والبرتغاليين [1] . فقد قامت السفن العثمانية بعدن بمهاجمة خمس سفن برتغالية وأجبرتا على التراجع ، وذلك قبـل وصولها إلى ميناء مصوع لتقديم الإمدادات اللازمة للحملة البرتغالية في الحبشة [2] .

وبالتالي فقد نجح العثمانيون آنذاك في تأكيد وجودهم في البحر الأحمر ، وباعتبـارهم قوة بحرية ذات وزن كبير ، فمنعوا البرتغاليين من مساعدة ملك الحبشة جلاديوس في داخل الحبشة ، كما أ م أثروا بصورة فعالة في الاتصال البحري بين الحبشة وقواعد البرتغاليين في الهند ، لدرجة أن نائب ملك البرتغـال في الهند أصدر أوامره بمنع أيـة محاولـة للاتـصال بالبرتغاليين الذين في الحبشة ، نظراً لخطورة النشاط البحري العثماني حول السواحل الحبشية وقتذاك [3] . وفي ذلك يقول أحد المؤرخين : (ولم يتصلوا بأهل الحبشة بسبب الفزع مـن الأروام [*] ...) [4] .

ويلاحظ في هذه الفترة أن البرتغاليين اكتفوا بمراقبة ما يدور في الميدان من معارك بين الأحباش وبين العثمانيين عن بعد معتمدين في ذلك على إرسال بعض السفن الاستطلاعية إلى سواحل شبه الجزيرة العربية . وقد أشار أحـد المـؤرخين إلى ذلـك في أحـداث عـام (٩٤٨هـ/١٥٤١م) بقوله : (وصل غراب أفرنجي إلى بندر الشحر متجسس أخبـار أهـل الحبشة وأخبار الرومي) [5] . كما تدل هذه الرواية على أهمية الموقع الجغرافي المتميز لمينـاء الشحر ، بحيث رأى البرتغاليون فيه المكان المناسب لمراقبة التحركات العثمانية في سـواحل الحبشة .

أما بالنسبة للإمام أحمد القرين فقد كان لتصرفه الخاطئ بإعادة معظم القوات العثمانية إلى زبيد باستثناء مائتي جندي استبقاهم إلى جانبه ، وبذلك فقد الإمام أحمد ركناً مهماً كان

---

(٣) السيد مصطفى سالم ، نفس المرجع ، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

(٤) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٢٩١ـ٢٩٢ ، السيد مصطفى سالم ، نفس المرجع ، ص٤٠٤ .

(٥) السيد مصطفى سالم ، نفس المرجع ، ص٤٠٤ـ٤٠٥ .

(*):الأروام : أي العثمانيون .

(٦) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٢٩١ـ٢٩٢ .

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

يعينه في حربه ، وما لبثت الأمور أن تعقدت أكثر مما سبق ، حينما رفض الإمام أحمد قبـول الإمدادات العسكرية التي كان يبعث ا العثمانيون من قواعدهم على سواحل اليمن [1] . مما كان له أثره السلبي في انقلاب كفة النصر الذي كان قد حققه بمساعدة العثمانيين لخـوض معركة كبيرة ضد الإمام أحمد [2] .

ففي عام (٩٥٠هـ/١٥٤٣م) وقعت المعركة الحاسمة بين الطرفين قرب بحـيرة تانـا في موقع يسمى ويناديجا (Woina Dega) في الأجزاء الشمالية من الهضبة الحبشية ، هزم فيهـا الإمام أحمد وقتل وتفرق جيشه [3].

وكان من اهتمامات الدولة العثمانية في جنوب شبه الجزيرة العربية تأسـيس أيالـة الحبشة وذلك لعمل حزام الأمن حول الحرمين الشريفين [4] . وقد تدعم نفوذ العثمانيين في الحبشة على يد أزدمر باشا بعد عزله من ولاية اليمن عام (٩٦١هـ/١٥٥٣م) إذ إنه كان قد أدرك أثناء ولايته لليمن مدى أهمية التوجه بالفتوحات العثمانية إلى الحبشة بالنسبة للصراع الدائر بين العثمانيين والبرتغاليين في جنوب البحر الأحمر ، كما لمس أيضاً مدى ضعف نيابـة سواكن واضطراب أحوالها أثناء عودته من اليمن بعد عزله في طريقه إلى إستانبول [5] وهناك عرض على السلطان سليمان القانوني فكرته في تدعيم النفوذ العثماني في الحبشة ، وقد اهتم السلطان سليمان كثيراً بمشروعه حيث أمره بقيادة الجيش لفتح الحبشة [6] فنجح في فـتح بعض جهاتنا ، كما سيطر على بعض الأقاليم الساحلية حول سـواكن ، ولقـد تم عندئـذ

---

(٢) عمر سالم بابكور ، حزام الأمن العثماني ، ص٢١٥ .

(٣) عبد الله حامد الحبيد ، سفارة الإمام المتوكل على الله ، ص٢٠ .

(٤) محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص١٧٨ .

(٥) عمر سالم بابكور ، نفس المرجع ، ص٢٢٣ .

(١) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٤١٣ .

(٢) المتوكل ، المخطوطة السابقة ، ق ١٢٩ ، النهروالي ، المصدر السابق ، ص١١٩ ـ ١٢٠ .

تأسيس (ولاية الحبشة) ، وأصبح أزدمر باشا أول والٍ لها ، وقد ظلت هذه الولاية مقصورة على المناطق الساحلية ، وأصبح مينائي سواكن ومصوع أهم مراكزها [(١)] .

وفي عام (٩٦٥هـ/١٥٥٧م) تمكن القائد العثماني أزدمر باشا من السيطرة على جزيرة مصوع وقرية حرقيقو (Harkiko) المقابلة لها على الساحل ، وذلك كإجراء وقائي ضد خطر قيام تحالف بين الحبشة والبرتغال ، وقطع جميع سبل الاتصال بينهما ، وفي العام التالي سيطر على دباروا ، وبنى فيها حصناً ، وأنزل بها حامية عثمانية [(٢)] ، كما قام أزدمر بعد ذلك بمناوشات عسكرية لكنها كانت فاشلة ، اضطر بعدها إلى التقهقر إلى قواعده في سواكن ومصوع وحرقيقو ، والتي بقيت تحت الحكم العثماني ، وفي أثناء ذلك كان نور الدين مجاهد [(*)] يعزز قواته في هرر ، واشتبك مع قوات الملك جلاديوس في معركة انتصر فيها على الملك المسيحي وقتله في عام (٩٦٧هـ/١٥٥٩م) [(٣)] .

ومما ساعد العثمانيين على تقوية نفوذهم على الساحل الشرقي الأفريقي قيام خلاف في الحبشة ، إذ انقسمت الحبشة إلى قسمين : قسم يؤيد الكنيسة الغربية ، وآخر يؤيد الكنيسة الشرقية ، ودخلت الحبشة في حرب أهلية طويلة [(٤)] . ووصلت العلاقات بين الأحباش والبرتغاليين إلى درجة سيئة للغاية ، وذلك عندما قام الملكميناس (Minas) عام (٩٦٧ – ٩٧١هـ/١٥٥٩ – ١٥٦٣م) بمنع الأحباش من دخول الكنائس الكاثوليكية ، وطلب من المنصرين البرتغاليين مغادرة البلاد ومنعهم من نشر عقيدتهم أو الظهور في

---

(٣) السيد مصطفى سالم ، نفس المرجع ، ص٤١٤ . وقد استمر أزدمر باشا في ولايته تلك حتى توفي عام (٩٦٧هـ/١٥٥٩م) . انظر : المتوكل ، نفس المخطوطة ، ق ١٢٩ .

(٤) السيد رجب حراز ، ارتريا الحديثة ، ص ١٣٠ ، عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص١٩٤ .

(*) نور الدين الوزير مجاهد أحد أقارب الإمام أحمد القرين ، تزوج من أرملة الإمام بعد أن تعهد لها بالانتقام لزوجها . وقام بتحصين مدينة هرر ، وبنى سورها بعد أن تولى القيادة عام (٩٥٦هـ/١٥٤٩م) توفي في عام (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) . انظر : عبد الله حامد الحيد ، سفارة الإمام المتوكل على الله ، ص ٢٠ .

(٥) فتحي غيث ، المرجع السابق ، ص١٦١ ، عبد الله حامد الحيد ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(١) محمد أنيس وآخر ، المرجع السابق ، ص٣٦ .

الكنائس ، وحرم عليهم الزواج من الحبشيات ، كما منع زوجات البرتغاليين الحبشيات من اعتناق مذهب أزواجهن [(١)] .

غير أن سياسة الملك ميناس تلك لم تستمـر طويلاً ، ففـي عهـد ابنه الملك سرصا دنجل (Sarsa Dengel) عام (٩٧١ـ١٠٠٦هـ/١٥٦٣ـ١٥٩٧م) طـرأ تغيـير في العلاقـات بين الأحباش والبرتغاليين ، حيث سمح لهم الملك بنشر مذهبهم الكاثوليكي مـرة أخرى [(٢)] .

وفي المقابل قام العثمانيون بالتحالف مع البحر نجش إسحاق (حاكم دباروا) ضـد الملك سرصادنجل ، غير أن الملك الحبشي تمكن بمساعدة حلفائه البرتغاليين من إلحاق الهزيمـة بالعثمانيين وحليفهم إسحاق ، بعد معركة فاصلة بينهم عام (٩٨٦هـ/١٥٧٨م) قُتـل فيهـا إسحاق . وبذلك اضطرت القوات العثمانية إلى الانسحاب مرة أخرى إلى مواقعهـا علـى الساحل في محاولة لمراقبة الأوضاع من هناك [(٣)] .

أما البرتغاليون فقد عادوا لمزاولة نشاطهم البحري داخل البحر الأحمر ، ففي أثناء فترة حكم نائب الملك البرتغالي في الهنـد دورات دي مـنيس (Doart de Meneses) عـام (٩٩٢ـ ٩٩٧هـ/١٥٨٤ـ١٥٨٨م) [(٤)] توجهت حملة بحرية بقيـادة ري دي كامـارا (Ruy de camara) نحو البحر الأحمر ، وتوغلت فيه حتى جزيرة كمران ، ولكن العثمـانيين تصدوا له عند الجزيرة ، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة به [(٥)] . وبفـشل تلـك الحملـة اقتنـع البرتغاليون بصعوبة مهاجمة المراكز العثمانية داخل البحر الأحمر ، وليس معنى ذلـك أنهـم امتنعوا عن مهاجمـة تلك المراكز نهائياً ، وإنما أصبح دخولهم فيما بعد مرتبطاً بفكرة معينة ،

---

(٢) السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ص ٤١٦ ، محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص٩٧ .

(٣) محمد البحراوي ، نفس المرجع ، ص ٩٨ ، غسان الرمال ، المرجع السابق ، ص٢٨٣ .

(٤) عبـد الحميـد عابـدين ، المرجـع الـسابق ، ص ١٩٥ ، غـسان الرمـال ، نفـس المرجـع ،ص٢٨٥ـ ـ٢٨٦. Sousa.op.cit.vol.3.p.p.29-30

(٥) غسان علي الرمال ، نفس المرجع ، ص٢٨٦ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٨٧ .

وهي إرسال البعثات الكاثوليكية إلى الحبشة تحقيقاً لدوافعهم الدينية [1] ومنذ عام (٩٩٢هـ/١٥٨٤م) توجه القائد العثماني علي بك بجهوده نحو سواحل شرق أفريقيا - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - حيث قام من اليمن بمهاجمة السفن البرتغالية عند ساحل سفالة ، وقام بتحريض ملك ممباسا وكثير من حكام مدن الساحل ضد البرتغاليين ، مما أقلق نائب الملك في الهند دورات دي ميس فقرر إرسال قائده دي ميلوبو مبيرو (De Melopo mbeyro) الذي احتل ممباسا ، وأوقع الهزيمة بالقائد العثماني علي بك عام (٩٩٧هـ/١٥٨٨م) . وفي العام التالي نشبت ثورة ضد الملك سرصادنجل بقيادة البحر نجش ولد أعزوم حاكم دباروا الذي تحالف مع العثمانيين في مصوع ، فتوجه الملك سرصادنجل لملاقاتهم وأوقع بهم الهزيمة . وتمكن القائد العثماني كداورت والي مصوع من الانسحاب بمن بقي معه من القوات إلى قاعدته في حرقيقو . وهناك حوصرت القوات العثمانية ولكنها تمكنت من المقاومة ، ومن ثم تم عقد الصلح فيما بين الملك سرصادنجل وبين القائد العثماني ، وظل العثمانيون في سواحل شرق أفريقيا رغم محاولات الأحباش المتعددة لإقصائهم بعيداً [2].

وهكذا نرى أن تحالف البرتغاليين مع الحبشة يعتبر نتيجة من نتائج الغزو البرتغالي لجنوب شبه الجزيرة العربية لتحقيق دوافعهم الدينية ومن ثم الاقتصادية في ذلك الجزء عن طريق ذلك التحالف . غير أنه مع نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي . لم تعد البرتغال القوة الوحيدة ذات الأطماع الاستعمارية في البحار الشرقية والبحار العربية الجنوبية . كما أن الدولة العثمانية لم تعد تواجه الخطر البرتغالي فحسب ، إذ إن قوى أوروبية جديدة ظهرت لتنافس الاستعمار البرتغالي في ذلك الميدان ، ألا وهي الهولندية والإنكليزية . وهذا ما سوف تتعرض له الدراسة فيما سيأتي .

---

(١) Sousa.op.cit.vol.3.p.p.38-40

(٢) غسان علي الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٨٨-٢٨٩ .

لفت أنظار القوى الأوروبية لأهمية موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية :

ويعتبر توجه الدول الأوروبية بأطماعها الاستعمارية نحو جنوب شبه الجزيرة العربيـة من آثار الغزو البرتغالي لميناء الشحر وغيرها من موانئ جنوب شبه الجزيرة العربيـة ، إذ إن نجاح البرتغاليين واحتكارهم لتجارة الشرق كانت مدعاة لمنافسة الهولنديين والإنكليـز لهـم للاستئثار بثروات تلك التجارة [1] .

ومع نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي تعرض الاستعمار البرتغـالي للبحار الشرقية إلى عدة عوامل أسهمت في إضعافه وتدهوره ، من أهمها :

١) أن البرتغال فقـدت استقلالـها عام (٩٨٨هـ/١٥٨٠م) ، عندمـا انـضمـت إلى إسبانيـا [2] وأصبحت تحت حكم فيليب الثاني ملك إسبانيا بعـد وفـاة ملكهـا هـنري ، مما أدى إلى تدهور قوة البرتغاليين على الرغم من أن ملوك إسـبانيا ظلـوا يراعون مصالح الإمبراطورية البرتغالية لفترة غير قـصيرة [3] . ولا شـك أن هزيمـة الأسطول الإسباني (الإرمادا) [*] عام (٩٩٧هـ/١٥٨٨م) ، أمام الأسطول الإنكليـزي كان عاملاً حاسماً في تدهور القوتين الإسبانية والبرتغالية معاً ، وفتح طريق رأس الرجاء الصالح إلى الشرق الأقصى أمام القوى الأوروبية الأخرى وخاصة هولندا وإنكلترا [4] .

٢) السياسة البرتغالية السيئة في معاملة شعوب المناطق التي استعمروها ، مما أدى إلى كراهية سكان تلك المستعمرات للبرتغاليين ، كما أنهم اعتمدوا اعتماداً كلياً على الرقيق والجند

---

(١) محمد البحراوي ، المرجع السابق ، ص١٠٨ .

(٢) مصطفى عقيل : التنافـس الدولي في الخليج العـربي (١٦٢٢ـ١٧٦٣م) ، الدوحـة ، مؤسسـة العهد للصحافة والطباعة والنشر ، ط٣ ، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ، ص٤٦ ، عبد العزيز سليمان نوار ، الشعوب الإسلامية ، ١٤٥ .

(٣) عبد العزيز سليمان نوار ، نفس المرجع،ص١٤٥ ، فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية البحر الأحمر ، ص٥٧ . وقد ظلت البرتغال تتبع إسبانيا حتى تم لها الاستقلال مرة أخرى عام (١٠٥٠هـ/١٦٤٠م) ، انظر : ج. لوريمر ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٨ .

(*) الإرمادا لفظ أسباني كان يطلق على أسطول من السفن الحربية يتكون من ١٣٠سفينة أرسلها فيليب الثاني ملك إسبانيا لفتح أنكلترا غير أنه فشل في ذلك فشلاً ذريعاً . انظر : إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص ١١ .

(٤) عبد العزيز سليمان نوار ، نفس المرجع ، ص١٤٥ .

المرتزقة من الهنود ، وهو أمر لم يكن في صالحهم نظراً لارتباط هؤلاء بأهالي البلاد الأصليين مما جعلهم لا يكترثون بالمصالح البرتغالية [١] .

٣) إن معظم المستعمرات البرتغالية لم يكن لها عمق داخلي،بل كانت تتركز إما في الموانئ البحرية أو في الجزر ، بالتالي كانت تلك المستعمرات بحاجة إلى اهتمام كبير عن طريق الحاميات والدوريات المستمرة ونقاط مراقبة على طول الساحل [٢] .

٤) إن نقل الإمدادات من لشبونه إلى المستعمرات كان يتطلب وقتاً طويلاً [٣] مثال كما حدث عندما استنجد قاسم بن الشويع بالبرتغاليين ضد العثمانيين ، ولكن البرتغاليين تأخروا في نجدته [٤] فكثيراً ما كانت الأوامر تصدر من لشبونة ، ولكنها عندما تصل إلى موقع التنفيذ تكون الأحداث قد تغيرت [٥] .

٥) تصدي العثمانيين لنفوذ البرتغاليين في الشرق ، وعلى الرغم من أن القضاء على ذلك النفوذ لم يتم على أيدي العثمانيين ، إلا أنهم نجحوا في إبعاده عن البحر الأحمر [٦] والذي أصبح بحيرة إسلامية ، بالإضافة إلى جهودهم في منع قيام أي تحالف بين البرتغاليين والأحباش .

٦) مقاومة سكان جنوب الشحر لذلك النفوذ ، وتكاتفهم مع العثمانيين لصد ذلك الخطر وإضعافه . وهكذا نلاحظ أن تلك العوامل ـ بالإضافة إلى غيرها ـ أسهمت في تدهور القوة البرتغالية ، هذا بالإضافة إلى منافسة كلٍ من هولندا وإنكلترا للبرتغاليين في تجارة الشرق [٧] . وقد دخلت كل من هولندا وإنكلترا إلى البحار الشرقية بواسطة شركات

---

(١) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٧٥ .

(٢) مصطفى عقيل ، المرجع السابق ، ص٤٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص٤٥ .

(٤) انظر ما سبق ، ١٠٦-١٠٧.

(٥) مصطفى عقيل ، نفس المرجع ، ص٤٥ .

(٦) صالح رمضان محمود ، المرجع السابق ، ص١٥٠ .

(٧) نفس المرجع ، ص١٥٠ . كان من أهم الأسباب التي دفعت الهولنديين إلى تلك المنافسة هي مضايقة الأسبان للهولنديين في تجارتهم والتعرض لسفنهم التجارية وأسرها وأغراقها مما دفعتهم إلى حرمان الأسبان من مصدر ثورتهم وهي المستعمرات البرتغالية عن طريق مزاحمتهم في التجارة الشرقية ، انظر : مصطفى عقيل ، نفس المرجع ، ص١٤٤ . أما بالنسبة للإنكليز فقد كان للانتصار الكبير الذي

تجارية كو ا رأس المال الخاص ، أو بالاشتراك مع السلطات ، بينما اعتمد البرتغاليون على أجهزة الدولة مباشرة كالقادة العسكريين أو الإمبراطور البرتغالي نفسه [1] . وقـد أنشئت شركة شرق الهند ، ثم اتحـدت شركات هولندية مختلفة لتكون شركة الهنـد الشرقية الهولندية [2] . أما بالنسبة لإنكلترا فقد تقدم بعض التجار الإنكليز بطلب إلى الملكة إليزابيث الأولى بالموافقة على تخويلهم حق ممارسة التجارة في الشرق [3] . وقـد صدر مرسوم ملكي بالموافقة ، عد بمثابة الحجر الأساسي لقيام شركة الهند الشرقية تحت اسم (شركة حكام وتجار لندن للعمليات التجارية في الهند والأقطـار ا ـاورة) [4] (The Governor and company of Merchantc of London Trading in to the East Indies) وأعطى هذا المرسوم للشركة الحق في احتكار التجارة الشرقية لمدة خمسة عشر عاماً ، وقد تم تمديد هذه المدة بعد ذلك [5] .

وبينما تركزت جهود شركة الهند الشرقية الهولندية في جزر الهند الشرقية ، انصرفت شركة الهند الشرقية البريطانية إلى شبه جزيرة الهند ذاتها ، غير أن ذلك لم يمنع الشركتان من أن توسعا أعمالهما في جميع السواحل الواقعة على طول الطريق إلى مناطق امتيازاتهما و مـن بينها سواحل البحر الأحمر والساحل الجنوبي للجزيرة العربية [6] .

حقفوه على الأسطول الأسباني في الإرمادا ، وانتزاعهم على السيادة على مياه المحيط الأطلسي ، ومن ثم البحث عـن أسـواق جديـدة يستثمرون ا كميات الذهب التي تراكمت لديهم من مستعمراتهم الجديدة من أهم الأسباب التي دفعت لتلك المنافسة . انظر : وليد محمد جرادات ، المرجع السابق ، ص١٠٥.

(١) مصطفى عقيل ، المرجع السابق ، ص١٢٩ .

(٢) جدبون س . ويز ، المرجع السابق ، ٣٧.ج.ج.لوريمر ، المرجع السابق ، ج١ ،ص٢٢ـ٢٣ ، إسماعيل الربيعي ، المرجع السابق ، ص٤٨ .

(٣) مصطفى عبد القادر النجار : شركة الهند الشرقية ـ ملامحها وابرز سماتها في الخليج العربي (١٦٠٠ـ١٨٥٨م) ، مجلة دراسات الخليـج الجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، العدد١٥ ـ السنة ٤ (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص١٠٢ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٠٢ ، مصطفى عقيل ، نفس المرجع ، ص١٣٢.

(٥) مصطفى عبد القادر النجار ، نفس المرجع ، ص١٠٢ .

(٦) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٥٨ـ٥٩ . كانت ملكة إنكلترا إليزابيث الأولى ، قد وافقت على إنـشاء شركة الهند الشرقية ، خاصة وأن هولندا كانت قد ضاعفت أثمان التوابل ، فصمم تجار لندن المتعاملين مع الهند على إنشاء شركة تتعامـل

ولكي تثبت وجودها في الموانئ العربية وتتمكن من منافسة البرتغاليين ، أخذت الشركتان الهولندية والإنكليزية تسعيان لدى السلطات في الموانئ العربية – والتي كانت تخضع آنذاك للحكم العثماني – للحصول على إذن منها بإقامة مراكز تجارية ثابتة في تلك الموانئ [1] . وكان البريطانيون أول من سعى لإقامة علاقات تجارية مع جنوب شبه الجزيرة العربية ، حيث أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية بعثة بحرية بقيادة الكسندر شاربيه ، (Alexander shaerpey) إلى عدن ، وعندما وصل إليها طلب من العثمانيين السماح له بالمتاجرة في مينائها ، إلا أنهم اعتقلوه وصادروا سفينته ، ثم أطلق سراحه بعد ذلك [2] . وهكذا فشلت أولى المحاولات البريطانية للتدخل في الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية [3] . وقد توجه القائد شاربيه إلى المخا ، وطلب كذلك السماح له بالتجارة في مينائها ، وكان يسمح له بذلك بعض الأحيان ولا يسمح له أحياناً أخرى [4] . إذ إن الموافقات العثمانية الرسمية كانت تتأرجح بين قبول ورفض ، وكان مبررهم في ذلك ينطلق من حرصهم وعدم ثقتهم بالقوى الأوروبية التي تحركها الأطماع السياسية الاستعمارية ، بالإضافة إلى دورهم كحماة للأماكن الإسلامية المقدسة في المحافظة على البحر الأحمر كبحيرة إسلامية [5] .

ومن ثم فقد أرسلت شركة الهندية الشرقية بعثة تجارية أخرى بقيادة هنري ميدلتون (Midleton) ، لنفس الغرض ، فزار عدن ثم المخا وقد قوبلت هذه البعثة بعداء واستنكار شديدين من السلطات العثمانية ، التي أبدت تعجبها من جرأة أولئك الصليبيين الذين يسعون للاقتراب من الأماكن الإسلامية المقدسة في شبه الجزيرة العربية [6] . وبعد محاولات متعددة من الإنكليز سمح لهم بالمتاجرة في حرية تامة في المخا والمناطق الواقعة في

مباشرة مع الهند ومع الشرق الأقصى ، دون أن تمر على طريق الهولنديين . انظر :جلال يحيى : معالم التاريخ الحديث ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، د.ط (١٩٧٦م) ، ص١٤٠–١٤١ .

(١) وليد محمد جرادات ، المرجع السابق ، ص١٠٦ .

(٢) جاد طه ، المرجع السابق ، ص٢٥ ، محمد علي حوات ، المرجع السابق ، ص٢٥ .

(٣) جاد طه ، نفس المرجع ، ص٢٥ .

(٤) يوسف فضل حسن ، المرجع السابق ، ص١٢٣ .

(٥) إسماعيل الربيعي ، المرجع السابق ، ص٥٠ .

(٦) يوسف فضل حسن ، نفس المرجع ، ص١٢٣ .

جنو ا ، وهكذا أصبحت بريطانيا آنذاك الدولة الأوروبية الوحيدة التي منحت هذا الامتياز ، ويمكن القول بأن موافقة العثمانيين على مثل ذلك الإجراء كانت بعد تأكدهم من خفـة حدة التنافس القائم بينهما وبين البرتغاليين ، ورغبتهم في تنشيط التجارة لتحـسين وضـع اليمن وحضرموت الاقتصادي [1] .

وهكذا نجح الإنكليز في إقامة أول مركز تجاري لهم في المخا . أما بالنسبة للهولنـديين فقد اتجهت أنظارهم لأول مرة إلى جنوب شبه الجزيرة العربية عندما أرسلت شـركة الهنـد الشرقية الهولندية بعثة تجارية بقيادة فان دي بروكه (Van de Broeckha) إلى جنوب شـبه الجزيرة العربية لدراسة أحوالها ومدى الإمكانات التجارية المتاحة فيها مع موانيء حضرموت [2] . وعندما وصل فان دي بروكه إلى عدن أخبر السلطات العثمانية هناك بأنه يحمل تصريحاً من الباب العالي يسمح له بالمتاجرة في أنحاء الدولة العثمانية – بما في ذلك المناطق التابعـة لنفوذها – ومع أنه قد رحب به في أول الأمر إلا أن معارضة التجار المقـيمين لـه خـشية منافسته لهم أجبرته على الرحيل [3] .

وقد توجه فان دي بروكه بعد ذلك شرقاً تجاه الشحر [4] فاستقبله سلطا ا عبدالله بن عمر بن بدر أبي طويرق – الذي يتبع اسمياً للعثمانيين – استقبالاً يليـق بحليـف الدولـة العثمانية [5] ، كما تعهد له بفتح ميناء الشحر أمام السفن التجارية الهولندية وإقامة وكالـة هولندية فيه بموافقة من السلطات العثمانية [6] ، وفي ميناء الشحر شاهد فان دي بروكـه نحو أربعـة عشر مركباً – وصلت أثناء إقامته فيها – سفن كثيرة من الهند وشرق أفريقيـا

---

(٧) نفس المرجع ، ص١٢٣ـ١٢٤ .

(١) مصطفى عقيل ، المرجع السابق ، ص١٤٦ـ١٤٧ ، محمد حسن العيدروس : تنافس شركتي الهند الشرقية الهولندية والبريطانية في بنـدر عباس (١٦٢٣ـ١٦٤٥م) ، مجلة دراسات الخليج الجزيرة العربية العدد٨٠ ، السنة ٢١م ، ١٩٩٦ م ، ص١٦١ .

(٢) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٥٩ـ ٦٠ ، يوسف فضل حسن ، المرجع السابق ، ص١٢٥ .

(٣) فاروق أباظة ، نفس المرجع ، ص٦٠ .

(٤) حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص٢٢٠ .

(٥) فاروق أباظة ، نفس المرجع ، ٦٠ ، مصطفى عقيل ، نفس المرجع ، ص١٤٧ .

والخليج العربي [1] مما يدل على مدى الازدهار التجاري لذلك الميناء في تلك الفترة ، ومن ثم توجه فان دي بروكه إلى المخا لإقامة وكالة تجارية فيها إلا أن السلطات العثمانية في صنعاء أخبرته بأن مثل هذا التصريح لابد وأن يصدر من السلطان العثماني [2] ؛ بالإضافة إلى تخوف المسلمين هناك من التدخل الأجنبي في شؤونهم ، وكانت السلطات العثمانية تهدف من وراء ذلك إلى المحافظة على سلامة الأماكن المقدسة التي يعرضها للخطر اقتحام أية قوة أوروبية مسيحية للبحر الأحمر ، وبعد أن فقد فان دي بروكه كل أمل في إقامة وكالة تجارية في المخا ، فقد قرر نقل البعثة التجارية لتدعيم مركز الهولنديين في الشحر ، ومن ثم عاد إلى الهند دون أن يحقق لهولندا ما كانت تطمح إليه في منطقة البحر الأحمر [3] .

وقد أصدر السلطان العثماني مرسوماً يخول للهولنديين حق مزاولة التجارة في موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية في اليمن وحضرموت،بشرط ألاّ تتقدم السفن الهولندية إلى الموانئ القريبة من مكة المكرمة كميناء جدة [4] ، وألا يتعرضوا للسفن التجارية في البحر الأحمر وبحر العرب ، غير أن الهولنديين لم يلتزموا بهذا البند إذ استولوا على مجموعة من السفن البرتغالية التجارية ، وكانت تحمل بضائع تخص تجاراً من العرب الحضارمة والبرتغاليين ، مما أثار سخط التجار ، وأدى ذلك إلى قيام السلطات العثمانية في زبيد بسحب الامتيازات التجارية الممنوحة للهولنديين في الموانئ الحضرمية واليمنية ، وطرد المسؤولين الهولنديين من تلك الموانئ . وهكذا خسرت هولندا كل ما حصلت عليه من الامتيازات والأرباح التجارية ، في منطقة جنوب الجزيرة [5] . ومع نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي فقد الهولنديون مركزهم كقوة كبرى ، واستطاع الإنكليز أن يحلوا محلهم [6] في فرض

---

(٦) حسن صالح شهاب ، نفس المرجع ، ص٢٢٠ .

(٧) علي حسون ، المرجع السابق ، ص١٢٣ .

(١) فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٦٠ .

(٢) حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص٢٢٠ ، مصطفى عقيل ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٣) مصطفى عقيل ، نفس المرجع ، ص١٤٧ ، إريك ماكرو ، المرجع السابق ، ص٣٢ ، محمد حسن العيدروسي ، المرجع السابق ، ص١٦١ .

(٤) إريك ماكرو ، نفس المرجع ، ص٣٥ .

نفوذهم التجاري الاستعماري في جنوب شبه الجزيرة العربيـة والـسيطرة علـى مـوانئ حضرموت [1] ، و بب خيرتا الضخمة .

(٥) عدنان ترسيسي ، المرجع السابق ، ص١١١ـ١١٢ .

آثار الغزو البرتغالي على سكان الشحر :

ويمكن أن تظهر آثار ذلك الغزو من خلال أطماع البرتغاليين في سبيل تحقيق دوافعهم الدينية والاقتصادية والسياسية في الشحر وميناءها .

وبالنسبة للدافع الديني فعلى الرغم من الجهود التي بذلها البرتغاليون في استغلال الموقع الاستراتيجي لهذا الميناء لتحقيق أطماعهم الدينية في الوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة ، وكذلك تنصير الأهالي في تلك المنطقة ، إضافة إلى الأفعال المشينة التي كان يرتكبها البرتغاليون مع المسلمين عامة – كما سبقت الإشارة – [1] . والتي عانى منها سكان الشحر أيضاً . إلا أن البرتغاليين فشلوا في تحقيق تلك الأطماع بسبب مقاومة سكان الشحر ومساعدة العثمانيين لهم دفاعاً عن الأماكن الإسلامية المقدسة . وكان ذلك هو أحد أهم الأسباب التي دفعت الدولة العثمانية إلى فرض حمايتها على ذلك الميناء .

أما الدافع الاقتصادي فقد كان لتحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح أثره السيئ في انهيار اقتصاد المناطق العربية،التي كان يعتمد سكانها اعتماداً كبيراً على الطريق البحري القديم [2] .

وكانت الشحر من ضمن تلك المناطق التي تأثرت اقتصادياً بحكم موقعها الجغرافي واعتماد سكانها على الصيد والتجارة من خلال سواحلهم الطويلة المشرفة على بحر العرب [3] ، لذا فقد كان لذلك الغزو المستمر على ميناء الشحر أثره السيئ على سلاطين بني كثير ، وسكان الشحر كذلك في حرمانهم من مصادر تلك الثروة [4] . حيث كان البرتغاليون يقومون بنهب كل ما يجدونه في المراكب الراسية في ذلك الميناء من مواد غذائية وبضائع ثمينة . كما لجأوا إلى سياسة فرض الحصار البحري على المراكب والسفن العربية [5] . ويمكن

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٦ .

(٢) فاروق أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص٣٧ ، خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص١٦ .

(٣) خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص٢٤ .

(٤) Serjeant . op.cit .p..27

(٥) انظر ما سبق ، ص ٦٤ .

أن يكون ذلك هو السبب المباشر في ارتفاع الأسعار الكبير الذي شهدته موانئ جنوب غرب شبه الجزيرة العربية التي فرض عليها ذلك الحصار بما فيها الشحر ،حيث أشار أحد المؤرخين كمثال إلى ذلك الغلاء الذي شهدته الشحر في عامي (٩٤٥ـ٩٤٦هـ/١٥٣٨ـ١٥٣٩م) [١] .

هذا إضافة إلى خوف أهالي الشحر على مراكبهم التجارية ، ومن ثم توخيهم الحذر في مزاولتهم لمهنة الصيد والتجارة ، ولاشك أنه كان لذلك أثره في ضعف دعـائم الاقتـصاد الشحري آنذاك .

ولم يكتف البرتغاليون بعمليات نهب تلك المراكب ، بل امتدت أطماعهم إلى إلحـاق الخراب والدمار بمنازل ومتاجر الأهالي في الشحر وإحراقها أحياناً . وكان من أهم النتـائج التي ترتبت على الغزو البرتغالي لمدينة الشحر في هجوم عـام (٩٢٩هـ/١٥٢٣م) أن عـدد المنازل التي تخربت بلغ حوالي ثلاث مائة وعشرين داراً وكوخاً ، وسبعمائة وأربعين دكاناً ، واثنتين وثلاثين معصرة زيت [٢] .

كما كان لذلك الغزو البرتغالي أثره في النظام السياسي القائم في الشحر،وقد سـبقت الإشارة إلى الجهود التي كان يبذلها السلطان بدر أبو طويرق الكثيري في سبيل القضاء علـى الفتن والاضطرابات الداخلية ، وانشغاله بذلك عن الاستعداد التام لمواجهة ذلـك الغـزو البرتغالي ، ومن ثم استعانته بالدولة العثمانية ضد البرتغاليين ، وما أدى إليه ذلك من معارضة بعض القبائل الحضرمية ، وبعض أفراد من بني كثير لتلك السياسة التي انتهجها السلطان بدر في طلب المعونة من العثمانيين [٣] . وبينما كانت الفرقة والاختلاف قائمـة بـين المـسلمين وأمرائهم ، كان البرتغاليون متحدين ولا يخالفون أوامر قادتم إلا نادراً .

وفي ذلـك يقول أحد المؤرخين : (وهم لعنهم أهل مكر وخديعة وعارفون بمـصالح أمورهم ، فيتذللـون لأعدائهم وقت الحاجة غاية التذلل ، وإذا انقضت سطوا عليهم بكل

---

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٦٦ـ٢٧٤ .

(٢) فالح حنظل ، المرجع السابق ، ص٣٢٠ .

(٣) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١٣٣ ـ ١٥٣ .

أمر ممكن ، وكلهم على كلمة واحدة لا يخالفون أمر كبرائهم ، مع بعد المسافة عن رعاتهم . وقلما يصدر بينهم الاختلاف ، ولم يسمع أن أحداً منهم قتل كبيرهم لأجل الولاية ، بخلاف ماعليه عساكر المسلمين وأمرائهم من الاختلاف .....) [1] .

وقد سبق وأن أشرنا إلى معارضة عبدالله بن بدر أبي طويرق لسياسة والده ، ثم عمله على خلعه عن الحكم عام (٩٧٦هـ/١٥٦٨م) [2] . إلا أن ذلك لا ينفي أنه كانت هناك جهود محلية نحو وقف الحروب والفتن الداخلية من أجل التكاتف معاً في مواجهة الغزو البرتغالي .

وبالرغم من أن منافسة الهولنديين والإنكليز قد أسهمت في تقليص السيطرة البرتغالية على تجارة المحيط الهندي ، إلا أن تطور الموقف في المناطق العربية من حيث تصدى أبنائها بأنفسهم للقوى الأجنبية ، التي فرضت سيطرتها على تجارتهم ومقدراتهم ، كان له الدور الأكبر في إنهاء السيطرة البرتغالية على تجارة المنطقة العربية ، وعودة العرب لاستلام زمام تجارة منطقتهم ، خاصة بعد انتهاء فترة الفتح العثماني الأول لليمن ، وانسحابهم من البحار العربية الجنوبية ، حيث تولى اليمنيون مهمة حماية أراضيهم وسواحلهم بأنفسهم [3] .

وهكذا يلاحظ من خلال ما تعرضت له الدراسة - فيما سبق عن طبيعة الأوضاع التي كانت عليها منطقة الشحر وميناؤها دينياً وجغرافياً وسياسياً واقتصادياً - بالإضافة إلى ظهور الأطماع البرتغالية بغرض السيطرة على ذلك الميناء الاستراتيجي . كل ذلك كان له أثره إيجابياً وسلبياً على مظاهر التطور الحضاري في منطقة الشحر في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي . وهذا ما ستتعرض له الدراسة فيما سيأتي .

---

(١) زين الدين المعبري ، المخطوطة السابقة ، ق ٢٠ ب .

(٢) محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٠ .

(٣) وليد محمد جرادات ، المرجع السابق ، ص ١٠٦-١٠٧ .

الفصل الرابع

أهم مظاهر التطور الحضاري في منطقة الشحر

* المظاهر العمرانية (التحصينات الحربية ـــ المرافق العمرانية الأخرى) .

❋ الحياة العلمية (العلوم الشرعية ـ العربية ـ التطبيقية) .

❋ الحالة الاجتماعية (عناصر السكان ـ العادات والتقاليد) .

المظاهر العمرانية : (التحصينات الحربية ـ المرافق العمرانية الأخرى) :

تعد المظاهر العمرانية من أهم مظاهر التطور الحضاري الذي شهدته منطقة الـشحـر ، كما سبقت الإشارة إلى أهمية الموقع الجغرافي للشحر ، والتي أثرت إلى حد كبير في دفع عجلـة التطـور الحضاري للمنطقة ، من حيث أ ا تقع في منطقة ساحلية واسعة بعيـدة قلـيلاً عـن المرتفعات ، إضافة إلى ساحل مفتوح على بحر العرب خالٍ من الرؤوس الجبلية [1] الأمر الـذي جعلها سهلة المنال أمام الأطماع الداخلية والخارجية على حد سـواء . خاصـة أن موقعهـا الاستراتيجي المتميز ضمن لتلك الأطماع تحقيق الدوافع الدينية عن طريق الوصول إلى الأمـاكن الإسلامية المقدسـة ، ونشـر المسيحيـة الكاثوليكيـة بين المسلمين [2] . وكـذلك تحقيـق الدوافع الاقتصادية ، حيث كانت الشحر تعد من أكبر المراكز التجارية في السواحل الـشرقية الحضرمية [3] .

ومن خلال تلك المعطيات يتبين بأن اهتمام حكـام تلك المنطقة بإنـشاء التحـصينات الحربية كان ضرورةً حتميةً من أجل الدفاع عنها ضد أي هجوم خارجي ولقد كان للـشحر حتى دخول البرتغاليين المحيط الهندي سور وحصن [4] . إذ كانت محاطة بسورٍ قديم [5] مستطيل الشكل [6] مبني من اللبن (*) ، يرتفع حائطه سبعة أذرع ، وعرضه ذراع ونصف ، ويمتد في شمال المدينة من الشرق إلى الغرب عند منحدرات وادي سمعون . وفي الناحية الشرقية كانت المدينـة

---

(١) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي ، المرجع السابق ، ج ١، ص١١٠ .

(٣) خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص ٨٧ .

(٤) حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ البحري ، ص ٢٥٧.

(٥) خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص55 .

(٦) دائرة المعارف الإسلامية التركية ، مادة الشحر ، ج ١١، ص ٥٢٩ ـ ٥٣٠ .

Islam.Ansiklopedisi.Istanbul1979.Cilt xl.529-530

(*) اللبن : هو الطوب ا فف بالشمس ، انظر : عبد الكريم عبد الله الغامدي ، عمارة السكن وتخطيطه في جنوب شبه الجزيرة العربية في عصر ممالكهـا القديمة على ضـوء المكتشفـات الأثريـة . مجلـة جامعـة الملـك عبـد العزيـز ، الآداب والعلـوم الإنـسانية ، م ٨ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص ١٣٣ .

محاطة بخنادق عميقة ، تمتد من الشمال إلى الجنوب ، خارج منطقة تسمى الرباط ، ويبلغ طول السور (٣١١٣متراً) [١] . وللسور بوابات متعددة ، أكبرها البوابة التي تقع في الجدار الشمالي ، ويخترقها الطريق المعروف بالطريق السلطاني ، ويمتد هذا الطريق من ساحة السوق إلى البوابة في شارع مستقيم [٢] .

كما أن للمدينة من جهتها الغربية سور يبتدئ من منحدرات مسيال سمعون ، ويـضم في ثناياه حي الحور ، ثم ينتهي السور بعدد من الخنادق إلى شاطئ البحر . وتوجد على جـدار السور الشمالي ثلاث قلاع ، واحدة في أقصى جدار السور إلى الشرق ، وتسمى قلعة الراشدي . والثانيـة في وسط امتداد السور ، وتسمى قلعة الرسولي . والثالثة في ا ية جدار السور مـن الغرب ، وتسمى قلعة الكسوب . أما على الساحل فهناك قلعة الكودة ، وإلى الشرق منها القلعة القديمة من حي ا رف ، وبجانبها الشبامية من حي الرملة ، وكلها مبنية من الطين [٣] .

وقد أشار أحد الرحالة إلى القلعة التي كانت موجودة في ميناء الشحر أثناء زيارته لهـا حيث وصفها بأ ا قلعة حصينة،ولها دور بارز في مقاومـة الهجـوم [٤] وهي مبنية من الطـين واللبن [٥] ولها أربعة أبراج [*] بارزة مستديرة [٦] . أما من الجهة الجنوبية للشحر المشرفة علـى

---

(١) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص٥٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص٥٥ . وفي فترة الحكم القعيطي في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي أعيد بناء هذا الـسور بتكلفـة إجماليـة مقدارها مائة ألف ريال ، واستغرقت فترة بنائه ستة عشر عاماً ، ولهذا السور اليوم بوابتان ، الأولى بوابة العيدروس ، والأخرى بوابة الخـور . انظر:نفس المرجع ، ص٥٥ .

(٣) خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص٥٥ .

(٤) جاكلين بيرين ، المرجع السابق ، ص٧٨ـ٧٩ .

(٥) خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص ٥٤ .

(*) كان الهدف من هذه الأبراج هو حراسة المدينة لحمايتها من أي متسلل أو عدو ، يحاول الاعتداء عليها . كما أ ا كانت تقوم مقام الدعامـة ، والدعامة هي ذلك الكتف البارز من السور الذي يربط الأجزاء كما كانت تسند السور وتحميه من السقوط ، انظر : أبو العيـون بركـات ، المرجع السابق ، ص٢٠٣ـ٢٠٤.

(٦) Serjeant.op.cit.p.26

ساحل بحر العرب فمن الممكن أنه لم يكن هناك جدار حاجز ، حيث ذكر أحد المؤرخين بـأن عدم وجود مثل ذلك الجدار كان أمراً طبيعياً ، نظراً لاشتغال معظم السكان بـصيد الأسماك وركوب البحر للتجارة ، ومن ثم فإن وجوده قد يشكل عائقاً أمام حرية ارتيادهم للبحـر [1] . وكان للشحر حصانتها ومنعتها أمام أي هجوم ، بحيث كان على من يفكر في السيطرة عليهـا أن يعد العدة العظيمة لذلك [2] . وقد حدث أن تعرضت لغزو بعض القبائل المحيطة بـها عـام (٩١٣هـ/١٥٠٧م) إلا أنهم فشلوا فشلاً ذريعاً ، بسبب منعتها وتصدي أهلها بقيـادة أميرهـم (مطران بن منصور) ، لذلك الهجوم ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

بشر وأجود وابن دغار يبغون دخله يحسبون المدن ياغلمة الكسر سهلة [3]

ومن أشهر حصونها حصـن صيفت ، حيث أشار أبو مخرمة في تاريخه إلى ذلك الحصن بقوله :

(وأما صيفت فأظنه حصن بالشحر ، ولعله الذي يسمونه اليوم المـصبح) [4] . ومـن أشهر حصونها حصن سمعون . وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

رحمة الله على من حلّ في حصن سمعون رحمة واسعة والعفو مرجو ومسهون [5]

---

(١) Serjeant .op.cit.p.26

(٢) يحيى بن الحسين بن القاسم ، المصدر السابق ، ص٥٩١ .

(٣) بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

(٤) أبو مخرمة ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٦ .

(٥) عبد الله صالح حداد ، المرجع السابق ، ص٢٤٠ ـ وهذه الأبيات الشعرية للشاعر الأخضر باهرمز في رثائه للسلطان عبد الله بن جعفر الكثيري المتوفي بالشحر عام ٩٥٠هـ/١٥٤٣م . انظر : نفس المرجع ، ص٢٤٠ .

(*) الجير:ويقصد به الحجر الجيري . وهـو متوفر بكثرة في شبه الجزيرة العربية بشكل عام . انظر : عبد الكريم عبد الله الغامدي ، المرجع السابق ، ص١٣٢ .

(**) كانت السقوف مسطحة والشرفات مسقوفة ، حتى تلائم رطوبة الجوفي الشحر . انظر : صلاح البكري ، تاريخ حضرموت الـسياسي ، ج٢ ، ص ١٤١ .

أما عن نظام المباني في الشحر ، فقد كانت معظم المنازل تبنى من اللبن والطين ، وقـد أشار أحد المؤرخين إلى ذلك بقوله : (والبيوت متفرقة وبعيدة بعضها عن بعض ، ومعظم البيوت مشيدة من اللبن والطين ، وخارجها الجير (*)، وسقوفها مسطحة (**) تشبه بيوت ميناء عدن) (١) .

ويلاحظ أن بعض الأساسيات المستخدمة في بناء تلك المنازل كانت ضعيفة نوعاً ما ، إذ كانت لا تتحمل غزارة الأمطار وقوة الرياح التي كانت الشحر تتعرض لها في أكثر الأوقـات ، ويمكن أن نستدل على ذلك من خلال ما حدث في الشحر عام (٩٧٠هـ/١٥٦٢م) ، حيـث تعرضت لأمطار غزيرة ، أجبرت الناس معها على الخروج من منازلهم خوفاً من سقوطها عليهم ، ويقـول أحد المؤرخين : (....فحصل مطر عظيم غزير من غير ريح.. ، فخربـت البيـوت والمساجد ، وعم ذلك جميع نواحيها وقراها ، واتصل الخراب بجميع الجهة ووقع الخلق في حالة يعجز عنها الوصف ، حتى أن الناس خرجوا من بيوتهم وعرشوا لأنفسهم وأولادهم في الطرقات أمام بيوتهم خوفاً من انهدام البيوت عليهم وعلى حريمهم وأطفالهم....) (٢) .

ومن أشهر المعالم الحضارية بالشحر ـ آنذاك ـ جامع الشحر ، والذي شـهد توسعاً من جانبه الشرقي عام (٩٣٤هـ/١٥٢٧م) على يـد السيـد عبد الله بن الطيـب بن عبد الرحمن بن الفقيه ، كما شهد زيادة أخرى من جهته الشمالية في نفس العام على يد إسماعيل الكرعمي (٣) .

ومن مساجدها مسجد باعمران ، الـذي أُدخلـت عليـه تعـديلات عـام (٩١٣هـ/١٥٠٧م) (٤) .

ومن أشهر مدارسها في تلك الفترة المدرسة السلطانية ، والتي عمرت بناءً على أمر السلطان بدر أبي طويرق الكثيري (٩٥٥هـ/١٥٤٨م) ، ففدتم بناؤها على يد حسن باكثير

---

(٦) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص٥٤ . كانت بيوت عدن تبنى من الحجر ، كما كانت معظم منازلها تتألف من طابقين الأسفل منـهما يستخدم مخازن ، والعلوي منهما لاستعمال أهل الدار ، انظر : محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، ص١١ .

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٦٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص١٨٦ ـ ١٨٧.

(٣) ابن شنبل ، المصدر السابق ، ص٢٢٩ .

عام (٩٥٩هـ/١٥٥١م) ، كما أمر السلطان بدر ببناء بيت لنفسه شرقي البلاد [1] وقد قال الفقيه أحمد عبد الرحيم الجابري مؤرخاً للعام الذي تم فيه بناء تلك المدرسة :

شادَهُ البَدْرُ مَسْجِدٌ قَدْ تعالى بُعلاه عَلَى النّجوم المُضيَّة

رب من قال أرخوه فقلنـا مسجداً شيدوه للشافعيةْ [2]

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أن تلك المدرسة كانت تعتبر مسجداً ، مما يدل علـى أن المساجد في تلك الفترة كانت أيضاً مقراً لتدريس الطلبة .

كذلك يمكن القول بأن الموقع الجغرافي المتميز للشحر كان قد أسهم في توفير ثروات ضخمة ، كانت هي العامل الذي ساعد على الرواج الاقتصادي ، الذي أسهم في التوسـع العمراني وازدياده ، إضافة إلى استغلال هذه الثروات في التنمية الاقتـصادية والزراعيـة [3] ومن ذلك اهتمام أهالي الشحر ببناء السدود ، لاستغلال مياه الأمطار في الزراعـة ، ومـن ذلك استعانتهم بالسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري في بناء سد وادي بني المـشهور ، وكان قد ألحق م أضراراً كبيرة ، ولم يجدوا عوناً من حكام آل كثير . ولكن اسـتجاب السلطان عامر بعد ذلك لطلبهم ، فأرسل لهم مبلغ ثلاثة آلاف دينار على يد الفقيه محمد بن أحمد باسكوته للإشراف على بنائه ، وقد بني هـذا الســد بالآجر والحجـارة ، وعمـر عمارة قوية ، وذلك عام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) [4] .

كما كان لأهل حضرموت اهتمامات بزراعة القطن وغزله بواسطة مغازل خـشبية تنتشر في المنازل ، وتستعملها النساء لغزل الخيوط المعدة للنسيج ، ثم تـسلم إلى الحاكـة ، حيث ينسجون منه جميع أنواع الثياب ، التي كانت تكفي حاجة السكان ، ويصدر الفائض

---

(٤) بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٣٣١ـ٣٣٢ .

(٥) العيدروسي ، المصدر السابق ، ص٣٣٧ ، بافقيه ، نفس المصدر ، ص٣٤٠ ، اسماعيل بن على الأكوع ، المرجع السابق ، ص ٣٥٨ .

وقد أشار أحد المؤرخين إلى أن هذه المدرسة لا تزال باقية حتى الوقت الحاضر لأداء الصلوات . انظر : محمد بن أحمد الشاطري ، المرجـع السابق ، ج٢ ، ص٢٤١ .

(١) أبو العيون بركات ، المرجع السابق ، ص١٩٧-١٩٨.

(٢) محمد ربيع المدخلي ، المرجع السابق ، ص٢٩١.

منها إلى الخارج [1] . وكان يوجد الكثير من آلات النسيج بمدن وقرى حضرموت ، حتى بلغت في الشحر وحدها ألفاً وثلاث مائة منسجة [2] ، ولم يكن ذلك جديداً على الشحر ، التي كانت تعد في عهد الدولة الحميرية من أعظم معامل النسيج [3] .

وقد أشار أحد المؤرخين إلى مدى براعة أهالي الشحر في صناعة الملابس القطنية المطرزة والمزخرفة الجميلة ، حيث كانوا يقومون بزخرفة وتلوين الأقمشة البيضاء المستوردة من بلاد الهند باللون الأحمر والأزرق [4] .

كما اشتهروا بصناعة الأسلحة وخصوصاً الأسلحة البيضاء كالسكاكين والخناجر [*] وكانوا يستوردون مقابضها من بلاد الهند أيضاً [5] .

وكانت لطبيعة بلادهم الجغرافية المتميزة وإشرافها على ساحل طويل تأثير كبير في اتجاههم إلى تعلم فنون الملاحة [6] ، وصناعة القوارب والسفن لارتياد ذلك البحر . وقد

---

(٣) محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج ٢، ص٢٦٧.

(٤) نفس المرجع ، ص٢٦٧.

(٥) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٤٢ .

وكان الحميريون يقيمون في ريدان وظفار ، وعندما ضعفت دولة السبئيين تغلب عليها الحميريون واستولوا عليها ، وحكموا ريدان وسبأ معاً . ثم طمع الحميريون في حضرموت ، فاستولوا عليها في عهد ملكهم (شمر يرعش) عام (٢٧٥ــ٥٢٥م) . انظر : نفس المرجع ، ج١ ، ص ٣٢.

(١) Islam.Ansiklopedisi.op.cit.p.530

(*) الخناجر:مفردها خنجر ، ويعرف باسم (الجنبية اليمنية) ، وهو يتميز بصغر حجمه والتواء طرفه المدبب . انظر : حصة ناصر المبارك ، المرجع السابق ، ص ١٨٩.

(٢) **Islam.Ansiklopedisi.op.cit.p.530**

(٣) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص١٦.

(**) المخيطة : وهي التي يتم تثبيتها بخيوط من الحبال ، وتتميز بمرونتها ، إذ إنها أقل قابلية للكسر عند اصطدامها بالشعب المرجانية . انظر : خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص ١٤١ .

أشار أحد المؤرخين إلى أن ميناء الشحر كان كبيراً ومناسباً لاستقبال كافة أنواع السفن المخيطة [**] أو المسمارية [***] الصغيرة والكبيرة ، وكان فيها المتخصصون بصناعة السفن وإصلاحها ؛ إضافة إلى وجود كل المواد اللازمة لبناء تلك السفن والقوارب مثل الأخشاب والحبال والأشرعة وغير ذلك [١] .

وكان من الطبيعي أيضاً أن تؤدي هجرات سكان الشحر المستمرة إلى السواحل الشرقية الأفريقية إلى تطوير بناء سفنهم ليتمكنوا من الوصول بها إلى الأماكن البعيدة ومن ثم زيادة معرفتهم بالمواضع الخطرة والمسالك الأمنية في البحار التي تفصلهم عن هذه السواحل [٢] .

أما بالنسبة للعملة التي كانت مستخدمة في الشحر ، فقد أمر السلطان بدر أبي طويرق الكثيري في عام (٩٣٤هـ/١٥٢٧م) ، بأن تضرب باسمه في الشحر نقود [٣] ، للتعامل بها من الفضة فئة الريال وفئة نصف الريال وفئة ربع الريال ، ونقود نحاسية صغيرة وكبيرة [٤] . وفي عام (٩٤٣هـ/١٥٣٦م) ، ضربت عملة أخرى سميت البقشة [*] البدرية [٥]

(***) المسمارية : وهي التي تستخدم فيها المسامير وأنواع مختلفة من السبائك الحديدية ، وتتميز بكبر حجمها ، وسعة حمولتها . انظر : خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص١٤٢.

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٠ـ٦١ .

(٥) حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص ١٧٦.

(١) بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٨٦.

(٢) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٢١ـ١٢٢ ، محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٤١.

(*) البقشة عملة نقدية تقسم إلى نصف بقشة وربع بقشة وثمن بقشة ، والبقشة وأجزاؤها تتخذ من النحاس ، وتضرب في صنعاء . وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الكلمة التركية (بافجة) أي الصرة أو الخرقة التي تلف بها الدراهم . انظر : بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٢٤٠.

(٣) نفس المصدر ، ص٢٤٠.

(**) إن معالم مدينة الشحر في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي لم تتغير كثيراً عن الفترة السابقة ، إلا أنه يمكن القول بأن مدينة الشحر في الوقت الحاضر بحكم طبيعة التطور والرقي صارت أكثر اتساعاً وعمراناً وسكاناً ، خاصة في ظل زيادة أعداد السكان زيادة ملحوظة ، وفي توسيع المساجد والأسواق . انظر : محمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢٩٩ ؛ كذلك يمكننا القول بأن الشحر في الوقت الحاضر بحاجة إلى إدخال بعض الإصلاحات والتحسينات على مظاهرها العمرانية في المباني والشوارع وتعبيد الطرق وغيرها . انظر ملحق الصور ، صورة رقم (٣) .

. وهكذا يتضح مما سبق أن الشحر وميناءها ، شهدت تطوراً حضارياً ملموساً في مظاهرهـا العمرانية (**) ، وفي مختلف الصناعات المحلية التي أسهمت في تطورها الاقتصادي والصناعي ، وكان لذلك أثره في نشأة سكان هذه المنطقة سواءً من حيث حياتم العلميـة أو حالتهـم الاجتماعيـة ، وهو ما سوف نتعرض له فيما سيأتي .

الحياة العلمية : (العلوم الشرعية - العربية - التطبيقية) :

أما بالنسبة للناحية العلمية وتطورها في منطقة الشحر ، فقد كان القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي من أحفل العصور التاريخية في حضرموت بالعلماء والأدباء . وكانت حضرموت مجال جذب للسياحة وطلب العلم ، فقد زارها رجال عديدون من فضلاء العالم الإسلامي ، ثم عادوا وحقائبهم ملأى بالفوائد العلمية ، والنكات الأدبية [1] وفيها يقول أحدهم :

مررت بوادي حضرموت مسلِماً فألفيته بالبِشر مبتسماً رحباً
وألفيت فيه من جهابذة العلى أكابرَ لا يلقون شرقاً ولا غرباً [2]

وقد امتدح المقدسي حرص أهالي حضرموت على طلب العلم بقوله : (وحضرموت هي قصبة الأحقاف ... لهم في العلم والخير رغبة) [3] .

كذلك وصف أحد المؤرخين حرصهم على طلب العلم والرزق بقوله:(والحضرمي حاد الذكاء قوي الذاكرة سريع البداهة كثير النباهة ، مستعد كل الاستعداد للرقي ومجاراة روح كل زمان ومكان في العلم والأدب ... نشيط مجد وصبور على مكافحة المتاعب وتحمل المصائب مهما تفاقم خطبها وعظم شرها ، وكان يقطع الفيافي والقفار ، ويمخر عباب البحار لطلب علم واكتساب مال ، تاركاً وراءه الأهل والعشيرة...) [4] .

ونلاحظ هنا أن الحضارمة كانوا يهاجرون من بلادهم طلباً للعلم أو الرزق ، فكانت لهجرتم تلك أثر كبير في نشر تعاليم الدين الإسلامي والعلوم العربية في البلاد التي كانوا يهاجرون إليها [5] .كذلك عمد عدد كبير منهم إلى استخدام بعض أموالهم في بناء المدارس

---

(١) محمد أبو بكر حميد ، المرجع السابق ، ص ١٩.

(٢) نفس المرجع ، ص ١٩، محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ص ، ج٢ ، ص٢٥٧. وهذه الأبيات الشعرية هي من قول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن عبد الله اليافعي ، أنشدها في أثناء زيارته لحضرموت في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، لما شاهد فيها من أكابر العباد والعلماء انظر : محمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢٥٧ .

(٣) المقدسي ، المصدر السابق ، ص٨٧ .

(٤) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٧٥ .

(٥) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص١٠٥ ، محمد أبو بكر حميد ، نفس المرجع ، ص٨٩ .

وتحسين الأحوال الاقتصادية في بلادهم ، بل إن بعضهم كان يعود ويستقر في وطنه الأصلي ، عندما يحقق ثروات كبيرة [1] .

أما أماكن التعليم والتدريس آنذاك فأكثرها كان في المساجد والزوايا [*] والمدارس والكتاتيب ، كما أن حبهم للخير والمصلحة العامة دفعهم إلى إيجاد أوقاف متنوعة ، أهمها ما كان على طلبة العلم والأربطة والمعاهد العلمية [2] .

وكان للعلويين من الفضل والعلم والصلاح والقيام بالسلطة الدينية والدعوة والإرشاد وإدارة دفة الثقافة والتعليم ، وإخماد الفتن ثم استقرار الأمن في البلاد ، إلى غير ذلك من الأمور ما أكسبهم الود والثقة لدى جميع أفراد الشعب الحضرمي ، وجعل لهم المكانة المرموقة والكلمة النافذة فيهم [3] .

وكان للناحية العلمية أثناء حكم الدولة الكثيرية للشحر نصيب كبير من اهتمام السلطان بدر أبي طويرق الكثيري ، فقد نشر الدعاة والمعلمين في البلاد ، وأجرى رواتب لرجال العلم وأرباب التعليم ، وأسس بالشحر مدرسته السلطانية - التي سبق ذكرها - والتي قصدها طلاب المعرفة من كل مكان ، وقد جعل السلطان لهذه المدرسة وقفاً يقوم بما تتطلبه المدرسة من نفقات [4] .

وقد شهدت الشحر في تلك الفترة نبوغ العديد من الفقهاء والعلماء في مختلف العلوم (الشرعية - العربية - العقلية) . أما العلوم الشرعية فقد ساروا في دراستها على منهج الرجال الأوائل ومن تلاهم من السلف . وقد عبر أحد الشعراء عن ذلك بقوله :

---

(١) جاد طه ، المرجع السابق ، ص١٤-١٥ .

(*) الزوايا : مفردها زاوية ، لفظٌ يطلق على مكان التعبد ومعاهد التعليم . انظر : عمر سالم بابكور ، الدعوة في السودان وتأثرها بالدعوة السلفية - دراسة تاريخية وثائقية ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، ج١٣ ، ع ٢٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، ص٦٤٠ .

(٢) محمد أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٥٧- ٢٥٨ .

(٣) صالح الحامد ، المرجع السابق ، ج ٢، ص٦٤١ .

(٤) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٢٢ .

واتبع كتاب اللهِ والزم سنةً   واقتد هداك اللهُ بالأسلافِ [1]

وقد نبغ في العلوم الشرعية من أهالي الشحر علماء أفاضل عديدون ، من أشهرهم :

* القاضي الفقيه عبد الله بن محمد بن حسن بن محمد بن أحمد بن عبسين الشافعي .كان شريف النفس كريماً سخياً يهتم بتعليم الطلبة وترغيبهم بالعلم [2] . ومن أهم أعماله : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسعي في قضاء حوائج المسلمين ، والتشفع لهم عند الملوك والأمراء ، وتعليم القرآن وقد تتلمذ على يده عدد كبير من الطلبة . وكان ينسخ المصاحف ، فاجتهد في ضبطها وتصحيح رسمها وكتب نحو خمسين مصحفاً ، وكان حسن الخط ويضرب بخطه المثل في الشحر وغيرها [3] .

أما أهم المناصب التي تولاها : فقد تصدر للفتوى والتدريس في الشحر [4] على مذهب الإمام محمد بن إدريس [5] . وقد تخرج على يده عدد كبير من الطلبة ، وكان له دور كبير في إعادة وقف الجامع على المدرس والمدرسة بعد أن سيطرت عليه الدولة لفترة ، ومن ذلك أنه سعى في تعيين الفقيه عبد الله بن الحاج بافضل مدرساً في جامع الشحر ، فانتفع به عدد كبير من الناس [6] كذلك تولى القضاء بالشحر [7] ، وكان زاهداً في ذلك [8] واشتهر بعدله ومراعاته في الأحكام وعدم المداهنة ، والشدة على الظالمين . ولم يكن يأخذ لنفسه شيئاً من راتبه على القضاء بل كان يوزعه على المحتاجين من الفقهاء والطلبة

---

(5) محمد أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج2 ، ص253 .

(1) العيدروسي ، المصدر السابق ، ص77 .

(2) نفس المصدر ، ص77ـ78.

(3) نفسه ، ص77 .

(4) الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق 63 .

(5) العيدروسي ، نفس المصدر ، ص77ـ78 .

(6) نفس المصدر ، ص78 .

(7) الشلي ، نفس المخطوطة ، ق 65 .

. وكانــــــــــــت وفاتـــــــــــــــه عـــــــــــــــام [1] (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) بميناء الشحر [2] .

- ومن أشهر الفقهاء أيضاً القاضي عبد الله بن أحمد سرومي الشحري . كانـت ولادتـه بالشحر ، فنشأ بها وقرأ القرآن ، ثم ارتحل لطلب العلم في زبيد ، ومن ثم عاد إلى موطنه الشحر ، وأخذ عن العالم الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بافضل المعروف بالحاج ، ولازمه ثم سعى له الفقيه في وظيفة القضاء بالشحر في آخر أيـام السلطـان عبد الله بن جعفر الكثيري فولاه القضاء عام (٩١٠هـ/١٥٠٤م) ، واستمر في منصبه هـذا حـتى عـام (٩٤٣هـ/١٥٣٦م) حيث خرج لأداء فريضة الحـج فتوفي في مكـة قبل أداء الفريضة ، وكان رحمه الله يحب الطلبة ويساعدهم [3] .

* ويعتبر العلاّمة الفقيه عبد الله بن عمر بن عبد الله بن أحمد بامخرمة كذلك من أبرز علماء الشحر [4] في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، وكانت ولادته بمدينة الشحر عام (٩٠٧ /١٥٠١م) [5] ، وبها نشأ وبدأ دراسته ، فحفظ القرآن الكريم وهو في سن السابعة ودرس مبادئ العلوم الدينية واللغوية على علماء الشحر وعلى أبيه الشاعر الكبير عمر بن عبد الله [*] ، وعلى عمه العلاّمة المؤرخ الطيب بامخرمة [**] ، وعلى القاضي عبد الله بن أحمد سرومي ، والذي كـان يقـول فيه : (استفـدت من الفقيه عبد الله بامخرمة أكثر مما استفاد مني [6] . ولم يكتف بذلك بل

---

(٨) العيدروسي ، نفس المصدر ، ص٧٨ .

(٩) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٥٤ .

(١) العيدروسي ، المصدر السابق ، ص٢٨١ .

(٢) الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق ٦٣٠ ، بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٧٠ـ ٣٧١ .

(٣) الشلي ، نفس المخطوطة ق٦٣٠ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٣٦ .

(*) هو عمر بن عبد الله بامخرمة (٨٨٤ـ٩٥٢هـ/١٤٧٩ـ١٥٤٥م) ،كان شاعراً من أعيان حضرموت وله عدة كتب منـها (الـوارد القدسي في تفسير آية الكرسي) وله ديوان ضخم وغير ذلك . انظر : خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٥ ، ص٢١٣ .

(**) هو الفقيه المؤرخ الطيب بن عبد الله المتوفي عام (٩٤٧هـ/١٥٤٠م) ، في عدن ، وله مؤلفات تاريخية منها (النسبة إلى المواضع والبلـدان) وكتاب (ثغر عدن) . انظر : سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص١٤١ .

(٤) الشلي ، نفس المخطوطة ، ق ٦٣١ ، بافقيه ، نفس المصدر ، ص٣٧١ .

رحل إلى خارج الشحر ، ودرس على الأئمة البارزين للاستزادة من العلم والثقافة [1] ، فكان من شيوخه في الحرمين : أبو الحسن البكري ، والشيخ محمد بن عراق وغيرهم [2] .

وكانت حصيلته العلمية وفيرة جداً ، فقد توسع في أكثر من عشرين علماً من العلوم الشرعية والعقلية والعربية ، ومنها الأصول والحديث ، والفقه والتفسير ، ومنها الجبر والمقابلة والهندسة والفلك والتواريخ والأنساب ، وشارك في الطب والسياسة ، وأصبحت تتوارد عليه الاستفتاءات من الكثير من أقطار العالم الإسلامي [3] ، حتى انتهت إليه رئاسة العلم والفتوى في جميع جهات اليمن [4] . وكان عبد الله بن عمر إذا دخل بلداً امتنع مفتيها عن الإفتاء مادام موجوداً ا ، ومن ذلك أن العلامة عبد الرحمن بن زياد الزبيدي كان لا يفتي إذا كان عبد الله بن عمر بزبيد [5] .

ومن أهم مؤلفاته في مجال العلوم الشرعية : (الفتاوي الكبرى) ، التي رتبها ابنه علي زين العابدين في مجلدين بعد وفاته ، و(الفتاوى الصغرى الهجرينية) [*] ، و (المصباح لشرح العدة والسلاح [6] في أحكام النكاح) [7] ، و(الدرة الزهية في شرح الرحبية) ، و(حقيقة التوحيد) في الرد على طائفة ابن عربي [8] . وغيرها من المصنفات الأخرى .

---

(٥) محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣١١ .

(٦) الشلي ، نفس المخطوطة ، ق٦٣١ ، محمد بن أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ص٣١١ .

(١) محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣١١ .

(٢) سالم علي الجرو : حضرموت الإنسان والبصمة،الرياض ، مطبعة سفير ، ط١، (١٤١٨هـ) ، ص١٦ .

(٣) الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق٦٣٢ .

(*) الهجرينية نسبة إلى بلد الهجرين ، وتسمىكذلك (الفتاوي الهجرانية) نسبة إلى المتقدم بأسئلتها الشيخ محمد بن على بلعفيف الهجراني .
انظر : محمد بن أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٣١٣ .

(٤) نفس المرجع ، ج٢ ، ص٣١٣ ، سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٣٨، خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٤ ، ص٢٤٩ .

(٥) محمد بن أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٣١٣ .

(٦) خير الدين الزركلي ، نفس المرجع ، ج٤ ، ص٢٤٩ .

أما بالنسبة للمناصب التي تولاها في الشحر ، فقد ولاه السلطان بدر أبو طويرق القضاء ومنصب الإفتاء عام (٩٤٣هـ/١٥٣٦م) ، بعد امتناع واعتذار ، واشترط قبول ذلك المنصب إلى أن يجد من يتولاه بدلاً منه ، حيث اختار شهاب الدين أحمد بن عبد الله لذلك المنصب [١] ، وكان طيلة توليه لذلك المنصب بمثابة رئيس القضاة ، كما كان كاتم سر السلطان بدر يستشيره في شؤونه الخارجية ، ويفوض إليه قراءة الأوراق الرسمية والإجابة عليها ، فكان يجيب على الرسائل التي ترد إلى السلطان بدر من سلاطين الدولة العثمانية ومصر والهند وأمراء الحجاز [٢] ، وهو الذي قام بقراءة مرسوم السلطان سليمان القانوني بمسجد الجامع بالشحر عام (٩٤٤هـ/١٥٣٧م) كما سبق وأن أشرنا [٣] .

وفي عام (٩٥٤هـ/١٥٤٧م) ، ولي الشيخ عبد الله على قضاء الشحر للمرة الثانية ، ولكنه لم يستمر في منصبه سوى خمسة أشهر عزل نفسه بعدها [٤] . وهكذا كان الشيخ عبد الله لا يرغب في الاستمرار كقاضي في محكمة الشحر الشرعية ، بالرغم من رغبة السلطان بدر وقد يعود ذلك إلى خشيته من الاصطدام مع السلطان ، أو لأن الشيخ عبد الله نفسه كان زاهداً في منصب القضاء لذاته [٥] . ومن ثم فقد توجه الشيخ عبد الله إلى حضرموت وأقام في عدن ، حيث تولى التدريس فيها ، إضافة إلى قيامه بمهمة الوعظ والإرشاد في جامعها [٦] وتوفي رحمه الله بعدن . وهو في أبرز مناصبها العلمية وذلك عام (٩٧٢هـ/١٥٦٤م) [١] .

---

(٧) الشلي ، نفس المخطوطة ، ق٦٣٢ .

(٨) سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص١٣٧ .

(٩) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٤٥ .

(١) الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق٦٣٢ .

(٢) محمد أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣١٩ .

ـ كانت العلاقة متوترة بين السلطان بدر (أبي طويرق) وبين الشيخ عمر بامخرمة ولم يستطع ابنه عبد الله التوفيق بينهما ، إذ إن الخلاف السياسي كان حاداً بينهما بخصوص بلد الهجرين مدينة الشيخ عمر،والتي كان يرى أ ا يجب أن تكون مستقلة عن أية سلطة عدا سلطة أهلها ، لذا فقد قام بدر بوضعها تحت حكمه ، ومراقبة الشيخ عمر ، ولقد نفاه مراراً إلى حضرموت والشحر ومن ثم فرض عليه الإقامة الجبرية بسيئون التي توفي فيها . انظر : نفس المرجع ، ج٢ ، ص ٣١٨ـ٣١٩ .

(٣) نفس المرجع ، ج٢ ، ٣١٦ـ٣١٧ .

* ومن علماء الشحر أيضاً الفقيه المؤرخ عبد الله بن محمد باسنجلة [٢] . ولد ونشأ بالشحر وطلب العلم ، وكان أديباً ، فقيهاً مؤرخاً ، تلقى العلم على يد الشيخ علي بايزيد [٣] . وكانت وفاته في عام (٩٨٦هـ/١٥٧٨م) [٤] .

وكان هناك عدد غير قليل من العلماء الذين قدموا إلى الشحر لأخذ العلم عن فقهائها وعلمائها ، وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين :

١ ـ قسمٌ قدم إلى الشحر فأخذ عن فقهائها وعلمائها وتولى عدة مناصب فيها ، أمثال :

* الفقيه العالم عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر بالحاج بافضل الحضرمي ، [٥] ولد بتريم عام (٨٥٠هـ /١٤٤٦م) ، وحفظ القرآن الكريم واعتنى بالفقه والحديث ، وارتحل في طلب العلم إلى الشحر وغيرها [٦] . وقد أذن له مشايخه في الإفتاء والتدريس ، وانتهت إليه رئاسة الفقه في مختلف النواحي ، وله عدة مؤلفات منها : (المختصر في علم الفقه) و (الحجج القواطع في معرفة الواصل والقاطع) [٧] ، وغيرها . وقدتم تعيينه مدرساً في جامع الشحر عندما سعى له بذلك قاضي الشحر عبد الله بن محمد عبسين ـ كما ذكرنا سابقاً ـ وكان صبوراً على تعليم العلم ، واستمر بمنصبه ذلك إلى أن توفي بالشحر عام (٩١٨هـ /١٥١٢م) [٨] .

* ومنهم أيضاً الفقيه العلاّمة شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بالحاج بافضل ، ولد بتريم عام (٨٧٧هـ/١٤٧٢م) ، وحفظ القرآن الكريم ، واهتم بتحصيل العلوم الشرعية والفنون الأدبية على والده وعلى الشيخ محمد بن أحمد بافضل . وقد رحل مع

---

(٤) بافقيه ، المصدر السابق ، ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

(٥) نفس المصدر ، ص٤٢٠ ، عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت ، جدة ، دار المنهاج ، ط١ (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ، ص٢١٢ .

(٦) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، نفس المرجع ، ص٢١٢ .

(٧) بافقيه ، نفس المصدر ، ص٤٢٠ .

(٨) ابن شنبل ، المصدر السابق ، ص٢٥٤ ، بافقيه ، نفس المصدر ، ص١٠٠ .

(١) الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق١٤٤ .

(٢) نفس المخطوطة ، ق١٤٥ ـ ١٤٦ ، بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٠١ .

(٣) الشلي ، نفس المخطوطة ، ق١٤٣ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧ .

والده إلى ميناء الشحر ، حيث تولى التدريس والإفتاء بجامعها ، واستمر على ذلك حتى استشهد عام (٩٢٩هـ/١٥٢٢م) عندما هاجم البرتغاليون ميناء الشحر ، فقام الفقيه أحمد خطيباً في الناس ووعظهم وحثهم على القتال [(١)] .

* ومن هؤلاء العلماء محمد بن عمر بن مبارك بحرق ، ولد بمدينة سيئون (٨٦٩هـ/١٤٦٤م) ونشأ بها فحفظ القرآن الكريم [(٢)] واهتم بدراسة علم الفقه والأصول وقواعد اللغة على جماعة من كبار العلماء في عصره ، ومن أشهرهم العلاّمة الفقيه محمد بن أحمد باجرفيل ، ومن ثم رحل إلى عدة مدن لطلب العلم ومنها رحلته إلى الشحر ، حيث أخذ عن العلاّمة عبد الله بن عبد الرحمن بافضل ، ومن ثم تصدى للتدريس والإفتاء . وقد تولى قضاء الشحر فصدع للحق وطبق أحكام الشريعة ، ولكنه عزل نفسه عن القضاء [(٣)] حيث حدث خلاف بينه وبين الأمير مطران بن منصور حاكم الشحر ، فاستقال متذمراً من تدخل الأمير مطران في شؤون القضاء [(٤)] .

وكان الفقيه بحرق مصدر ثقة لدى السلطان بدر أبي طويرق ، الذي رأى فيه من الكفاءة ما جعله يقربه إليه،ويوليه أعمال حكومته ، وقد أثبت بحرق حسن تصرف ورجاحة عقل فيما أسند إليه من أعمال [(٥)]. وقد كان بحرق أحد قواد الحملة التي جهزها أبو طويرق على قشن [(٦)]. ومنهم فقهاء تولوا التدريس بالمدرسة السلطانية بالشحر بناءً على طلب من حكامها أمثال :

---

(٤) نفس المخطوطة ، ق٢٥٩ـ٢٦٢ ، العيدروسي ، المصدر السابق ، ص١٩٣ .

(٥) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٤٢ .

(٦) الشلي ، نفس المخطوطة ، ق٢٧٢ ، بافقيه ، نفس المصدر ، ص١٦٥ .

(٧) سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص١٤٦ .

(١) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٢٢ . وقد اضطر الفقيه بحرق إلى مغادرة الشحر إلى عدن ، حيث ساءت أحواله المالية ، فأقام بها فترة من الزمن اشتغل خلالها بالتدريس والإفتاء والتأليف ، ثم غادرها إلى الهند حيث توفي بها عام (٩٣٠هـ/١٥٢٣م) ، انظر : سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص١٤٧ـ١٤٨ .

* الفقيه العالم علي بن علي بايزيد التولبي الدوعني ، أحد الشيوخ في دوعن ، حيث ولاّه السلطان بدر على مدرسته قائلاً له : (ما أرى لتدريسها أهلاً غيرك) ، فقام بها يدرس ويفتي ويحدث ، إلى أن توفي فيها عام (٩٧٥هـ ـ ١٥٦٧م) [١] .

وكذلك طلب السلطان عبد الله بن بدر الكثيري من الفقيه محمد بن عبد الرحيم الجابري التدريس في المدرسة السلطانية بالشحر ، فامتثل الفقيه لأمره ، وقدم من بلدته بروم[*] إلى الشحر في عام (٩٨٣هـ ـ ١٥٧٥م) ، وتولى التدريس بها ، فانتفع بتدريسه عدد كبير من طلبة العلم [٢] .

٢ـ أما القسم الثاني : فهو من طلبة العلم الذين اكتفوا بأخذ علومهم من فقهائها وعلمائها أمثال :

- عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله السقاف باشميلة [٣] الذي رحل إلى الشحر وأخذ عن العلاّمة الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بافضل وولده أحمد [٤] .

* والشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الله باجمال ، الذي تلقى علومه بالشحر عن العلاّمة الفقيه عبد الله بن عبدالرحمن بافضل وولده أحمد ، والعلاّمة محمد بن عمر بحرق ، والفقيه القاضي عبد الله بن عبسين [٥] .

---

(٣) الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق٦٨٢ـ٦٨٣ ، بافقيه ، نفس المصدر ، ص٣٨٧ ، إسماعيل الأكوع ، المرجع السابق ، ص٣٥٨ .

(*)بروم : بلدة بين الشحر وميفع على ساحل البحر وهي ميناء صغير غربي مدينة المكلا بمسافة ٣٠كم تقريباً . انظر : عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، المرجع السابق ، ص١٠٥ـ١٠٦ .

(٤) العيدروسي ، المصدر السابق ، ص٤٨٦ ، بافقيه ، نفس المصدر ، ص٤١٤ .

(٥) الشلي ، نفس المخطوطة ، ق١٢٤ ، بافقيه ، نفس المصدر ، ص ٩١ .

(٦) الشلي ، نفس المخطوطة ، ق١٢٤ .

(١) الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق٤٣٤ـ٤٣٥ .

* الشيخ عبد الرحمن بن عمر باهرمزالشبامي [1] الذي قدم إلى الشحر فأخذ العلم عن الفقيه عوض بن سالم باهراوة [2] .

أما بالنسبة للعلوم العربية في الشحر فقد حظيت كذلك باهتمام عدد من أدبائها وشعرائها الذين برعوا في مختلف أنواعها . وكانت روح النسك والعبادة والزهد ، هي الغالبة على الأدب الحضرمي في تلك الفترة ، كما أنه تمثل في أسلوب الوعظ والتذكير المتبع في تلك الأزمنة ، حيث كان ينظم في قوالب العروض للإنشاد في بعض مدارس التصوف ، أومجالس الذكروالوعظ [3] .

ويعتبر الشعر الحضرمي أقرب الأشعار العربية إلى الشعر القديم ، فهو يتناول معظم الأغراض التي تناولها الشعر القديم مثل الوقوف على الأطلال وذكر الآلات والأشياء القديمة من البيئة الحضرمية وغيرها [4] . وكانت اللغة العربيـة هي لغة سكان جنوب شبه الجزيرة العربية ، إلا أن بعض المؤرخين ذكروا بأن الشحريين كانوا لا يتكلمون لغة عربية فصحى ، وأن لغتهم كانت أقرب إلى العجم [5] غير أن أحد المؤرخين يرى بأن قبائل المهرة وأهل الشحر ليسوا من العجم بينما هم من قبائل الشحارة التي تسكن ظفار [*] . وأن قبائل المهرة المجاورين لهذه القبائل كانت تتحدث لهجات يمنية قديمة إلى جانب اللغة العربية [6] . ويمكن أن يكون ذلك هو السبب في الاختلاف حول فصاحتهم أو عدمها - لا سيما وأن أهالي الشحر كانوا يتفاخرون بينهم بفصاحتهم وبلاغتهم في تنظيم الأشعار والخطب [7] .

---

(٢) نفس المخطوطة ، ق١٠٨ ، بافقيه ، المصدر السابق ، ص٨٣ .

(٣) الشلي ، نفس المخطوطة ، ص١٠٨ .

(٤) صالح الحامد ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٦٤٤ .

(٥) محمد أبو بكر حميد ، المرجع السابق ، ص١١١-١١٣-١١٤ .

(٦) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص٥٨ . Islam.Ansiklopedisi.op.cit.p.529-530

(*) القبائل الشحارة : وهم من الحراسيس والدروع وآل وهيبة سكان شمال وغرب عمان . انظر : خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص٥٨ .

(٧) نفس المرجع ، ص٥٨ .

(١) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٤٠ .

واشتهر عصر السلطان بدر أبي طويرق الكثيري بنبوغ عدد من الأدباء والشعراء في تلك العلوم ، وكان السلطان بدر يغدق عليهم الهبات والعطايا ، فمدحه هؤلاء وأثنوا عليه [1] أمثال :

* عبد الله بن عمر بامخرمة ، الذي كان يعد نابغة عصره في علوم العربية من لغة ونحو وصرف وعلم العروض والقافية [2] .

كما امتاز شعره بالرصانة والبلاغة [3] فكان مزيجاً من ألوان مختلفة فيها الغزل والرثاء والمواعظ والحكم وشكوى الزمان ، وكان إلى جانب مقدرته الشعرية ، حسن الإنشاء جيد الأسلوب موهوباً في الناحية الخطابية [4] واشتهر كذلك بأشعاره في مدح الملوك والأمراء والوجهاء ، لاتقرباً إليهم ، ولكن بدافع تشجيعهم على العدل والإنصاف ، وله في رسول الله صلى الله عليه وسلم مدائح بليغة ، وغالب مدائحه في السلطان بدر أبي طويرق الكثيري [5] . وكان له ديوان شعر نظم فيه ألواناً وضروباً من الشعر ، ومن جيد شعره قصيدته الفخرية التي يقول في مطلعها :

مثلي يصان مدى الأزمان جانبه ولا يروعه دهر يحاربه

لا أشرب الماء مقذياً وإن أك عط شاناً وإن غض عنه الطرف شاربه [6]

* ومنهم أيضاً : محمد بن عمر بحرق ، والذي كان أديباً شاعراً كاتباً خصب القريحة ، وقد كتب في مختلف أغراض الشعر من مدح وفخر ووصف وغير ذلك ، ومن قصيدته التي تبرز مقدرته الشعرية ـ وقد رد ا على بعض الأدباء الذين أرادوا امتحانه ـ قوله :

قسماً بآيات البديع وما حوى من صنعتيه موشحاً ومسلسلاً

---

(٢) نفس المرجع ، ج١، ص٩٨ .

(٣) الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق٦٣١ .

(٤) محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣١٤ .

(٥) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٣٨ـ١٣٩ .

(٦) الشلي ، نفس المخطوطة ، ٦٣٧ .

(٧) محمد بن أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٣١٤ـ٣١٦ .

لو كنت مفتـخراً بنظـم قصيدة   لبنيت في هـام ا ـرة منـزلاً
من كل قـافية يـروق سمـاعها   وتعيد سحبان الفصاحة باقـلاً [1]

ومن شعره أيضاً في ذلك :

أظننت أن الشعر يصعب صوغـه   عندي وقد أضحى لدي مذللا
أبدي العجاب إذا برزت مفاخـراً   أو مـادحاً للقـوم أو متغزلاً [2]

ومن أشهر تصانيفه في علوم العربية (شرح ملحـة الإعـراب في النحـو الحريري) [3] و (مختصر شـرح الصفدي على لاميـة العجم) ، و(شرح علـى منظومة في العروض) [4] . و (شرح لامية الأفعال لابن مالك) [5] .

* وكذلك كان عبد الصمد بن عبد الله باكثير الكندي كاتب الإنشاء للسلطان عمر بـن بدر الكثيري وشاعره ، وله ديوان شعر [6] . وكان قد اختص الـسلطان عمـر بغـرر مدائحه وعيون قصائده ، ومن شعره مادحاً له :

صفاتك لا يحوي نظـامي أقـلها   كجود ابن بدر لا يرام له حصـر
إذا نابـني خطب الزمان فإنـني   إلى عمر الخيرات بي ينتهي السفر
مواهبـه موصـولـة بمـواهب   إذا ضنت الأنواء واحتبس القطر [7]

---

(١) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٤٣ـ١٤٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص١٤٤ .

(٣) نفسه ، ص ١٤٥ ، خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص ٢٠٧ .

(٤) سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص١٤٤ .

(٥) خير الدين الزركلي ، نفس المرجع ، ج٧ ، ص٢٠٧ .

(٦) نفس المرجع ، ج٤ ، ص١٣٣ .

(٧) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١، ص١٠٢ .

ـ كانت وفاة الشاعر عبد الصمد باكثير في مدينـة الشحـر عام (١٠٢٥هـ/١٦١٦م) ، انظر : خير الدين الزركلي ، نفس المرجع ، ج ٤، ص١٣٣ .

ولكن على الرغـم من ذلك فقد وصف أحد المؤرخين الأدب الحضرمي خلال تلك الفترة ، بأنه لا يناسب حالة الشعب العلمية ومستواه الفكري والثقافي ، وبأنـه إذا وجـد حينئذ من أبنـاء حضرموت أديب فهو نادر بالنسبة لبيئته ، وهذا يدل على إعراضهم عـن الأدب والشعر ، وعدم اعتباره فناً من الفنون التي يهتم ا العالم المتعلم ، ولكنهم اشتغلوا بما هو الأهم عندهم ، وهو طلب العلوم الدينية وما يتعلق ا من العبادة والنسك [1] .

ويمكن أن نستدل على ذلك من خلال مقارنه أعداد الفقهاء والشيوخ في تلك الفترة بأعداد الأدباء والشعراء . وقد شهدت الشحر تطوراً ملحوظاً في العلوم العقليـة . وقبيـل قدوم البرتغاليين إلى البحار الشرقية،كانت العلوم والملاحة البحرية لدى العرب الجنـوبيين ، قد بلغت ازدهاراً كبيراً ، وقد سبقت الإشارة إلى أن سكان السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ، كان لهم السبق في تعلم فنون الملاحة بحكم الموقع الجغرافي لبلادهم [2] ويتمثل هذا التقدم في المعارف الملاحية التي تناولها سليمان المهري في كتبه ومنظوماته الشعرية [3] ، وهو من أهل مدينة الشحر الذي برع في علـم الملاحة العربية ، ووضع فيها مصنفات تعتمد في أساسها على منهج ابن ماجد [4] .غير أن المهري كان أوسع علمـاً وثقافـــةً ، كماكـان موضوعياً في منهجه سليماً في أسلوبه ، ويبتعد عن الحشو والاسترسال في ســرد وتفاصـيل أخبار وقصص لا تتعلق بالموضوع الذي يتناوله ، كما أنه لم يحاول قـط أن يعظـم نفـسه ويمدحها [5] .

ويعتبر المهري من العلماء الذين عاصروا الغزو البرتغالي للسواحل الجنوبية من شـبه الجزيرة العربية والخليج العربي في النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عـشر الميلادي ، ومن ثم فقد شهد ما تعرضت له المراكب العربية من الهجمات البرتغاليـة والـتي

---

(١) صالح الحامد ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٦٤٤ـ ٦٤٥ .

(٢) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص١٦ .

(٣) حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص ٣١٧ ، محمد ربيع المدخلي ، المرجع السابق ، ص٤٠٦ .

(٤) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص١٤٧، محمد ربيع المدخلي ، نفس المرجع ، ص٤٠٧ .

(٥) حسن صالح شهاب ، نفس المرجع ، ص٣٢٢ .

ذهب ضحيتها كثير من البحارة العرب [1] . إلا أنه على الرغم من ذلك لا يوجد أثر للنفوذ البرتغالي في مؤلفاته [2] وللمهري عدة مصنفات في فن الملاحة من أشهرها : (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) [3] ، الذي يرجع تأليفه إلى عام (٩١٧هـ/١٥١١م) ، وقد قسمه إلى سبعة أبواب ، الأول : منها يبحث في أصول الملاحة الفلكية مع تعريف بالمصطلحات ، والثاني : يتناول فيه الحديث عن النجوم ، والثالث : في الطرق البحرية ، أما الباب الرابع : فيتحدث فيه عن الطرق الموصلة للجزر الكبرى ، والخامس : يبحث في قياس الجاه والفرقدين [*] ، أما الباب السادس : فيتناول الرياح الموسمية في المحيط الهندي ، ويصف الباب السابع : البحر الأحمر ، بالإضافة إلى وصفه لكثير من الطرق الملاحية [4] .

ومن مصنفاته أيضاً (المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر) وقد قسمه إلى سبعة أبواب (تحفة الفحول في تمهيد الأصول في أصول علم البحر) و (شرح تحفة الفحول) و (رسالة قلادة الشموس واستخرج قواعد الأسوس) [5] .

وكان للسلطان بدر أبي طويرق اهتمام بالعلوم العقلية ، فكانت المسائل العلمية تعرض للمناقشة في حضرته [6] . وممن اشتهر من العلماء في عصره الشيخ عبد الله بن عمر بامخرمة الذي كان يعد نابغة عصره في العلوم الشرعية والعربية - كما ذكرنا سابقاً - بالإضافة إلى نبوغه في العلوم العقلية من (حساب وجبر ومقابلة وفلك) كما شارك في علم الطب) [7] . وقد ألف في ذلك العديد من المصنفات العلمية في ذلك المجال ومنها على سبيل المثال : رسالتان في الفلك والميقات [8] ورسالة في الجبر والمقابلة تتعلق بالبيوع والضمان

---

(٦) نفس المرجع ، ص٣٢٣ .

(١) محمود كامل ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ، كراتشكو فسكي ، المرجع السابق ، ص٦٣٣ .

(٢) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ، ص١٤٦ ، حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص٣٢٤ .

(*) الجاه والفرقدين : وهما النجمان ألفاوبيتاً من نجوم الدب الأصغر . انظر : أنور عبد العليم ، نفس المرجع ، ص١٤٦ .

(٣) نفس المرجع ، ص١٤٦ .

(٤) أنور عبد العليم ، نفس المرجع ، ص١٤٦-١٤٧ ، حسن صالح شهاب ، نفس المرجع ، ص٣٢٤ .

(٥) محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٤٠ .

(٦) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص١٣٦ .

(٧) العيدروسي ، المصدر السابق ، ص٣٨٠ .

والإقرار والوصايا والصداق والعتق ، ورسالة في علم المساحة ، وفي سمت القبلة وفي معرفـة الأوقات والساعات وغيرها [1] . وله رسالة في معرفة القبلة لجهة الشحر وما قبلها ، وقـد نظمها فيما بعد في أرجوزة أولها :

الحمـد الله مـع التسليـ ـم ثم الصـلاة لـلنـبي الكـريم
وآلـ ـه ومن عني بصحـبته وبعـد ياطالب صوب قبـلتـه
في جهة الشحـر وما يقـارب قابل قرص الشمس وهو غائـب
وخط خطاً سمـت ظل الوقت وآخـر مـقطـعاً ذا الـسمت

(٢)

وهكذا نلاحظ مدى التقدم العلمي الذي شهدته منطقة الشحر وخاصـة في مجـال العلوم الشرعية وكان لذلك دوره الكبير أيضاً في التأثير على الحالة الاجتماعيـة للـسكان وعلى عاداتم وتقاليدهم .

---

(٨) سعيد عوض باوزير ، نفس المرجع ، ص١٣٨ ، محمد بن أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٣١٣ـ٣١٤ .

(١) الشلي ، المخطوطة السابقة ، ق٦٣٦ـ٦٣٧ .

الحالة الاجتماعية (عناصر السكان - العادات والتقاليد) :

أما عـن الحالة الاجتماعية بميناء الشحر، فقد كان معظم السكان ينتسبون إلى قبائل المهرة [1] ، هذا بالإضافة إلى عدد من الجاليات المختلفة التي وفدت عليها بغرض التجـارة ، فاختلطت بسكان الشحر ، مثل الحبشة والهند وفارس وغيرها [2] . ولعل هذا هو السبب في القول بعدم فصاحة أهل الشحر ، غير أن اختلاطهم بتلك الجاليـات لا ينفـي احتفـاظهم بعروبتهم وبلغتهم الأصلية .

وكان مجتمع جنوب غربي شبه الجزيرة العربية يتكون في مجموعه من عدة قبائل ، كل قبيلة تتكون من عدة عناصر ، وهم السادة والفقهاء والقضاة والنقباء والمشايخ وغيرهم [3] . وعلى الرغم من تمتع كل قبيلة من تلك القبائل باستقلالها في إدارة شؤو ا دون الرجوع إلى السلطة الحاكمة ، إلا أ م كانوا يتكاتفون معاً متى اقتضت الحاجة إلى ذالـك ، وخاصـة في مواجهة أي تدخل أجنبي يمكن أن يمس سيادتم [4] . والدليل على ذلك استعانة الـسلطان أبي طويرق بعناصر غير حضرمية في تكوين جيشه ، مثل يافع وبعض قبائل اليمن من الزيود وغيرهم لمواجهة الأخطار المحيطة م [5] .

ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أ م لم يتأثروا بالمظاهر الدخيلة على مجتمعهم . فقد ذكر أحد المؤرخين بأن الأقاليم الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، والتي كانت واقعة تحت

---

(١) عماد الدين القرمطي ، المصدر السابق ، ص١٤٠.

(٢) سعيد الأفغاني ، المرجع السابق ، ص٢٦٦.

(٣) السيد مصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص٢٤.

(٤) سعيد عوض باوزير ، المرجع السابق ، ص٩٤ .

(٥) نفس المرجع ، ص١٢٠ ـ ١٢١.

سيطرة العادات القبلية ، كانت تتكيف في بعض الأحيان مع قوانين الدخلاء والأجانب مثل : الفرس والمماليك والعثمانيين والبريطانيين [1] .

وهكذا فقد ظلت القبائل تسيطر على مقاليد الأمور في كل من الشحر وعدن ، بما يخدم مصالحهم ، حتى دخل الإنكليز البلاد فأحدثوا فيها تغييراً جذرياً بتحرير الميناءين من السيطرة القبلية [2] .

أما سلاطـين الشحر من آل كثير ، فقد كانت لهم الرئاسة والسيادة في عشائرهم وقبائلهم ، ومعظمهم كان متمسكاً بأداء الواجبات والسنن الدينية وملازمة الجماعة وحضور المجالس الخيرية والوعظية . إلا أن وحدة هذه الأسرة السلطانية وتماسكها كانت عرضة للأزمات السياسية ، فكثيراً ما كانت السلطنة الكثيرية تتعرض للمنافسة على الحكم من داخل الأسرة ذاتها من أخوة وأعمام وأبنائهم [3] ، وخير مثال على ذلك منافسة السلطان عبد الله بن بدر الكثيري لوالده على الحكم ، ومن ثم خلعه له ، وكذلك ثورة الأمير جعفر بن بدر الكثيري بالشحر على أخيه السلطان عبد الله الكثيري [4] . وهذه الخلافات هي أحد أهم الأسباب التي مهدت لسقوط الدولة الكثيرية فيما بعد .

أما المشيخة القبلية أو الرئاسة على القبيلة ويقال لصاحبها : مقدم ، فكانت بالترشيح ثم التعيين في مجلس رسمي يعقد لذلك ، حيث يتفق عقلاء القبيلة أو أعيانها علـى شـخص فيولونه هذه المشيخة ، ولكنها كانت تختص أحياناً ببيت من البيوتات أو بأفضلية الـسن . ومثل هذه الخطوات تتبع أيضاً في تولية المناصب الأخرى [5] .

---

(٦) آر.بي . سارجنت ، المرجع السابق ، ص١٣٠ ـ ١٣١ .

(١) آر . بي . سارجنت ، المرجع السابق ، ص ١٣١.

(٢) محمد أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٥٠ـ٢٥٢.

(٣) بافقيه المصدر السابق ،٣٩٢ ، محمد بن هاشم ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٦١ .

(٤) محمد أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص ٢٥٢.

(*) الحوف : جمع حافة ، بمعنى حارة وجمعها حارات . وقد تأسس نظام الحارات بحضرموت قبل منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عـشر الميلادي . انظر : محمد أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج ٢، ص٢٨٣ .

كما عرفت الشحر نظام الحوف [*] . حيث تقسم المدينة إلى عدة أحياء فيقوم شيوخ وفتيان كل حي بأعمال هامة تخص أحياءهم كالإسعافات والخدمات الاجتماعية مثل : إنقاذ الغريق وإطفاء الحرائق ، حمل الجنائز وتجهيز الأموات .. إلى غير ذلك من الأعمال الخيرية ، وأغلبها كانت دون مقابـل ، إذ كانت الغاية التي يهدف إليها هذا النظام غاية اجتماعيـة نبيلة بحتة [١]. وتتكون الشحر من عدة أحياء رئيسية ، من أهمها :

أ) حي القرية : وهو حي البحارة وصناع السفن وعمال الميناء .

ب) حي ا رف : وأكثر ساكنيه من الصيادين .

ج) حي الرملة : ويسكنه الصيادون .

د) حي الحور : وهو حي الأغنياء والتجار ، وقد تغير اسمه فيما بعد إلى حي الحوطة .

هـ) حي الرباط : أكثر منازله من الأكواخ الصغيرة المصنوعة من سعف النخيل وأغـصان الأشجار ، ويقطنه البدو وعمال إصطبلات الخيول [٢] .

ويلاحظ من تقسيم هذه الأحياء أنه كانت هناك تفرقة بين سكان الشحر كل حسب مهنته ومكانته الاجتماعية .

أما عن العادات والتقاليد في مدينة الشحر ، فمن المعروف أن لكـل طائفـة مـن الطوائف الحضرمية عادات وتقاليد وآداب تزاولها فيما يتعلق بلباسها وأشغالها وأفراحهـا . كما أن هناك تقاليد وعادات وآداب عامة يشترك فيها كل أبناء القطر الحضرمي ، وكـثير منها موروث ومأخوذ من الآداب الإسلامية والعربية ، ومن ذلك احترام كبار السن . فيدعو الصغير من هو أكبر منه سناً بيا عم أو بيا أب أو ياخال ويا أم أو يا خالـة أو بيـا عمـة . والكنية شائعة بينهـم كما هي شائعة عند العرب ، ومن ذلك أيضاً تقبيل الشبان والأطفال

---

(١) محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٨٣ـ٢٨٤ .

(٢) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص٥٦ .

لأيدي كبار العلماء وكبار السن كمظهر من مظاهر الاحترام عندهم ، كما يقبلون أيـدي آبائهم وأمهاتم [1] .

ومن العادات التي كانت متبعة في شهر رمضان المبارك أن الأطفال والشباب كـانوا يحملون المشاعل ليلاً ، ويطوفون ا خلال الديار ، وينشدون خلالها بعض الأشعار المتعلقـة ذه المناسبة الكريمة ، كما كانت الأسواق تقام إلى جانب المساجد التي يتم فيها ختم القرآن الكريم ، كما كانت موائد الإفطار تجمع بين الأقارب والجيران في هذا الشهر الكريم [2] .

أما حياة الأسرة في حضرموت فكانت حياة رضا وقناعة وترابط،فهم يجتمعون علـى مائدة واحدة في الوجبات الأصلية ، والعائلات الكبيرة تخصص مائدة للرجال وأخرى للنساء ، وهم يستيقظون باكراً ، وأكثرهم يقومون السحر (الربع الأخير من الليل لتلاوة القـرآن والتعبد) ، وكانت دراسة العلم في المساجد ، وقد تشارك النساء في تلك المهمة ، ومنهن من تكتفين بتربية أطفالهن على الطاعة والعبادة [3] . وهناك عادات سيئة منتـشرة بين القبائـل الحضرمية ، ومنها على سبيل المثال : العصبية القبلية ـ كما سبق وأن أشـرنا ـ وأيـضاً التنابز بالألقاب فكان لبعض المدن والقرى لقب مختص بأهلها يطّلق عليهم من قُبيل السخرية [4]. ومن ذلك إطلاقهم على أهالي الشحر لقب (اللبان) ، حيث يحكى أ م شاهدوا بعـيراً يمضغ لباناً ، فطلبوا منه أن يعطيهم قليلاً من اللبان ، ومن ثم ذهب اللبان لقباً لهم . ولكـن أهالي الشحر ردوا على تلك التهمة بأن ازدهار تجارة اللبان في أسواق الشحر القديمة هـو الذي ألصق م هذا اللقب ، ولهذا قيل من قبيل السخرية بأهالي الشحر :

اذهب إلى الشحر ودع عمـانا إن لم تجد تمراً تجـد لبانـاً [5]

---

(٣) محمد بن أحمد الشاطري ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢٩٢ .

(١) محمد بن أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٩٣ـ ٢٩٤ .

(٢) نفس المرجع ، ج٢ ، ص٢٧٩ـ ٢٨٠ .

(٣) نفسه ، ج٢ ، ص٢٩٥ .

(٤) عبد الله صالح حداد ، المرجع السابق ، ص٢٤٥ .

وقد عرف عن أهل الشحر طيبتهم وأمانتهم ، حيث وصف فان دي بروكه سكان الشحر ـ أثناء زيارته لمينائها ـ بأنهم طيبون وثقاة ومتعاونون وعلى خلق [1] كما أنهم يحبون مصادقة غيرهم ، ومتواضعون ذوو طبيعة هادئة ، ومؤمنون إيماناً ثابتاً برسالة النبيﷺ [2] .

وكذلك يمكننا القول بأن الحالة الاجتماعية في جنوب غربي شبة الجزيرة العربية ، قد تأثرت خلال تلك الفترة بالهجرات المتتالية لأبناء ذلك القطر ، ولقد استمرت هجرات الحضارمة منذ القدم ، وحتى أثناء ظهور الإسلام ، إلا أنها انكمشت بعد ذلك بسبب انشغالهم بالحروب والفتن الداخلية . وعندما استقرت الأمور لديهم ازدهرت الزراعة ونشطت الأسواق ، ومن ثم زادت أرباحهم وثرواتهم ، فاتجهت أنظارهم إلى الهجرة من جديد ، حيث كان لهم طموح كبير في توسيع تجارتهم ، فأخذوا يهاجرون أفراداً وجماعات [3] .

كما أن ظروف البيئة الصعبة ، وخاصة في أوقات الجفاف ، وقلة إنتاج الأراضي في حضرموت [4] ، كانت من أهم الأسباب التي أجبرت الأهالي على الهجرة إلى ما وراء البحار نحو الهند وجاوه ، والحبشة وسواحل شرقي أفريقيا للبحث عن مصدر رزق لهم [5] ، كما دفعت هذه الأحوال الحضارمة أيضاً إلى الاشتغال بحرفة التجارة والملاحة وخاصة في مياه المحيط الهندي [6] . وكان ميناء الشحر من أهم الموانئ التي انطلقت منها مثل تلك الهجرات منذ القدم [7] ومن ثم كان لتلك الهجرات آثارها السلبية والايجابية على الأوضاع الاجتماعية في تلك البلاد فمن حيث آثارها السلبية ، يمكن القول بأن قيام مثل هذه الهجرات وبأعداد

---

(٥) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص٦١ .

(٦) جاكلين بيرين ، المرجع السابق ، ص٧٩ .

(١) خالد سالم باوزير ، المرجع السابق ، ص٧٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص٦٩ .

(٣) صالح الحامد ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٦٤٣ .

(٤) محمد أبو بكر حميد ، المرجع السابق ، ص٨٥ .

(٥) خالد سالم باوزير ، نفس المرجع ، ص٦٨ .

كبيرة أحدث فراغاً كبيراً داخل ا تمع الحضرمي ، فبقـدر ما كانت هجرتم نعمة عليهم ، كانت نقمة على بلادهم وأسرهم ، إذ خلت ديارهم من أكثر سكا ا (١) .

فإن هجرة الآباء إلى المهاجر مع بقاء عائلاتم في حضرموت ، جعل هذه الأسر تعيش حياة صعبة في مجتمع كا تمع الحضرمي ، الذي يعطي للرجل قيمة وأهمية كبرى في تـسيير شؤون الأسرة (٢) . إضافة إلى اعتماد غالبية السكان على المساعدات المالية ، التي يرسـلها لهم أقار م المهاجرون ، والتي أدت إلى انتشار روح الاتكالية والاعتماد على الهجرة في تحقيق المكاسب الاقتصادية ، ومن ثم إلى انتشار البطالة بين أفراد ا تمع (٣) .

أما من حيث الآثار الإيجابية لهذه الهجرات ، فقد كان عرب الجنوب المهـاجرين إلى الشرق الأقصى غالباً ما يعملون في تجارتم البحرية ، وفي الوقت ذاته يظلون متصلين بوطنهم الأصلي عن طريق إرسال أولادهم الصغار إلى حضرموت ، ليحيوا فيهـا الحيـاة العربيـة الأصيلة ، ولينشئوا على مبادئ الدين الإسلامي ، ثم يعودون بعد ذلك إلى المهجـر دون أن يتأثروا بعادات وتقاليد البلاد الجديدة ، ودون أن ينسوا وطنهم الأصلي (٤) . كما كان لهـم دورهم الكبير والمهم في نشر تعاليم وعلوم الدين الإسلامي في البلاد التي كانوا يهـاجرون إليها ، وقد أشار أحد المؤرخين إلى براعة الحضارمة في التجارة ، ودورهم الكـبير في نـشر تعاليم الدين الإسلامي حيث قال : (كان أهل حضرموت رحالة وتجاراً عظاما .... ولقد نشر هؤلاء النازلون في الدور الشامخة الإسلام في الملايو وجاوا والفلبين) (٥) .

ومن خلال هذا العرض لأهم المظاهر الحضارية التي شهدتا منطقة الشحر وميناؤهـا خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، والتي شـاركت في سـرعة التطـور الحضاري لتلك المنطقة ، يمكن القول بأن تلك المظاهر أسهمت إلى حد كبير في جعل مدينة

---

(٦) نفس المرجع ، ص٨٠ .

(٧) نفس المرجع ، ص٨١ .

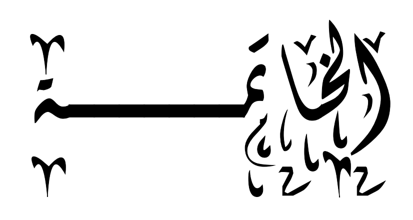
(٨) نفسه ، ص٨١ـ٨٢ .

(١) جاد طه ، المرجع السابق ، ص١٤ـ١٥ .

(٢) حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص١٨٣ .

الشحر من كبرى المدن الحضرمية ، كما أصبح ميناؤها من أهم الموانئ التجارية ـ آنـذاك ـ في سواحل جنوب غربي شبة الجزيرة العربية .




الخاتمة

رأينا في الدراسة السابقة أهمية الموقع الاستراتيجي لمنطقة جنوب غربي شبه الجزيـرة العربية الذي أكسبها مكانة عالمية منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر نظراً لتعدد الموانئ التجارية في كلٍ من البحر الأحمر غرباً وخليـج عدن وبحر العرب جنوباً . الأمر الـذي أسـهم في ازدهار الحركة التجارية فيها .

وقد أوضحت الدراسة أن ميناء الشحر كان يعد آنذاك من أهم الموانئ الواقعة على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، نظراً للموقع الجغرافي الذي يحتله هذا المينـاء مـن الناحية الجغرافية ، فهو يشرف على بحر العرب ، ذلك المعبر المائي الذي يتحكم في مجموعـة من الممرات المائية الاستراتيجية . وكذلك يشرف من خلال بحر العرب على المحيط الهنـدي حيث خطوط التجارة القديمة بين الهند والشرق الأقصى ، إضافة إلى كونه ميناء عبور تمر به السفن المتجهة إلى الموانئ الأخرى .

كما شرحت الدراسـة اختلاف المؤرخين حول نسبة الشحر إلى عمان أو حضرموت ، إلا أنه واستناداً إلى ماورد عن المؤرخين السابقين فقد أثبتت الدراسة أن الشحر تضاف إلى حضرموت وليس إلى عمان .

كما أعطت الدراسة نبذة مختصرة عن ميناء عدن على اعتبار أنه من أهـم المـوانئ التجارية على ساحل جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، إضافة إلى ارتباط الأحداث التاريخية فيما بعد بالتعرض لهذا الميناء .

وقد بينت الدراسة التأثير الكبير الذي نتج عن سوء الأوضاع السياسية تمع جنوب غرب شبه الجزيرة العربية من انتشار الفتن والاضطرابات الداخلية ، وكيـف أن تعاقـب السلطات السياسية على منطقة الشحر إنما يدل على مدى أهميتها الاستراتيجية والتي جعلت منها مجالاً للتنافس الداخلي للاستقلال بحكمها .

وناقشت الدراسة أيضاً مدى تأثير الموقع الاستراتيجي المتميز لجنوب غـرب شـبه الجزيرة العربية على الأوضاع الاقتصادية لميناء الشحر ، إذ إنه كان يعد آنذاك مـن أكـبر

المراكز التجارية في السواحل الشرقية الحضرمية ، فكانت الشحر بمثابة السوق الذي يتم عن طريقها عملية التبادل التجاري في البيع والشراء ، وأن تلك الأهمية الاقتصادية لم تكن حديثة العهد بالشحر ، بل كانت تعود بجذورها إلى فترات قديمة .

كما أوضحت الدراسة تأثر الأوضاع الاجتماعية في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية بسير الأوضاع السياسية ، والتي كانت متمثلة آنذاك في النظام القبلي . إذ أن انفراد كل قبيلة بشؤون الحكم دون الرجوع إلى السلطة العليا الحاكمة كان له آثاره السلبية في تدهور أحوال البلاد،حيث كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار الفتن والاضطرابات الداخلية ، وكيف أن ذلك – ومازال – من أهم العوامل التي تؤدي إلى سقوط معظم الدول . يقول المولى عز وجل في محكم تنزيله : (وإذا جآءهم أمر من الأمنِ أو الخوف أذاعواْ به ولو ردوه إلى الرسولِ وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولاَ فضلُ الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطانَ إلا قليلاً) (سورة النساء ، آية : ٨٣) .

وعلى الرغم من ذلك فقد أوضحت الدراسة بأن كون مجتمع جنوب غربي شبه الجزيرة العربية مجتمعاً قبلياً،إلا أن ذلك لا يمنع من القول أن أفراد ذلك المجتمع كانوا يتكاتفون معاً لمواجهة أي خطر خارجي يهدد أمنهم واستقرارهم .

كما أن الاختلاف المذهبي بين أنحاء جنوب شبه الجزيرة العربية كان له دوره الكبير في التأثير على سير الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تلك الأنحاء ، وكان سكان الشحر يدينون بالمذهب السني ، كما كان لهم دور كبير في نشر تعاليم الدين الإسلامي في مختلف الأقطار التي هاجروا إليها للتجارة .كذلك كانت لهجرة الحضارمة من أهالي الشحر دور كبير في تطوير الناحية الثقافية في بلادهم .

وشرح البحث كيف أن الدافع الديني كان من أهم دوافع الاستعمار الصليبي الأوروبي ، والتي تمثلت أولاً في الحروب الصليبية ، ومن ثم تخفت في حركة الكشوف الجغرافية ، حيث كان ولا يزال هدفهم الأول و الحقيقي هو تحويل المسلمين إلى الديانة النصرانية ، ومما شجعهم على ذلك :

أ) دعم البابوية لحركة الكشوف الجغرافية من أجل مواجهة الإسلام وصده عن أوروبا .

ب) تكوين حلف صليبي ضد العثمانيين للحد من خطرهم على أوروبا ، خوفاً من انتشار الإسلام .

وقد تمثلت تلك الروح الصليبية الحاقدة في ثلاث شخصيات : (هنري الملاح ، فاسكودي جاما . والبوكيرك) نظراً للعداء المرير الذي ظهر من خلال تصرفاتهم ومعاملتهم القاسية للمسلمين في أثناء رحلاتهم الاستكشافية .

وتبين الدراسة أن الدافع الاستراتيجي أسهم في دفع حركة الكشوف الجغرافية وخاصة البرتغالية ، وأن من بين أهم العوامل التي دفعت البرتغاليين إلى قيامهم بتلك الكشوف :

أ) الموقع الجغرافي للبرتغال .

ب) سيطرة البندقية على عملية نقل السلع الشرقية إلى أوروبا .

ج) احتكار المماليك لتجارة الشرق الغنية وخاصة التوابل ، وتحكمهم في أسعارها .

د) ظهور الدولة العثمانية كدولة قوية تمثل خطراً كبيراً على تحركات الأوروبيين .

هـ) إضافة إلى هدفهم الرئيسي ألا وهو القضاء على الإسلام والمسلمين بضرب اقتصادهم .

وقد أوضحت الدراسة بأن من أهم نتائج تلك الرحلات الجغرافية اكتشاف رأس الرجاء الصالح بقيادة بارثلميودياز ، ومن ثم وصول البرتغاليين إلى بلاد الهند عن طريقه على يد فاسكودي جاما ، الأمر الذي كان فيه بداية سيطرتهم على تجارة الشرق .

كما فندت الدراسة الآراء والشبهات التي أحاطت بقصة إرشاد أحمد بن ماجد لفاسكودي جاما ، وضعف رواية النهروالي حول صحة ذلك الزعم . ومن أهم الدلالات التي اعتمد عليها معظم المؤرخين بطلان اتهام النهروالي لابن ماجد بتهمة السكر ، حيث أثبتت الدراسة أنه كان رجلاً متديناً ، كما أنه من غير المعقول أن يعتمد دي جاما على مرشد أو دليلٍ وهو في حالة سكر وفقدان للوعي .

ومن أهم النتائج التي أسفر عنها اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح :

١) أنها أصبحت وسيطة التجارة بين الشرق والغرب،ومن ثم التخلص من الرسوم الجمركية المملوكية .

٢) تدهور الاقتصاد المملوكي :

٣) سعي البرتغاليين للسيطرة على منافذ التجارة الشرقية في كلٍ من الخليج العربي والبحر الأحمر .

وقد حققت البرتغال هدفها في الخليج العربي بالسيطرة على هرمز (مفتاح الخليج العربي) . إلا أنها فشلت في بسط نفوذها على البحر الأحمر لتصدي السفن المملوكية ومن ثم العثمانية لها ، والحفاظ عليه كبحيرة إسلامية . كما فشلت في السيطرة على عدن الواقعة على البحر الأحمر نتيجة لحصانتها وكفاح أهلها المستميت عنها . وقد كان لتلك الأحداث أثرها في تغيير سياسية المماليك في مواجهة البرتغاليين ، حيث اضطر السلطان المملوكي (قانصوه الغوري) إلى طلب معونة العثمانيين ضد البرتغاليين ، خاصة بعد رفض البندقية طلب السلطان المملوكي مساعدتم ضد الخطر البرتغالي . إضافة إلى إدراكه مدى خطورة تحالف الشاه إسماعيل الصفوي ضد المماليك . كما ظهر من خلال الوثيقة التي احتوت على رسالة أحد القادة البرتغاليين إلى ملك البرتغال عام (٩١٨هـ/١٥١٢م) . بأن السلطات البرتغالية كانت على علم بخطط السلطان الغوري ضد قوة البرتغاليين في الشرق .

وهكذا كان لزاماً على الدولة العثمانية أن تفرض تدخلها في شؤون الشرق ، خاصة بعد التدهور الذي أصاب الدولة المملوكية ، حرصاً منها على الحفاظ على سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة .

ومن النتائج المهمة التي توصل إليها البحث أن المكاسب الاقتصادية التي حققها البرتغاليون ، نتيجة لسيطرتم على مقاليد التجارة الشرقية ، وكذلك اتساع عمليات تصدير الفضة والذهب إلى أوروبا ، كان من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الثورة الصناعية في أوروبا ، خاصة بعد أن أصبحت لشبونة هي المستودع أو المخزن الرئيسي لتلك التجارة .

وقد أثبتت الدراسة أن تجارة الشرق أصبحت حكراً على الحكومة البرتغالية من خلال فرض سيطرتها على مصادر تلك التجارة ، وإخضاعها للرقابة البرتغالية المشددة . ولكن ما علاقة ذلك كله بظهور الثورة الصناعية في أوروبا ؟ ومن ثم اعتبارها دافعاً من دوافع الغزو الاستعماري ؟! .

هذا ما أوضحته الدراسة من حيث أن النتائج والآثار الاقتصادية المترتبة على ذلك الانتعاش الاقتصادي ، كان لها تأثيرها الإيجابي بدون شك على زيادة إرسال البعثات الاستكشافية، نتيجة لتوفر تلك الموارد الضخمة ، ومن ثم توفير كل ما تحتاجه تلك البعثات . وكان لذلك أيضاً آثاره السيئة على المجتمع الأوروبي ، حيث أدى ذلك الانتعاش إلى ارتفاع تكاليف المعيشة ، ومن ثم ظهور التفاوت الاقتصادي بين أفراد المجتمع الأوروبي ، وأطلق على ذلك العصر (عصر الإقطاع) الذي ساد أنحاء أوروبا آنذاك . ومن ثم شهدت دول غرب أوروبا هجرة الآلاف من رعاياها إلى الأقاليم المكتشفة بحثاً عن مصادر رزق جديدة لهم ، أو هرباً من الظلم الاجتماعي .

ولاشك أن تلك الدوافع كانت قد ألقت الضوء على أهم الأسباب التي دفعت البرتغاليين إلى غزو موانئ جنوب غربي شبه الجزيرة العربية ، وخاصة ميناء الشحر موضوع الدراسة ، فقد أدرك البرتغاليون أن سيطرتهم على تجارة الهند المارة بالخليج العربي والبحر الأحمر لن تتحقق لهم إلا بالسيطرة على موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم تعرضت تلك الموانئ للغارات البرتغالية المستمرة ، والتي ألحقت بها الخراب والدمار .

وبينت الدراسة أن ميناء الشحر المتحكم في الطريق البحري بين الخليج العربي والبحر الأحمر كان يخضع آنذاك لحكم سلاطين بني كثير ، وعلى رأسهم السلطان بدر الكثيري (أبو طويرق) . وقد تعرض ذلك الميناء للهجوم البرتغالي المتكرر ، وكان أول هجوم منظم وقوي في عام (٩٢٩هـ/١٥٢٣م) ، غير أنهم فشلوا في احتلاله . وناقش البحث قضية موقف أهالي الشحر من ذلك الهجوم ، إذ إنهم لم يتخذوا موقفاً دفاعياً في بادئ الأمر ، فكان ذلك سبباً في اتهام بعض المؤرخين لهم بالتخاذل والهزيمة .غير أن البعض الآخر أرجع ذلك إلى اعتقاد الشحريين بأن تلك السفن البرتغالية إنما قدمت لأغراض سلمية

كالتجارة مثلاً ، وليس بهدف الحرب والقتال . والمهم في الموضوع أن أهالي الشحر وخاصة علماءهم وفقهاءهم تصدوا فيما بعد لذلك الهجوم ، ونجحوا في تحقيق هدفهم . كما أن البرتغاليين لم يعاودوا الهجوم على ميناء الشحر بشكل قوي بعد ذلك ، بل اكتفوا بإرسال حملات صغيرة تطبيقاً لسياستهم الجديدة ، وهي الاحتكاك المباشر بسكان الشحر ، بهدف جمع أكبر قدر من المعلومات الجغرافية عنه وعن الأوضاع السياسية السائدة في تلك المنطقة ، ومراقبة التحركات العثمانية البحرية في موانئ شبه جنوب الجزيرة العربية ، هذا بالإضافة إلى المكاسب الاقتصادية التي حققوها من خلال سلبهم و نهبهم للسفن والمراكب العربية المارة بذلك الميناء .

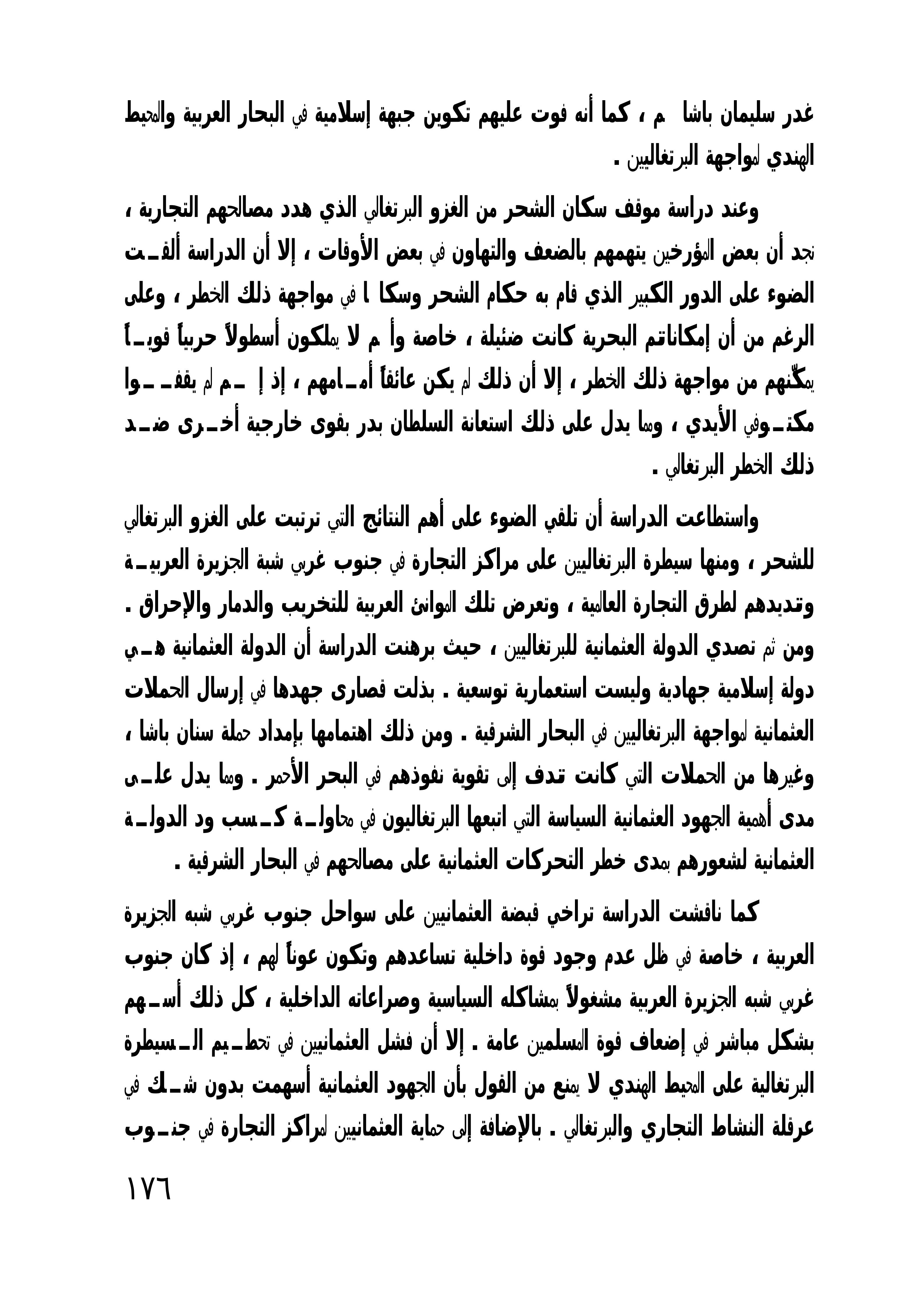
ولم تتعرض الشحر لهجوم قوي إلا عام (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) مما يدل على حرص البرتغاليين على احتلال الميناء وأهميته الاستراتيجية بالنسبة لهم ، تحقيقاً لأطماعهم الدينية في الوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة ، ونشر النصرانية بين المسلمين ، إضافة إلى تحقيق أطماعهم الاقتصادية . غير أن الفشل كان حليفهم مرة أخرى ، مما يثبت مدى حصانة هذا الميناء وتصدي سكانه لهذا الخطر . وكان من أهم النتائج التي أسفر عنها هذا الهجوم اضطرار البرتغاليين إلى طلب الصلح من السلطان بدر الكثيري لوقوع معظم سفنهم في يد السلطان ، وكثرة عدد قتلاهم ووقوع معظمهم في الأسر ، حيث أرسل السلطان بدر عدداً منهم إلى السلطان العثماني سليمان القانوني لكسب وده والاستعانة به فيما بعد لصد الخطر البرتغالي .

كما تحدثت الدراسة عن الجهود التي بذلها السلطان بدر في سبيل إقامة دولة كثيرية قوية في حضرموت . وكيف عمل جاهداً على توحيد أركان دولته ، والقضاء على الفتن والثورات الداخلية سواءً من القبائل المجاورة له ، أو من أفراد الأسرة الكثيرية ذاتها للتنافس على الحكم . ومن ثم أثبتت الدراسة بأن الشحر لم تكن عرضة للخطر البرتغالي فحسب ، بل كانت عرضة أيضاً للأطماع الداخلية فيها ، وقد أرجع بعض المؤرخين أسباب تلك الثورات على السلطان بدر إلى عوامل عدة من أهمها :

اعتماد السلطان في تشكيل جيشه الجديد على عناصر غير حضرمية كالأفارقة وبعض من قبائل اليمن وغيرهم ، وعزا بعض المؤرخين ذلك إلى تخاذل جنده مـن الحـضارم ، وأن القوى التي لديه كانت غير كافية لحل المشاكل السياسية المحيطة به .

كما ناقشت الدراسة موقف المؤرخين من عزل السلطان بدر من قبل ابنه الـسلطان عبد الله الكثيري ، حيث أرجع بعضهم ذلك إلى عدم اهتمام السلطان بدر بتوسـيع نطـاق ملكه ، واعترافه بطاعة العثمانيين . إلا أن ذلك الاعتراف بالولاء والطاعة كان اعترافاً اسمياً فقط ، فهو لم يؤثر على استقلال الدولة الكثيرية . كما أن العثمانيون لم يتدخلوا في شـؤو ا الداخلية . وبرهنت الدراسة على العلاقات الودية بين السلطان العثماني سـليمان القـانوني وبين السلطان بدر الكثيري من خلال المراسلات والبعثات العثمانية إلى الشحر ، واعتراف العثمانيين بولاء وطاعة السلطان بدر ، ومما يدل على عمق تلك العلاقة أن السطان بدر أمر بأن يخطب في المساجد باسم السلطان سليمان القانوني ، وكانت تلك أول خطبة للعثمانيين في الشحر .

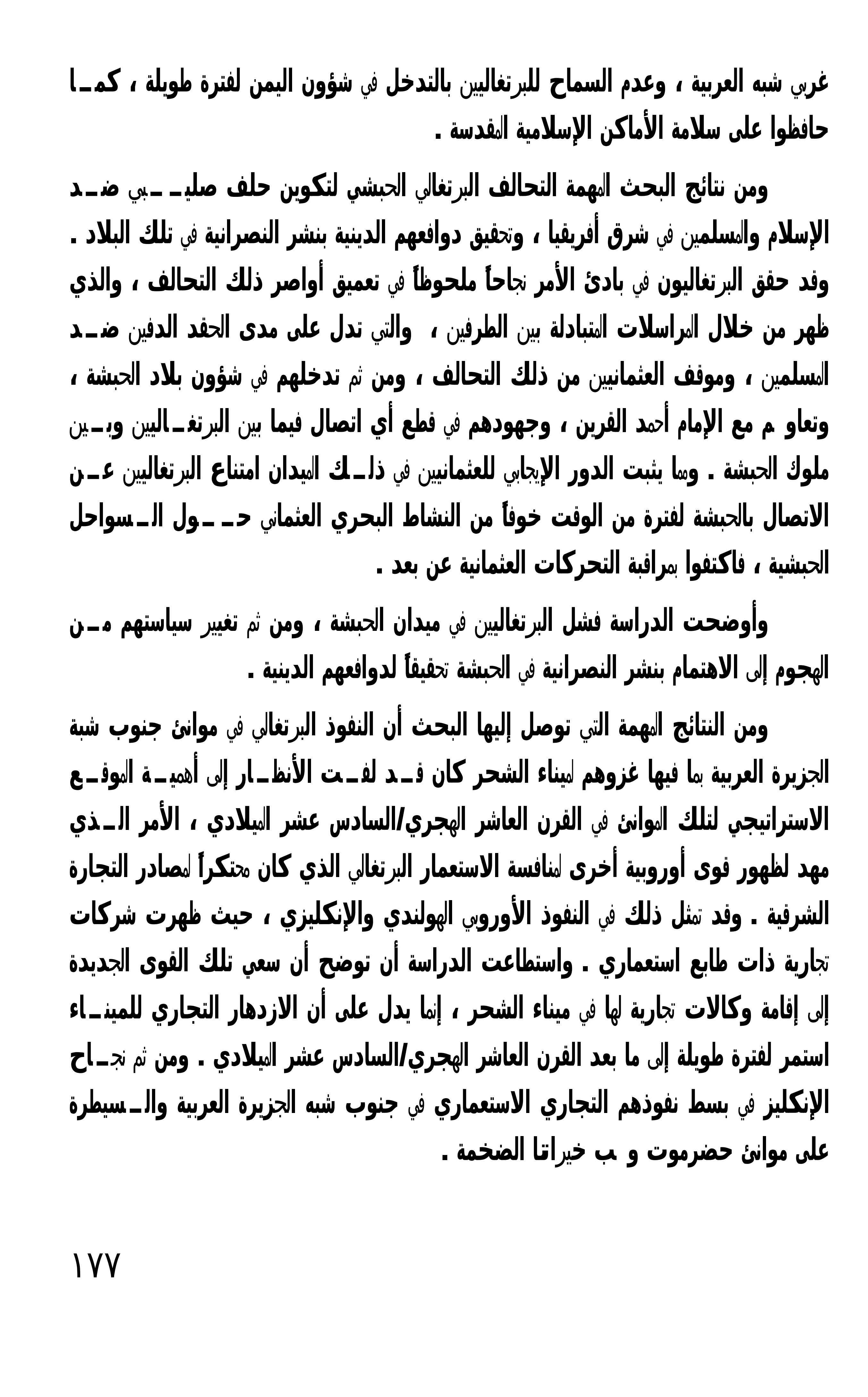
وشرحت الدراسة أن سوء الأوضاع الداخلية والصراعات المستمرة على الـسلطة كانت تعيق التكاتف والتوحد لمواجهة الخطر البرتغالي المتزايد ، وهذا مايبرر لجوء الـسلطان بدر إلى طلب مساعدة العثمانيين ، وقد أثبتت الوقائع بأنه لم يكن مخطئاً في سياسته تلك ، إذ إن المنطقة كانت في حاجة إلى قوة عظمى تساعده وتمد يد العون للبلاد . وبالنسبة لموقـف العثمانيين من ذلك الطلب ، فقد كان لزاماً عليهم أن يستجيبوا لـه ، إذ إن تدخلـهم في شؤون جنوب شبه الجزيرة العربية ، كان معناه امتلاكهم لقواعـد اسـتراتيجية في تلـك السواحل تمكنهم من مواجهة الخطر البرتغالي ، كما تمكنهم من حماية حدود دولتـهم مـن ناحية الجنوب ، ومن ثم حفاظهم على سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة . وفي هـذا كـان الدافع الحقيقي من وراء إرسال حملة سليمان باشا ، التي تعتبر أول حملة عثمانية رئيسية . غير أن تلك الحملة كان لها نتائج سلبية فيما يخص عدن ، إذ إن التصرف السيئ لقائد الحملة مع حاكم عدن (عامر بن داؤد الطاهري) وقتله غدراً ،كان له آثاره السيئة على بقية المنـاطق المحيطة ا ، وخاصة (ديو) فقد ضيع على العثمانيين فرصة فتح هذه القلعة الحصينة خوفاً من


غدر سليمان باشا م ، كما أنه فوت عليهم تكوين جبهة إسلامية في البحار العربية والمحيط الهندي لمواجهة البرتغاليين .

وعند دراسة موقف سكان الشحر من الغزو البرتغالي الذي هدد مصالحهم التجارية ، نجد أن بعض المؤرخين يتهمهم بالضعف والتهاون في بعض الأوقات ، إلا أن الدراسة ألقت الضوء على الدور الكبير الذي قام به حكام الشحر وسكانها في مواجهة ذلك الخطر ، وعلى الرغم من أن إمكاناتم البحرية كانت ضئيلة ، خاصة وأنهم لا يملكون أسطولاً حربياً قوياً يمكّنهم من مواجهة ذلك الخطر ، إلا أن ذلك لم يكن عائقاً أمامهم ، إذ إنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي ، ومما يدل على ذلك استعانة السلطان بدر بقوى خارجية أخرى ضد ذلك الخطر البرتغالي .

واستطاعت الدراسة أن تلقي الضوء على أهم النتائج التي ترتبت على الغزو البرتغالي للشحر ، ومنها سيطرة البرتغاليين على مراكز التجارة في جنوب غربي شبة الجزيرة العربية وتديدهم لطرق التجارة العالمية ، وتعرض تلك الموانئ العربية للتخريب والدمار والإحراق . ومن ثم تصدي الدولة العثمانية للبرتغاليين ، حيث برهنت الدراسة أن الدولة العثمانية هي دولة إسلامية جهادية وليست استعمارية توسعية . بذلت قصارى جهدها في إرسال الحملات العثمانية لمواجهة البرتغاليين في البحار الشرقية . ومن ذلك اهتمامها بإمداد حملة سنان باشا ، وغيرها من الحملات التي كانت تدف إلى تقوية نفوذهم في البحر الأحمر . ومما يدل على مدى أهمية الجهود العثمانية السياسة التي اتبعها البرتغاليون في محاولة كسب ود الدولة العثمانية لشعورهم بمدى خطر التحركات العثمانية على مصالحهم في البحار الشرقية .

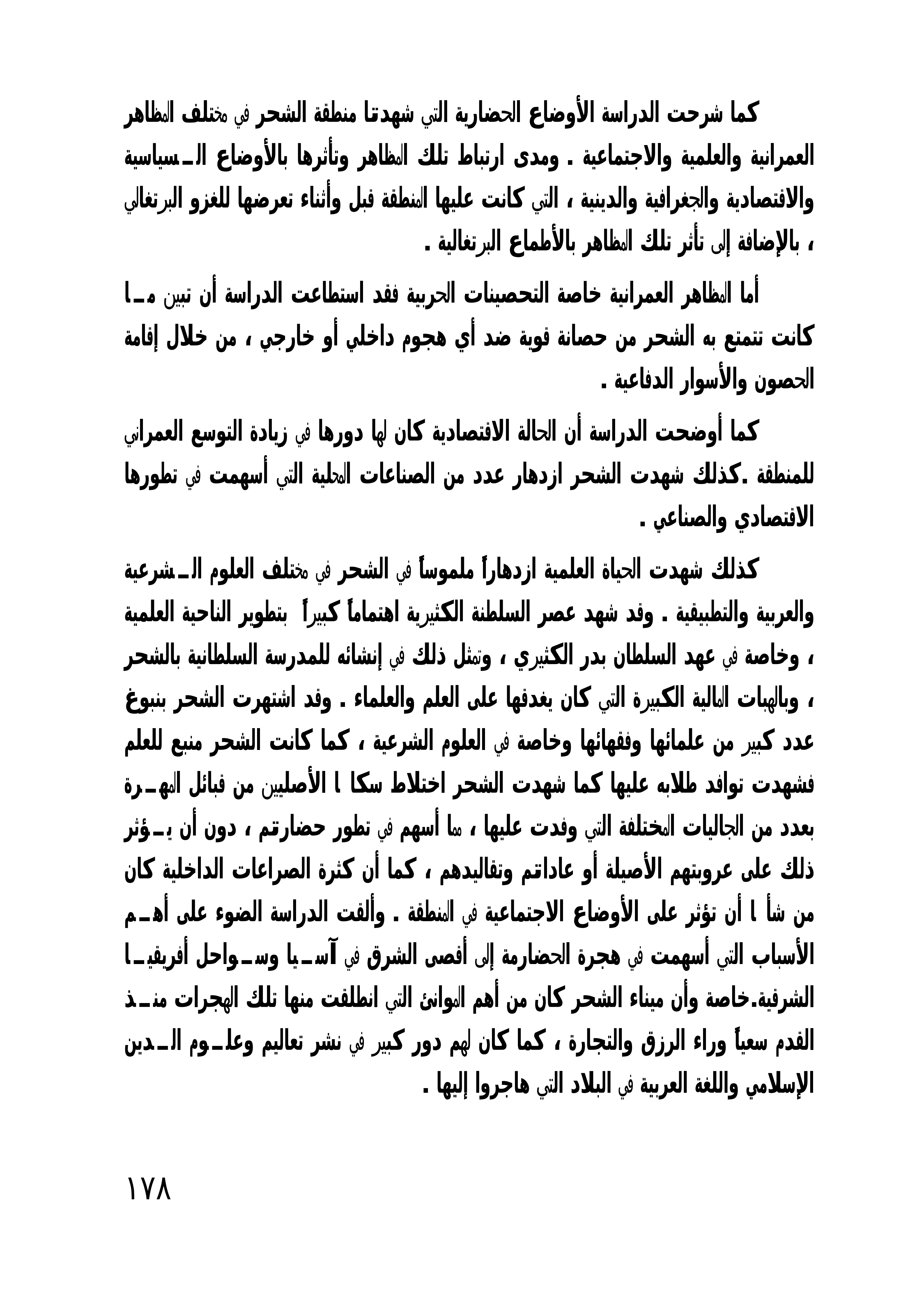
كما ناقشت الدراسة تراخي قبضة العثمانيين على سواحل جنوب غربي شبه الجزيرة العربية ، خاصة في ظل عدم وجود قوة داخلية تساعدهم وتكون عوناً لهم ، إذ كان جنوب غربي شبه الجزيرة العربية مشغولاً بمشاكله السياسية وصراعاته الداخلية ، كل ذلك أسهم بشكل مباشر في إضعاف قوة المسلمين عامة . إلا أن فشل العثمانيين في تحطيم السيطرة البرتغالية على المحيط الهندي لا يمنع من القول بأن الجهود العثمانية أسهمت بدون شك في عرقلة النشاط التجاري والبرتغالي . بالإضافة إلى حماية العثمانيين لمراكز التجارة في جنوب


غربي شبه العربية ، وعدم السماح للبرتغاليين بالتدخل في شؤون اليمن لفترة طويلة ، كما حافظوا على سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة .

ومن نتائج البحث المهمة التحالف البرتغالي الحبشي لتكوين حلف صليبي ضد الإسلام والمسلمين في شرق أفريقيا ، وتحقيق دوافعهم الدينية بنشر النصرانية في تلك البلاد . وقد حقق البرتغاليون في بادئ الأمر نجاحاً ملحوظاً في تعميق أواصر ذلك التحالف ، والذي ظهر من خلال المراسلات المتبادلة بين الطرفين ، والتي تدل على مدى الحقد الدفين ضد المسلمين ، وموقف العثمانيين من ذلك التحالف ، ومن ثم تدخلهم في شؤون بلاد الحبشة ، وتعاونهم مع الإمام أحمد القرين ، وجهودهم في قطع أي اتصال فيما بين البرتغاليين وبين ملوك الحبشة . ومما يثبت الدور الإيجابي للعثمانيين في ذلك الميدان امتناع البرتغاليين عن الاتصال بالحبشة لفترة من الوقت خوفاً من النشاط البحري العثماني حول السواحل الحبشية ، فاكتفوا بمراقبة التحركات العثمانية عن بعد .

وأوضحت الدراسة فشل البرتغاليين في ميدان الحبشة ، ومن ثم تغيير سياستهم من الهجوم إلى الاهتمام بنشر النصرانية في الحبشة تحقيقاً لدوافعهم الدينية .

ومن النتائج المهمة التي توصل إليها البحث أن النفوذ البرتغالي في موانئ جنوب شبة الجزيرة العربية بما فيها غزوهم لميناء الشحر كان قد لفت الأنظار إلى أهمية الموقع الاستراتيجي لتلك الموانئ في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، الأمر الذي مهد لظهور قوى أوروبية أخرى لمنافسة الاستعمار البرتغالي الذي كان محتكراً لمصادر التجارة الشرقية . وقد تمثل ذلك في النفوذ الأوروبي الهولندي والإنكليزي ، حيث ظهرت شركات تجارية ذات طابع استعماري . واستطاعت الدراسة أن توضح أن سعي تلك القوى الجديدة إلى إقامة وكالات تجارية لها في ميناء الشحر ، إنما يدل على أن الازدهار التجاري للميناء استمر لفترة طويلة إلى ما بعد القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي . ومن ثم نجاح الإنكليز في بسط نفوذهم التجاري الاستعماري في جنوب شبه الجزيرة العربية والسيطرة على موانئ حضرموت ونهب خيراتها الضخمة .

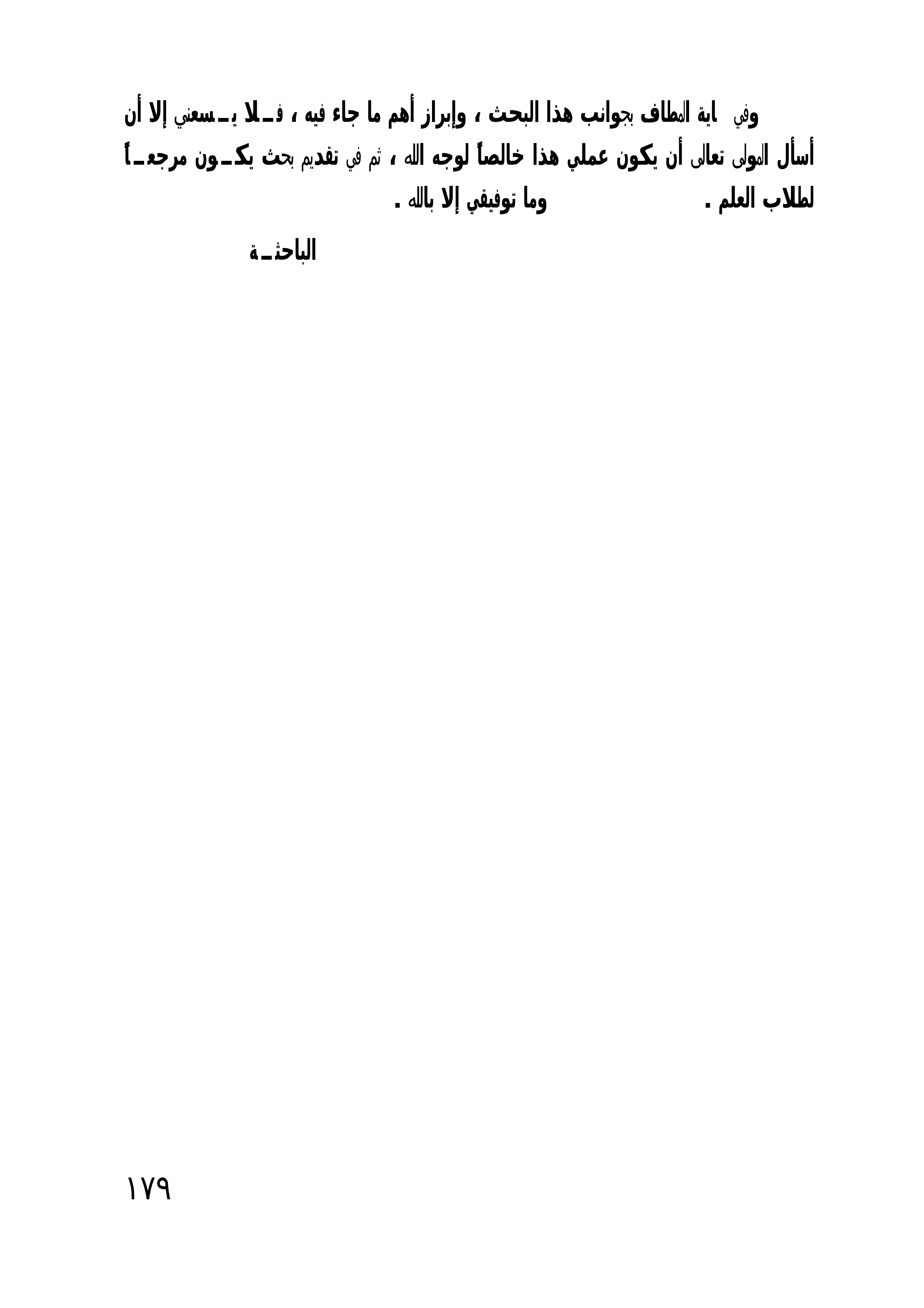


كما شرحت الدراسة الأوضاع الحضارية التي شهدتا منطقة الشحر في مختلف المظاهر العمرانية والعلمية والاجتماعية . ومدى ارتباط تلك المظاهر وتأثرها بالأوضاع السياسية والاقتصادية والجغرافية والدينية ، التي كانت عليها المنطقة قبل وأثناء تعرضها للغزو البرتغالي ، بالإضافة إلى تأثر تلك المظاهر بالأطماع البرتغالية .

أما المظاهر العمرانية خاصة التحصينات الحربية فقد استطاعت الدراسة أن تبين ما كانت تتمتع به الشحر من حصانة قوية ضد أي هجوم داخلي أو خارجي ، من خلال إقامة الحصون والأسوار الدفاعية .

كما أوضحت الدراسة أن الحالة الاقتصادية كان لها دورها في زيادة التوسع العمراني للمنطقة .كذلك شهدت الشحر ازدهار عدد من الصناعات المحلية التي أسهمت في تطورها الاقتصادي والصناعي .

كذلك شهدت الحياة العلمية ازدهاراً ملموساً في الشحر في مختلف العلوم الشرعية والعربية والتطبيقية . وقد شهد عصر السلطنة الكثيرية اهتماماً كبيراً بتطوير الناحية العلمية ، وخاصة في عهد السلطان بدر الكثيري ، وتمثل ذلك في إنشائه للمدرسة السلطانية بالشحر ، وبالهبات المالية الكبيرة التي كان يغدقها على العلم والعلماء . وقد اشتهرت الشحر بنبوغ عدد كبير من علمائها وفقهائها وخاصة في العلوم الشرعية ، كما كانت الشحر منبع للعلم فشهدت توافد طلابه عليها كما شهدت الشحر اختلاط سكانها الأصليين من قبائل المهرة بعدد من الجاليات المختلفة التي وفدت عليها ، مما أسهم في تطور حضارتهم ، دون أن يؤثر ذلك على عروبتهم الأصيلة أو عاداتهم وتقاليدهم ، كما أن كثرة الصراعات الداخلية كان من شأنها أن تؤثر على الأوضاع الاجتماعية في المنطقة . وألقت الدراسة الضوء على أهم الأسباب التي أسهمت في هجرة الحضارمة إلى أقصى الشرق في آسيا وسواحل أفريقيا الشرقية.خاصة وأن ميناء الشحر كان من أهم الموانئ التي انطلقت منها تلك الهجرات منذ القدم سعياً وراء الرزق والتجارة ، كما كان لهم دور كبير في نشر تعاليم وعلوم الدين الإسلامي واللغة العربية في البلاد التي هاجروا إليها .



وفي نهاية المطاف بجوانب هذا البحث ، وإبراز أهم ما جاء فيه ، فــلا يــسعني إلا أن أسأل المولى تعالى أن يكون عملي هذا خالصاً لوجه الله ، ثم في تقديم بحث يكــون مرجعــاً لطلاب العلم . وما توفيقي إلا بالله .

الباحثــة

المصادر والمراجع

١) الوثـائق :

أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول :

* وثيقة رقم ٢١٠٠ من دفتر المهمة رقم٧ ، حكم صادر من الباب العالي بتاريخ ٩٧٥هـ ـ ١٥٦٧م .

* رسالة السلطان سليمان القانوني إلى الملك البرتغالي D.joao الثالث عام ٩٥١هـ/١٥٤٤م .

مركز الوثائق والدراسات – أبوظبي :

* رسالة المبعوث الحبشي إلى ملك البرتغال عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م .

الوثائق المستخرجة من مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة عين شمس بالقاهرة :

*** خطاب مرسل من حكام الثغور البرتغالية في الشرق الأفريقي والخليج العربي إلى نائب حاكم الهند بتاريخ ٩٢٤هـ/١٥١٨م .**

* رسالة مرسلة من القائد البرتغالي أندري دوامرال إلى ملك البرتغال ، بتاريخ ٩١٨هـ/١٥١٢م .

* رسالة مرسلة من ملك كوشن إلى الملك البرتغالي مانويل الأول بتاريخ ٩١٨هـ/١٥١٢م .

٢) المخطوطات العربية :

ـ ابن المطهر (عيسى بن لطف الله ت ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م) .

*** روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح . مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم٢/٢٦٢ تاريخ .**

ـ ابن المفضل (كمال الدين محمد بن إبراهيم ت ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) .

* السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية ، جامعة القاهرة .

ـ أبو السرور (البكري ت١٠٦٠هـ/١٦٥٠م) .

*** المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم ١١٠٥تاريخ .**

- باجمـال (معروف بن محمد) .

- الفوايد المفيدة فيما اختصت به حضرموت من النعم العديدة ، مخطوطة من جزءين ، مصورة على ميكروفيلم بمكتبة الدكتور عبد الله الحبيد الخاصة .

- الحيدري البغدادي (السيد إبراهيم) .

* عنوان ا د في بيان أحوال بغداد وبصرة ونجد صورة مصورة من مكتبة الدكتور/ عبد الله الحبيـد الخاصة .

- زين الدين المعبري (ت ١٠ه) .

* تحفة ا اهدين في بعض أحوال البرتكاليين مخطوط ضمن مجموعة يهودا بجامعـة برنـستن بمدينـة نيوجرسي الأمريكية ، رقم ٣٩٢٠تاريخ ، ومصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي وإحيـاء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، برقم ٥٧٥ تاريخ .

- الشلي (جمال الدين أبو العلاوي محمد ، ت ١٠٩٣ه/١٦٨٢م) .

* السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهـد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم ٦٩٩ تاريخ .

- المتوكل (إسماعيل بن أحمد) .

* تاريخ اليمن مخطوط مصور على ميكروفيلم بدار الكتب المصرية ، برقم ١٤٦٨٣تاريخ .

- مخـرمة (جمال الدين أبو الطيب محمد الطيب بن عبد الله بن عمر ، ت ٩٤٧ه/١٥٤٠م) .

*** النسبة إلى المواضع والبلدان ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم٢٣٤٤ تاريخ .**

٣) المصادر العربية :

- ابن إياس (محمد بن أحمد ، ت ٩٣٠ه/١٥٢٣م) .

* بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الرابع ، تحقيق محمد مصطفى ، د.م ، الهيئة العامة لعـصور الثقافة - مركز تحقيق التراث ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ه/١٩٨٢م .

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي ، ت ٧٧٩ه/١٣٧٧م) .

* رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، الجزء الأول ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، د.ط ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م .
ـ ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي) .
*رحلة ابن جبير ـ أدب الرحلات ، بيروت ، دار التراث ، د.ط (د.ت) .

ـ ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) .
* المسالك والممالك ، ويليه نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م ، بغداد ، مكتبة المثنى ، د.ط (د.ت) .
ـ ابن الديبع (أبو الضيا عبد الرحمن بن علي ، ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) .
* الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق يوسف شلحد ، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، د.ط ١٩٨٣م .
ـ ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي ، ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) .
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الجزءان السابع والثامن ، بيروت ، المكتب التجاري ، د.ط (د.ت) .
ـ ابن القاسم (يحيى بن الحسين ، ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م) .
*** غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عاشور ، مراجعة محمد زيادة ، القسم الثاني ، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، د.ط ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .**
ـ ابن ماجد (شهاب الدين أحمد ، ق ١٠هـ) .
* ثلاث أزهار في معرفة البحار ، تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي ، ترجمة وتعليق محمد مرسي ، القاهرة ، عالم الكتب ، د.ط ١٩٦٩م .
ـ أبو مخرمة (أبو محمد عبد الله الطيب ، ت ٩٣٧هـ/١٥٣٠م) .
*** تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل ، جزءان ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/١٩٩١م .**
ـ الإدريسي (أبو عبيد الله محمد ، ت ٦هـ) .

*** نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ا لمد الأول ، بور سعيد ، مكتبة الثقافة الدينية ، د.ط (د.ت) .**

ـ الاصطخري (أبي اسحق الفارسي) .

* كتاب الأقاليم ، بغداد ، مكتبة المثنى ، د . ط (د . ت) .

ـ الأنصاري (شمس الدين أبو عبد الله محمد أبو طالب) .

* نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، عني بتصحيحه وطبعه أغشطس بن يحيى ، بطربورغ ، مطبعـة الأكاديمية الإمبراطورية ، د . ط ١٢٨١هـ/١٨٦٥م .

ـ بافقيه (محمد بن عمر الطيب ، ت ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م) .

*** تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، صنعاء،مكتبة الإرشاد ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .**

ـ البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) .

*** معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، الجزء الثالث ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، د.ط ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م .**

ـ الحجري (محمد بن أحمد) .

* مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع ، مجلدان ، أربعة أجزاء ، صنعاء دار الحكمة اليمانية ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

ـ الحموي (ياقوت بن عبد الله ،ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .

* معجم البلدان ، تحقيق فريد الجندي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ط ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

ـ الحيمي (الحسن بن أحمد ، ت ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م) .

* سيرة الحبشة ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ، مطبعة دار العالم العربي ، الطبعة الثانية (د.ت) .

ـ الشلي باعلوي (محمد بن أبي بكر) .

* المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي ، جزءان ، بيروت ، مؤسسة فـؤاد بعينـو للتجليد ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

ـ شنبل (أحمد بن عبد الله ، ت ٩٢٠هـ/١٥١٤م) .

*** تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، د.م ، طبع على نفقة الشيخ الوجيه محفوظ سالم شماخ ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .**

ـ العيدروسي (عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ، ت ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م) .

*النور السافر عن أخبار القرن العاشر،تحقيق أحمد حالو وآخرين ، بيروت ، دار صـادر ، الطبعـة الأولى ٢٠٠١م .

ـ القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي) .

* أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، الجزء الثالث ، بيروت ، عـالم الكتـب ، الطبعـة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

ـ القرمطي (عماد الدين إدريس بن الأنف ، ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م) .

* روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار والحصون والأمصار ، تحقيق محمد بن علـي الأكوع الحوالي الحميري ، صنعاء ، دار المعرفة ، منشورات الهيئة العامة اليمنيـة للكتـاب ، د.ط ١٩٩٥م .

ـ الكندي (سالم بن محمد بن سالم بن حميد ، ت ١٣١٠هـ/١٨٩٢م) .

*** تاريخ حضرموت المسمى بالعدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، ا لمد الأول ، صنعاء ، مكتبة الإرشاد ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م .**

ـ المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) .

* أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، بيروت ، مكتبة الخياط ، د.ط ١٩٠٦م .

ـ النهروالي (قطب الدين محمد بن أحمد ، ت ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) .

* البرق اليماني في الفتح العثماني ـ تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر ، أشرف على طبعه حمد الجاسر ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

٤)المراجع العربية :

ـ ابن هاشم . محمد :

* حضرموت تاريخ الدولة الكثيرية ، الجزء الأول ، أشرف على طبعه محمد علـي الجفـري ، د.م ، طبع على نفقة الخاصة السلطانية ، د.ط ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م .

ـ أبو العلا.محمود طـه :

* جغرافية شبه جزيرة العرب ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الخامسة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

ـ أبو عيانة . فتحي محمد :

* جغرافية أفريقيا ، دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب الصحراء ، الإسـكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، د.ط ١٩٨٧م .

ـ أباظة . فاروق :

* الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢ـ ١٩١٨م ، القاهرة ، الهيئة المـصرية العامـة للكتـاب ، د.ط ١٩٨٦م .

ـ أحمد . محمد عبد العال :

* بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ٦٢٨ ـ ٩٢٣هـ/١٢٣١ـ ـ ١٥١٧م ، الإسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط ١٩٨٠م .

* البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ـ نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني بامخرمة كما سجلها في مخطوط (قلادة النحر) ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، د.ط ١٩٨٩م .

ـ الأشقر.محمد عبد الغني :

* تجارة التوابل في مصرفي العصر المملوكي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط ١٩٩٩م .

ـ الأفغاني . سعيد :

* أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، القـاهرة ، دار الكتـاب الإسـلامي، الطبعـة الثانيـة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

ـ الأكوع . إسماعيل بن علي :

* المدارس الإسلامية في اليمن ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) .

ـ أنيس . محمد :

* الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ، د.م ، دار النهضة العربية ، د.ط ١٩٦٧م .

ـ البار . محمد علي :

* سقطرى الجزيرة السحرية ، بيروت ، العصر الحديث ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

ـ باحثان . محمد بن علي بن عوض :

*** جواهر تاريخ الأحقاف ، الجزء الأول ، مراجعة وتقديم حسن جاد حسن ، تصحيح محمد عبد الله الدبوي ، القاهرة ، مطبعة الفجالة الجديدة ، د.ط ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .**

ـ باوزير .خـالد سالم :

* موانئ ساحل حضرموت ، د.م ، مكتبة دار المعرفة ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

ـ باوزير . سعـيد عوض :

* صفحات من التاريخ الحضرمي ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، د.ط ١٣٧٨هـ .

ـ البطريق . عبد الحميد :

* من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٧-١٨٤٠م)، د.م ، معهد البحوث والدراسات العربيـة، د.ط ١٩٦٩م.

* التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر ، القاهرة ، دار الفكـر العربي ، د.ط ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

ـ البكري . صلاح :

* في جنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البـابي الحلـبي وأولاده ، الطبعـة الأولى ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م .

*** تاريخ حضرموت السياسي ، جزءان ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .**

* الجنوب العربي قديماً وحديثاً ٤٠٠ق.م ـ ١٩٦٧م ، جدة ، دار العلم للطباعـة والنـشر ، د.ط (د.ت) .

ـ ترسيسي . عدنان :

* اليمن وحضارة العرب مع دراسة جغرافية كاملة ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د.ط (د.ت) .

ـ التونـي . يوسف :

* معجم المصطلحات الجغرافية ، د.م ، دار الفكر العربي ، د.ط (د.ت) .

ـ الثور . عبد الله أحمد محمد :

* هذه هي اليمن ، صنعاء ، مطبعة المدني ، د.ط (١٩٦٩م) .

ـ جبريل . محمد :

* مدينة المهاجرين (حضرموت) ، د.م ، د.ن ، د.ط (د.ت) .

ـ جرادات . وليد محمد :

*** الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر ، الدوحة ، دار الثقافة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .**

ـ الجرافي . عبد الله بن عبد الكريم :

* المقتطف من تاريخ اليمن ، تقديم إلياس عبود ، بيروت ، مؤسسة دار الكتاب الحـديث ، الطبعـة الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

* أنباء اليمن ونبلائه ، الجزءان الأول والثاني من القسم الرابع ، مصورة بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

ـ الجرو . سالم علي عبد الله :

* حضرموت الإنسان والبصمة ، الرياض ، مطبعة سفير ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .

ـ الجهني . مانع بن حماد :

- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، جزءان ، الرياض ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر ، الطبعة ١٤١٨هـ .**

ـ الحامد . صالح :

* تاريخ حضرموت ، جزءان ، جدة ، مكتبة الإرشاد ، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

ـ الحداد . محمد :

* تاريخ اليمن السياسي ، د.م ، دار الهنا للطباعة ، الطبعة الثالثة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

ـ حراز . السيد رجب :

* الدولة العثمانية وشبة جزيرة العرب ، (١٨٤٠ ـ ١٩٠٩م) ، القاهرة ، المطبعـة العالميـة ، د.ط ١٩٧٠م .

*إرتريا الحديثة (١٥٥٧ ـ ١٩٤١م) ، د.م ، معهد البحوث والدراسات العربية ، د.ط ١٩٧٤م .

ـ حسون . علي :

* تاريخ الدولة العثمانية وعلاقا ا الخارجية ، بـيروت ، المكتـب الإسـلامي ، الطبعـة الثالثـة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

ـ حنظل . فالح :

* العرب والبرتغال في التاريخ (٩٣: ١١٣٤هـ/٧١١: ١٧٢٠م) ، أبوظبي ، منشورات ا مع الثقافي ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

ـ حوات . محمد علي :

*** مضيق باب المندب ـ أهميته الاستراتيجية وتأثيرها على الأمن القومي العربي ، د.م ، مكتبة مدبولي ، د.ط (د.ت) .**

ـ رفله . فيليب وآخر:

* جغرافية الوطن العربي ـ دراسة طبيعية اقتصادية سياسية مع دراسة شاملة للدول العربية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٠م .

ـ الرمال . غسان علي محمد :

*** صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، جدة ، دار العلم للطباعة والنشر ، د.ط ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .**

ـ الزركلي . خير الدين :

*** الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، د . م ، د . ن ، الأجزاء ١ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ، الطبعة الثالثة (د.ت) .**

ـ الساداتي . أحمد محمود :

* تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ، الجزء الثاني ، القاهرة ، مكتبـة الآداب ومطبعتـها ، د.ط (د،ت) .

ـ سالم . السيد عبد العزيز :

* دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء الأول، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة ، د.ط (د.ت) .

ـ سالم . السيد مصطفى :

* الفتح العثماني الأول اليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥م) ، د.م ، جامعة الدول العربية ، معهد البحـوث والدراسات العربية ، د.ط ١٩٦٩م .

*** تكوين اليمن الحديث ـ اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨م) ، القاهرة ، دار القومية العربية للطباعة ، الطبعة الثانية ١٩٧١م .**

ـ سامي . شمس الدين :

* قاموس الأعلام ، الجزء الرابع ، إستانبول ، د.ن ، د.ط ، ١٣١١هـ .

ـ سرهنك . إسماعيل :

*** حقائق الأخبار عن دول البحار، الجزء الأول ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ١٣١٢هـ .**

* تاريخ الدولة العثمانية ، تقديم ومراجعة حسن الـزين ، بـيروت ، دار الفكـر الحـديث ، د.ط ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

ـ السقاف . عبد الرحمن بن عبيد الله :

* إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت (معجم جغرافي تاريخي أدبي اجتماعي) ، جدة ، دار المنهاج للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

ـ الشاروني . يوسف :

* سندباد في عمان ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط ١٩٨٦م .

ـ الشاطري . محمد بن أحمد عمر :

* أدوار التاريخ الحضرمي ، جزءان ، جدة ، عالم المعرفة ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

ـ شاكر . محمود :

* الكشوف الجغرافية ـ دوافعها ـ حقيقتها ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، د.ط ١٣٩٣هـ .

* أرتيريا والحبشة ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

ـ شامي . يحيى :

* موسوعة المدن العربية والإسلامية ، بيروت ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م .

ـ شرف الدين . أحمد حسين :

*اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين ـ دراسة جغرافيـة تاريخيـة سياسية شاملة ، الرياض ، مطابع البادية للأوفست ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

ـ شلبي . أحمد :

*** موسوعة التاريخ الإسلامي ، الجزءان السادس والسابع ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السادسة ١٩٩٨م .**

ـ الشماخي . عبد الله بن عبد الوهاب ا اهد :

* اليمن الإنسان والحضارة ، د.م ، دار الهنا للطباعة ، د.ط (د.ت) .

ـ الشناوي . عبد العزيز محمد :

* أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، الجزء الأول ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعـة الثالثـة ١٩٧٧م .

ـ شهاب . حسن صالح :

* أضواء على تاريخ اليمن البحري ، بيروت ، دار العودة ، الطبعة الثانية ١٩٨١م .

* عدن فرضة اليمن ، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

ـ الشيخ . رأفت :

* في تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، د.ط ١٩٧٧م .

ـ الصيرفي . نوال حمزة :

* النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، الرياض ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، د.ط ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

ـ طقوش . محمد سهيل :

*** العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (٦٩٨ـ١٣٤٣هـ/١٢٩٩ـ١٩٢٤م) ، بيروت ، دار بيروت المحروسة ، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) .**

ـ طه . جاد :

* سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، د.م ، دار الفكر العربي ، د.ط ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠م .

ـ عابدين . عبد المجيد :

* الحبشة والعرب ، د.م ، دار الفكر العربي ، د.ط (د.ت) .

ـ عبد العليم . أنور :

*** الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، د.ط ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .**

ـ عقيل . مصطفى :

*** التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ـ١٧٦٣م ، الدوحة ، مؤسسة العهد للصحافة والطباعة والنشر ، الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ/١٩٩٤م) .**

ـ علي . جواد :

* المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزءان الرابع والسابع ، بيروت ، دار العلـم للملايـين ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م .

ـ غيث . فتحي :

* الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، د.م ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، د.ط (د.ت) .

ـ قدورة . زاهية :

* شبه الجزيرة العربية كيانا ا السياسية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، د.ط (د.ت) .

ـ الكاف . سقاف علي :

* حضرموت عبر أربعة عشر قرناً ، بيروت ، مكتبة أسامة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

ـ كامل . محمود :

* اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، د.ط ١٩٦٨م .

ـ لقمان . حمزة علي إبراهيم :

- تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ، دار مصر للطباعة ، د.ط ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

ـ محمود . محمود توفيق :

*** المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، دراسة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكس ، الرياض ، دار المريخ للنشر ، د.ط ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .**

ـ مختار باشا .محمود :

* التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية ، مجلدان ، تحقيق محمـد عمارة ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠.

ـ المصري . جميل عبد الله محمد :

*** حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة ، الجزء الأول ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م .**

ـ الناصر . علي حسين السليمان :

*** النشاط التجاري في شبة الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى (١٢٥٠ـ١٥١٧م) ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .**

ـ نعنعي . عبد ا يد :

* أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة (١٤٥٣ـ١٨٤٨م) ، بيروت ، دار النهضة العربيـة ، د.ط ١٩٨٣م .

ـ نوار . عبد العزيز سليمان :

* الشعوب الإسلامية...الأتراك العثمانيون ـ الفرس ـ مسلو الهند ، بيروت ، دار النهضة العربيـة ، د.ط ١٩٧٣م .

ـ يحيى . جلال :

* معالم التاريخ الحديث ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، د.ط ١٩٧٦م .

٥) المراجع المترجمة للغة العربية :

ـ بانيكار .ك. م :

- **آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة أحمد خاكي ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ط ١٩٦٢م .**

ـ بيرين . جاكلين :

* اكتشاف جزيرة العرب (خمسة قرون من المغامرة والعلم) ، ترجمة قدري قلعجي ، قدم له الشيخ حمد الجاسر ، بيروت ، دار الكاتب العربي ، د.ط (د.ت) .

ـ الحبشي . محمد عمر :

* اليمن الجنوبي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً منذ عام ١٩٣٧م وحتى قيام جمهورية اليمن الجنوبيـة الشعبية ، ترجمة إلياس فرح وآخر ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م .

ـ سارجنت . آر.بي :

*** مقالات حـول مصادر التاريخ الحضرمي ، ترجمة سعيد عبد الخير النوبان ، نشر جامعة عدن ، د.ط ١٩٩٠م .**

ـ س .وير. جديون :

* تاريخ جنوب أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، الرياض ، دار المـريخ للنـشر ، د.ط ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

ـ كرا تشكوفسكي . أ.يو :

***تاريـخ الأدب الجغرافي العربي ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .**

ـ لوريمر. ج. ج :

* دليل الخليج ـ القسم التاريخي ، الجزء الأول ، قطر ، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني ، د.ط (د.ت) .

ـ ماكرو . إريك :

*** اليمن والغرب ١٥٧١ـ١٩٦٢م ، نقله إلى العربية حسين عبد الله العمري ، دمشق ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .**

٦)الدوريات العامة :

ـ بابكور . عمر بن سالم :

* الدعوة في السودان وتأثرها بالدعوة السلفية ، دراسة تاريخية وثائقية ، مجلة جامعة أم القرى لعلـوم الشريعة واللغة العربية وآدا ا ، الجزء الثالث عشر ، العدد٢٢ ، عام ١٤٢٢هـ .

ـ بركات . أبو العيون :

* المدينة اليمنية القديمة ، مجلة كلية الآداب ، ا لد الثالث والأربعين ، ١٩٩٤/١٩٩٥م .

ـ الجاسر . حمد :

*** لمحات عن أسواق العرب القديمة ، مجلة العرب ، الجزءان السابع والثامن ، السنة ٢٣ ، عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .**

ـ حداد . عبد الله صالح :

* الشحر وأسماؤها الأخرى ، مجلة العرب ، الجزءان الثالث والرابع ، السنة الثانية والثلاثـون ، عـام ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م .

ـ حسن . يوسف فضل :

*** الصراع حول البحر الأحمر ، دارة الملك عبد العزيز ، العدد ٣٤ ، السنة الثامنة ، ربيع الثاني ـ جمادى الأولى والآخرة ، عام ١٤٠٣هـ/يناير ـ فبراير ـ ومارس ١٩٨٣م .**

ـ حميد . محمد أبو بكر :

* حضرموت فصول في التاريخ والثقافة ، القاهرة ، جميعه أصدقاء علي أحمد بـاكثير الثقافيـة ، عـام ١٤٢٠هـ .

ـ الحبيد . عبد الله حامد :

* سفارة الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم إلى البلاط الملكي في عاصمة الحبشة جوندار عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة ، العدد الثالث ، الـسنة الثالثة عام ١٣٩٧ـ١٣٩٨هـ .

*** المماليك الجراكسة في اليمن ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، العدد الأول ، عام ١٣٩٨هـ .**

ـ الربيعي . إسماعيل نوري :

* المرحلـة الثانية من التنافس بين طريق رأس الرجاء الصالح وطرق القوافل التقليدية ، مجلة تـاريخ العرب والعالم ، العدد ١٤٤، السنة ١٣(محرم ـ صفر) عام ١٤١٤هـ/يوليو ـ أغسطس ١٩٩٣م .

ـ صالحية . محمد عيسى :

- **التدخل العثماني في اليمن ١٣٤٤ـ١٣٩٨هـ/١٩٢٤ـ١٩٧٨م ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٤ ، السنة السادسة ، ذو القعدة ١٤٠٠هـ/أكتوبر ١٩٨٠م .**

ـ طرخان . إبراهيم علي :

* **الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ، المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، المجلد الثامن ، العدد الخامس ١٩٥٩م .**

ـ العيدروس . محمد حسن :

* تنافس شركتي الهند الشرقية الهولندية والبريطانية في بندر عباس ١٦٢٣ ـ ١٦٤٥م ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، العدد ٨٠ ، السنة الحادية والعشرون عام ١٩٩٦م .

ـ الغامدي . عبد الكريم عبد الله :

* **عمارة المسكن وتخطيطـه في جنوب شبة الجزيرة العربية في عصر ممالكها القديمة على ضوء المكتشفات الأثرية ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ـ الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد الثامن، عام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.**

ـ محمود . صالح رمضان :

* **الصراع البرتغالي في اليمن ١٥١٧ ـ ١٥٣٨م ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٤٧ ، السنة ١٢، شوال ١٤٠٦هـ/يوليو ١٩٨٦م .**

ـ النجار . مصطفى عبد القادر :

* شركة الهند الشرقية ـ ملامحها وأبرز سماتها في الخليج العربي ١٦٠٠ ـ ١٨٥٨م ، مجلة دراسـات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ١٥ ، السنة الرابعة ، رجب ١٣٩٨هـ/يوليو ١٩٧٨م .

ـ نوار . عبد العزيز :

* ابن ماجد ، جغرافي عربي لا نعرفه ، مجلة الهلال ، العدد ١٠ ، السـنة ٧٢ ، ٢٥جمـادى الأولى ١٣٨٤هـ/١١ أكتوبر ١٩٦٤م .

ـ المعرفة :

* **الكشوف البحرية في القرن السادس عشر الميلادي ، المجلد الأول والمجلد الثامن عشر ، جنيف ، شركة ترادكسيم .**

ـ الموسوعة العربية العالمية :

* الجزءان ٢٤/٢٢، الرياض ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

٧) الرسائل الجامعية التي لم تنشر :

ـ بابكور . عمر بن سالم :

* **حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن العاشر الهجري ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث بجامعة أم القرى ، لم تنشر بعد ـ ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .**

ـ الصيرفي . نوال حمزة :

* الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث بجامعة أم القرى ، لم تنشر بعد ـ ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

ـ المبارك . حصة ناصر :

* الحياة الاقتصادية في اليمن ـ عهد بني رسول ٦٨٢ ـ ٨٥٨هـ/١٢٣٠ ـ ١٤٥٤م ، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى ، لم تنشر بعد ـ ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

ـ المدخلي . محمد ربيع :

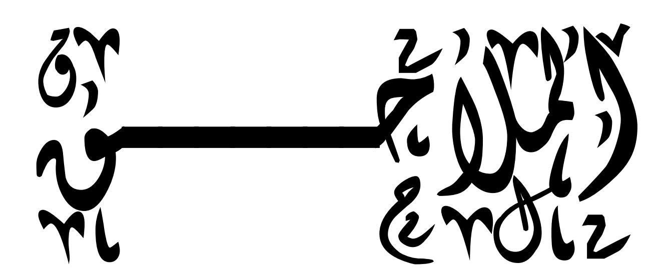
* الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عصر السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري ٨٩٤ : ٩٢٣هـ ، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى ، لم تنشر بعد ـ ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

٨) المراجع التركية :

-Orhonlu , Gengiz
*Habes Eyalete , Istanbul ,1974.
-Yavaz , Dr. Hulusi
*Yemen' de Osmanli Hakimiyeti (1517-1571) cagaloglu Istanbul, 1984
-Islam Ansiklopedisi .Istanbul. 1979. cilt x1 .
مادة الشحر في دائرة المعارف الإسلامية التركية ، الجزء ١١ .

٩) المراجع الأجنبية :

-Bell , Christophe
*Portugal and the Quest for the Indies , London , 1974.
-Danver , Frederic Charles
*The Portuguese in India , Volumes "1-2" , 1966.
-Meulan , D.van and Wissman .H.Von
*Hadramut , London , 1964.
-Milles , S.B.
*The Countries and tribes of the Persian Gulf , London, 1966.
-Santos , Jost Rtancisco
*Afonso De Albuquerque Sonho Da India , 1977.
- Serjeant , R.B.
* The Portuguese off the South Arabian Coast , Beirut , 1974.
- Sousa , Faria
* The history of the Discovery and conquest of India by the Portuguese, Translated in to English"by John Stevens,"Volumes."1-2-3 "London,1894.
-Tamrat
* Ethiopia the Red Sea in the Cambridje history of Africa,Volume "3" . London , 1977.
-W , Hecly
* Histoire du Commerdu Levant , Aumoyen Agem "2" Leipgey, 1925.


الملاحق

ملحـــــــــــــــــق

الوثائق والمخطوطات

وثيقة رقم (١)

رودس فى ٢٩ مارس سنة ١٥١٢ م

السويس ، البحر الأحمـــر ، سيناء ، أثيوبيا ، سوكوتورا

معلومات عن خطط سلطان القاهرة ضد البرتغاليين

أندرى دو أمرال مستشار رودس وقائد VERA CRUZ يبلغ مـــلك البرتغال بأن سلطان القاهرة يخطط لتحطيم القوة البرتغالية فى الشرق وقد أمر ببناء عشرين سفينة شراعية وغيرها بالسويس ويرى دو أمرال أنه من المفيد تحطيم هذه السفن والمعدات الحربية قبل أن تكون جاهزة لأن السلطان لو انتصر مرة سوف يتشجع لمحاولات أخرى .

كما يبلغه أيضا عن الملاحة فى البحر الأحمر موضحا أن البحر كـــــــــــان مرتفع الأمواج (هائجا) نتيجة لجبال أثيوبيـــا وسيناء العالية ، وكان الفارو فاز دا فونسكا ALVARO VAZ DA FONSECA أحد البرتغاليين المرتدين هو الذى شجع سلطـــان القاهرة ليأخذ موقف تجاه التحصينات البرتغالية . وقد سأل مـــلك جزيرة سوكوتورا سلطان القاهرة لمساعدته بحريا (١) .

* رسالة مرسلة من القائد البرتغالي (اندري دو أمرال ، إلى ملك البرتغال بتاريخ (٩١٨هـ/١٥١٢م) ، مركـز دراسات الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، بالقاهرة .

وثيقة رقم (٢)

كوشيم فى أول ديسمبر سنة ١٥١٢ م
ملقا كلكتـــا

خطاب من ملك كوشيم الى د . مانويل الأول يشكر ملـــك كوشيم ملك البرتغال للكرم واللطف الذى يلاقوه من شعب البرتغـــال ويعد بأن مملكته سوف تحترم البرتغال طالما هو وورثته على قيد الحياة. كان ملك أوشيم سعيدا لأن د . مانويل قد قبل الفيل الهدية الذى قدمه له .

ولقد قدم لـ ... ووالديه بعد أن اعتنقوا الديـــن المسيحى الاحترام والتقدير والمساعدة حيث كانت هذه رغبة مـــلك البرتغال . وكان الفلفل جاهزا للشحن الى البرتغال ولكن لا تصل السفن أحيانا فى الميعاد . ونقلت السفن البضائع من ملقـــا دون موانع أو عوائق .

ولقـد نصح د . مانويل ليأخذ حـــذره من ملك كلكتا لأنـــه كان خائنا ولا يجب التباحث معه فى السلام .

وقد ذكر فى رسالته أن لديه قرنفل وتوابل أخرى فى انتظـــار السفن البرتغالية .

* رسالة مرسلة من ملك كوشن إلى ملك البرتغال (مانويل الأول) بتـاريخ (٩١٨هـ ـ /١٥١٢م) ، مركـز دراسات الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، بالقاهرة .

وثيقة رقم (٣)

هرمز ، مسقط ، مكة ، فارس ، باكورا

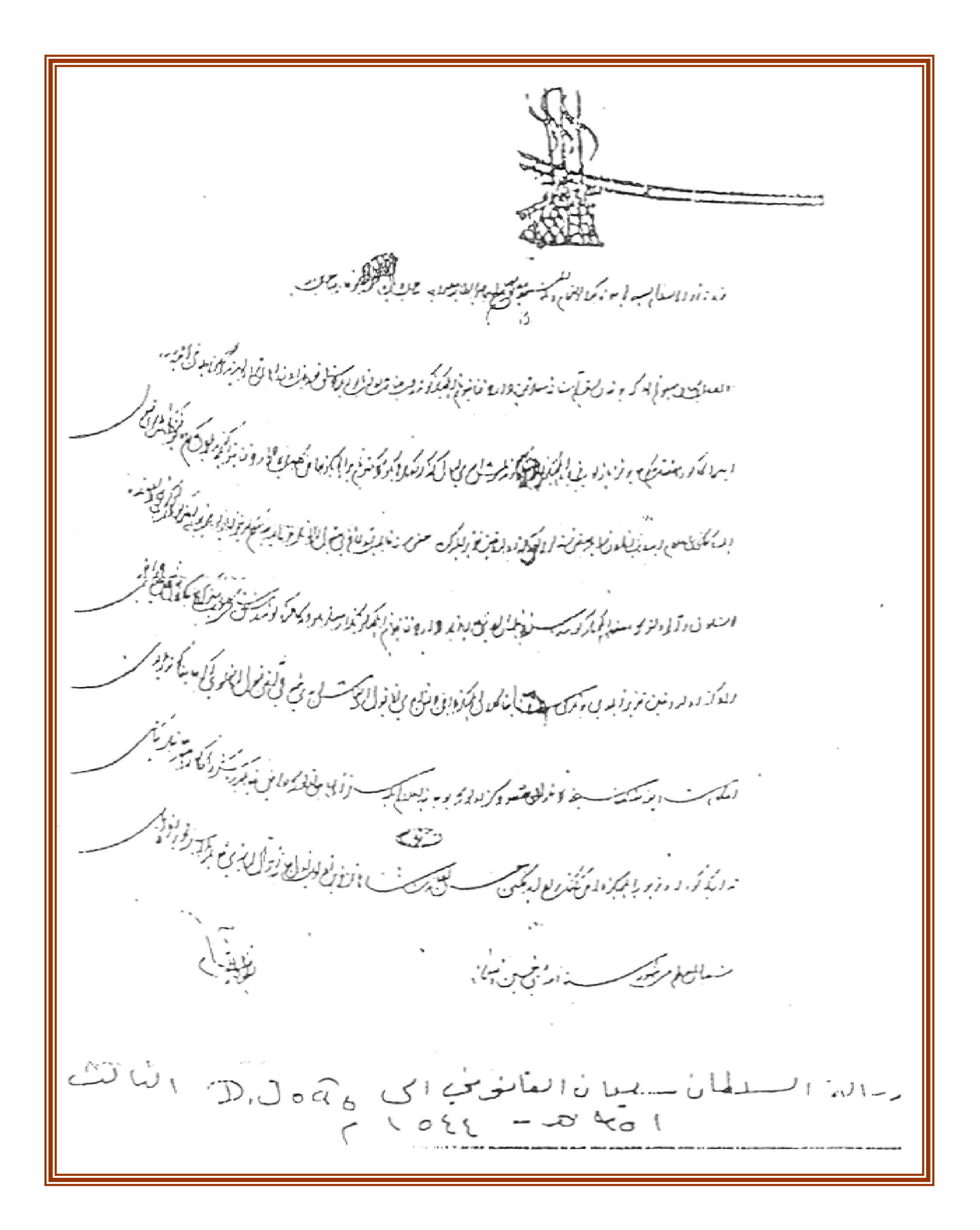
لشبونه ٥ ابريل عام ١٥١٨ .

خطاب من حكام البرتغال الى كونت ويدجيرا

اتصل حكام البرتغال مع نائب ملك الهند واتخذت القرارات التالية بواسطة الملك ويقع العقاب على هؤلاء الذين يأخذوا الفلفل الى هرمز ومسقط ويوضع حرس فى مضيق هرمز لتفتيش المسافرين الى تلك الحصون والى مضيق مكة ، ويقيم حرس فى قلعة مسقط لمنع تفريغ الفلفل المأخوذ من هناك الى الوطن الأصلى ، دراسة ميزات الترخيص للسماح للأماكن الأخرى ومضيق فارس بدون اعاقة هؤلاء المسافرين الى باكورا لأن هذا سوف يوفر فوائد مالية للخزانة الملكية للتعامل مع البرتغاليين الذين يسهلون رحلات الألمان الى البحار الجنوبية بالحيطة كل الحصون بالقلاع فى الهند لكى تعرف فى المملكة

* خطاب مرسل من حكام الثغور البرتغالية في الشرق الأفريقي والخليج العربي إلى نائب حاكم الهند بتاريخ (٩٢٤هـ/١٥١٨م) ، مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، بالقاهرة .

وثيقة رقم (٤)



* رسالة السلطان سليمان القانوني إلى الملك البرتغالي D. Joao الثالث عام ٩٥١هـ/١٥٤٤م ، من أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول .

وثيقة رقم (٥)

[illegible]

دفتر مهمة ← 2100 (HIIM)

MÜHIMME DEFTERI NO-7

*** حكم صادر من الباب العالي عام ٩٧٥هـ/١٥٦٧م ، وثيقة رقم ٢١٠٠ من دفتر المهمة رقم ٧ ، أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول .**

وثيقة رقم (٦)

بسم الله الحي الأزلي

من عبدكم [illegible] اباسلاد برسجوان الى جمهورنا السلطان منويل نصره الله تعالى

اعلمكم بانا وردنا من جناب قبطور البندارس [illegible] الى البحر ان [illegible]

وان [illegible] لا اعطاني زاد [illegible] لنا [illegible] باب الحبشة الى

برسجوان وقلت له [illegible] مثل ما قال للسلطان عمر فتنبل في

مصوع قال [illegible] الى [illegible] عسكر [illegible]

وقلت له في [illegible] فوده [illegible] مثل ما قال للسلطان قال [illegible]

ما [illegible] شي [illegible] يروح الى الحبشة قلت له [illegible] للسلطان

ان [illegible] ما [illegible] ارسل معي اثنين [illegible] واثنين [illegible] واحد

[illegible] واحد [illegible] واحد [illegible] من [illegible]

للسلطان [illegible] الى [illegible] ما احب [illegible] من ملك الحبشة [illegible]

واهل بر الحبشة [illegible] والرهبان والقسوس [illegible] ان البر [illegible]

[illegible] كثير من [illegible] برسجوان قال [illegible] ما [illegible] شي

[illegible] من [illegible] من [illegible]

[illegible] ما [illegible] من بلاد المسلمين الا من مصوع [illegible]

[illegible] الى [illegible] من [illegible] قلت ما انزل [illegible]

[illegible] للسلطان منويل [illegible] الى الهرموز ارسل الى [illegible] عسكر [illegible]

انزل في الهرموز قلت [illegible] السلطان انا ما انزل في الهرموز في بلاد المسلمين

[illegible] ان [illegible] الحرب انا

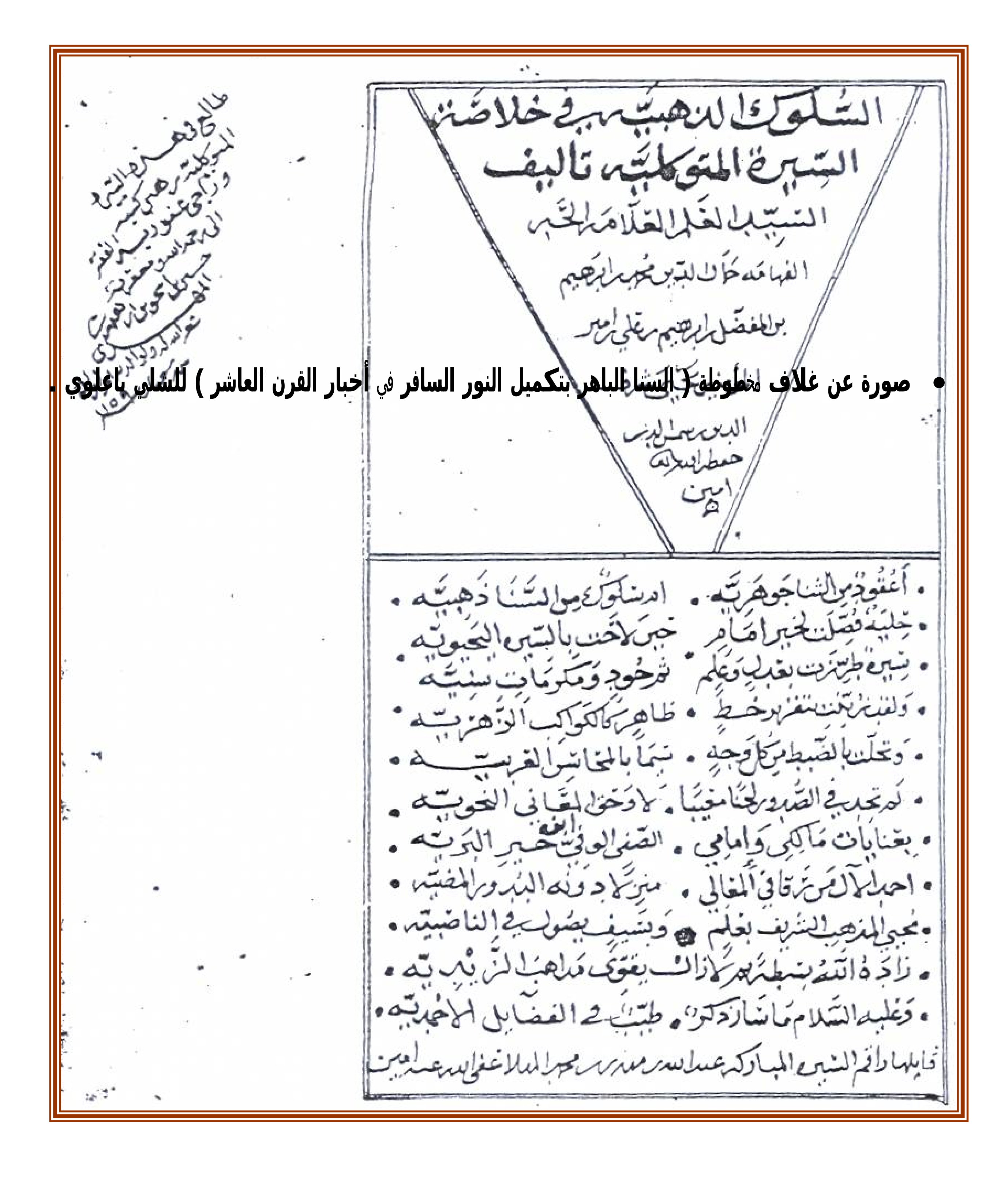
[illegible] من بلاد المسلمين انا اروح الى [illegible]

[illegible] الى [illegible] للسلطان [illegible]

* رسالة المبعوث الحبشي إلى ملك البرتغال عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م . مركز الوثائق والدراسات ، أبو ظبي .

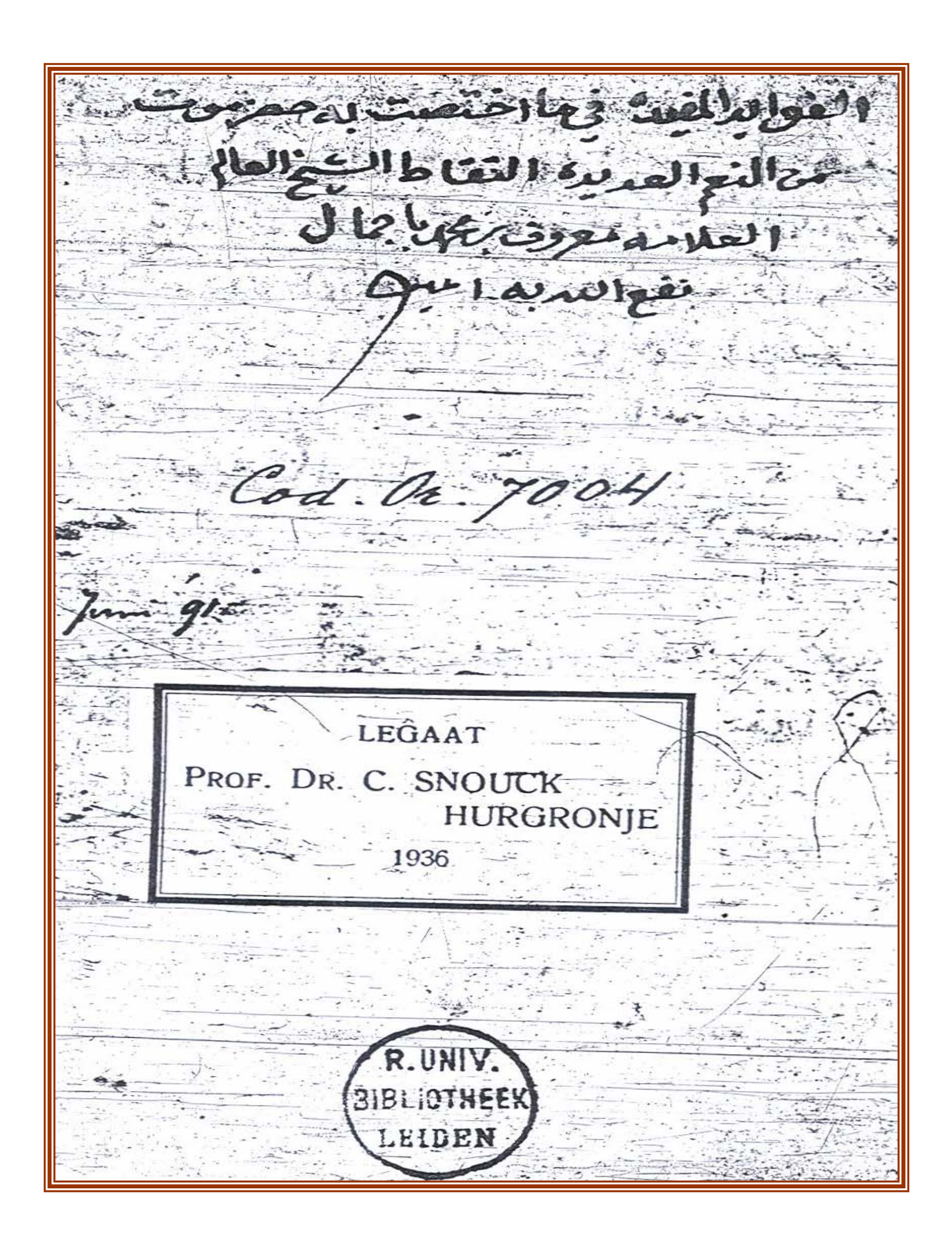


- **صورة عن غلاف مخطوطة (روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح) لابن المطهر .**


السلوك الذهبية في خلاصة
السيرة المتوكلية تأليف
السيد العلامة الحبر
الفهامة جمال الدين محمد بن إبراهيم
بن المفضل بن إبراهيم بن علي

• صورة عن غلاف مخطوطة (السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر) للشلي باعلوي .

• صورة عن غلاف مخطوطة (السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية) لابن المفضل .

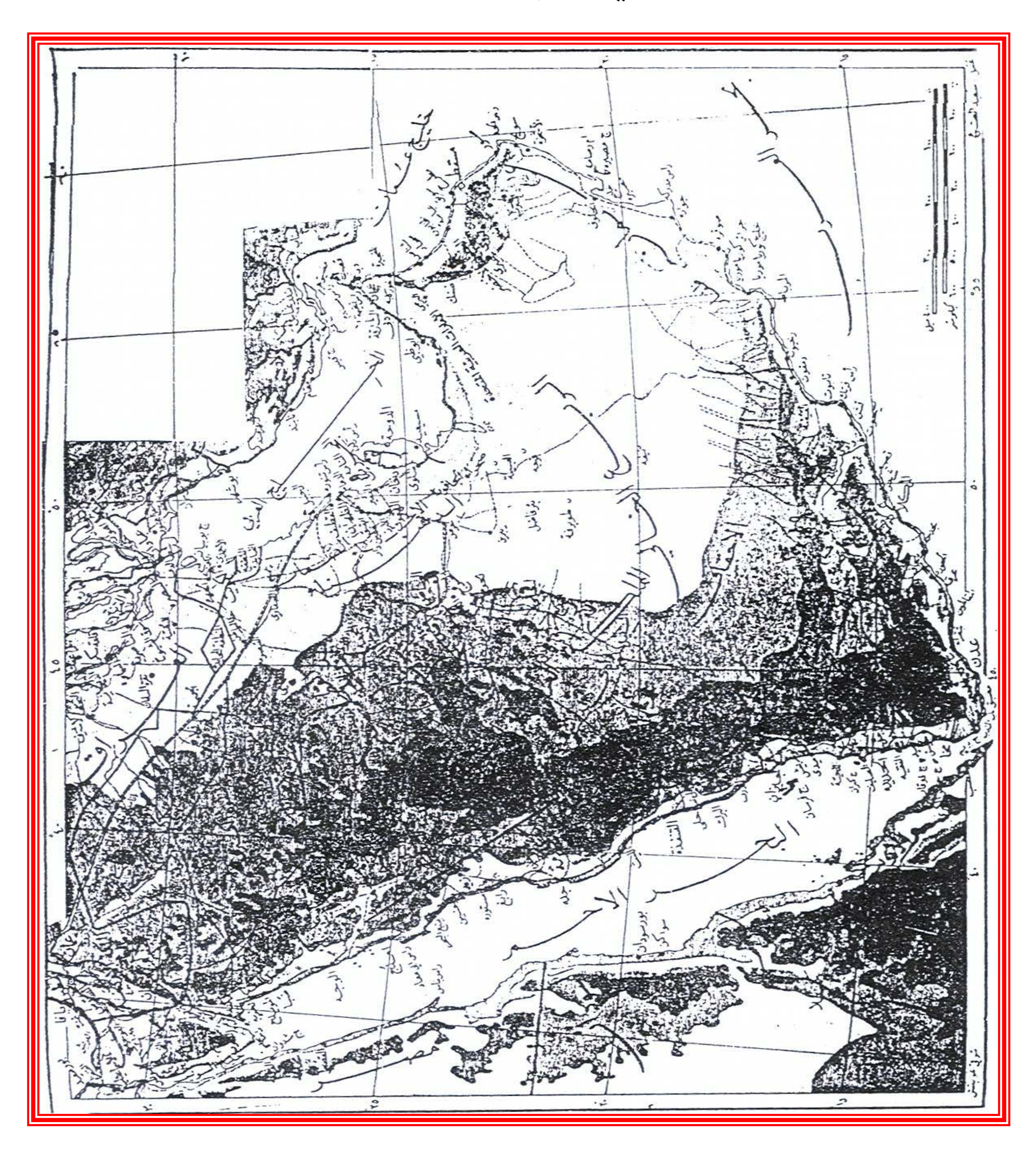


- **صورة عن غلاف مخطوطة (الفوايد المفيدة فيما اختصت به حضرموت من النعم) للشيخ معروف باجمال .**

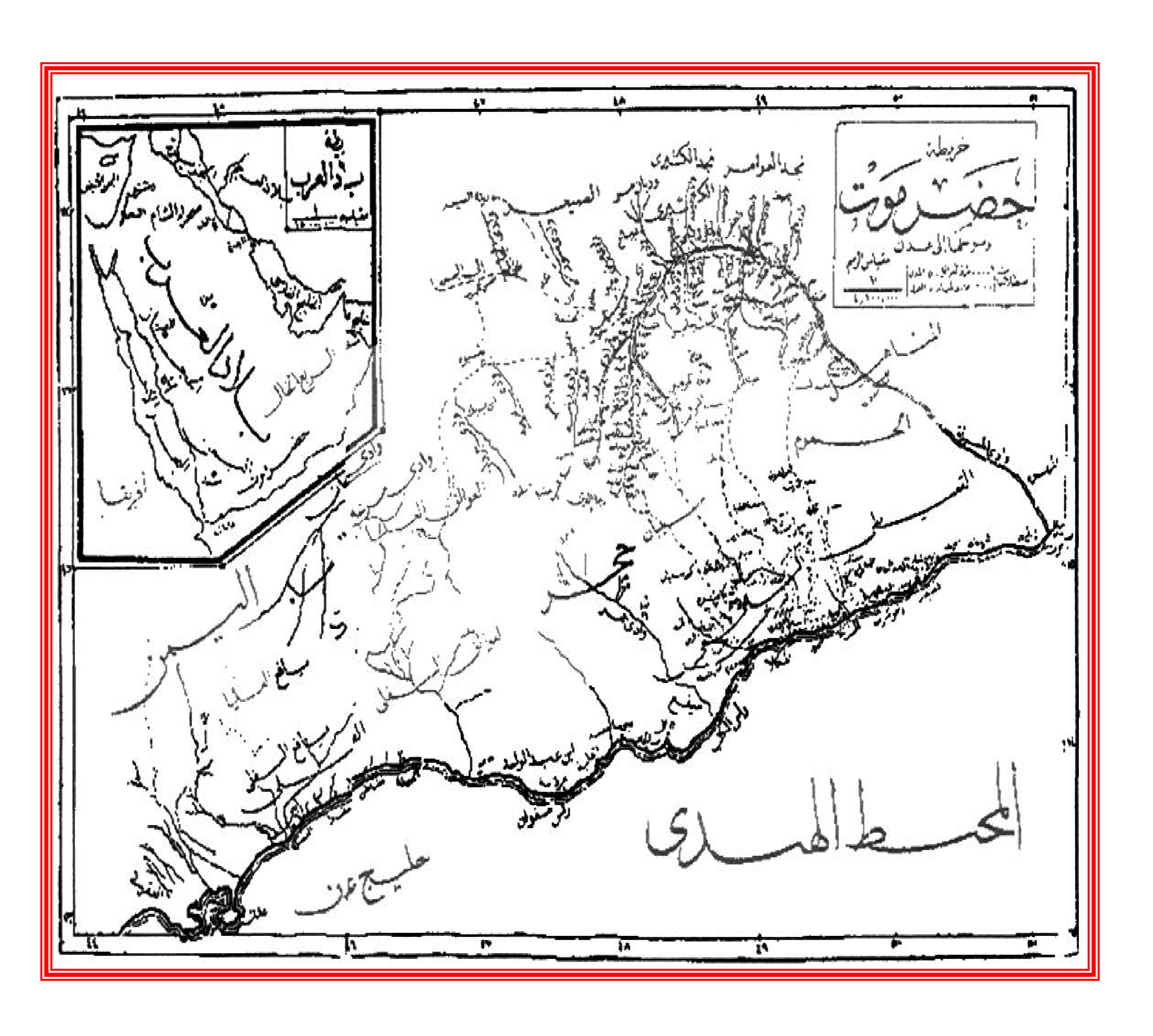
ملحـــــق

الخرائـــــط

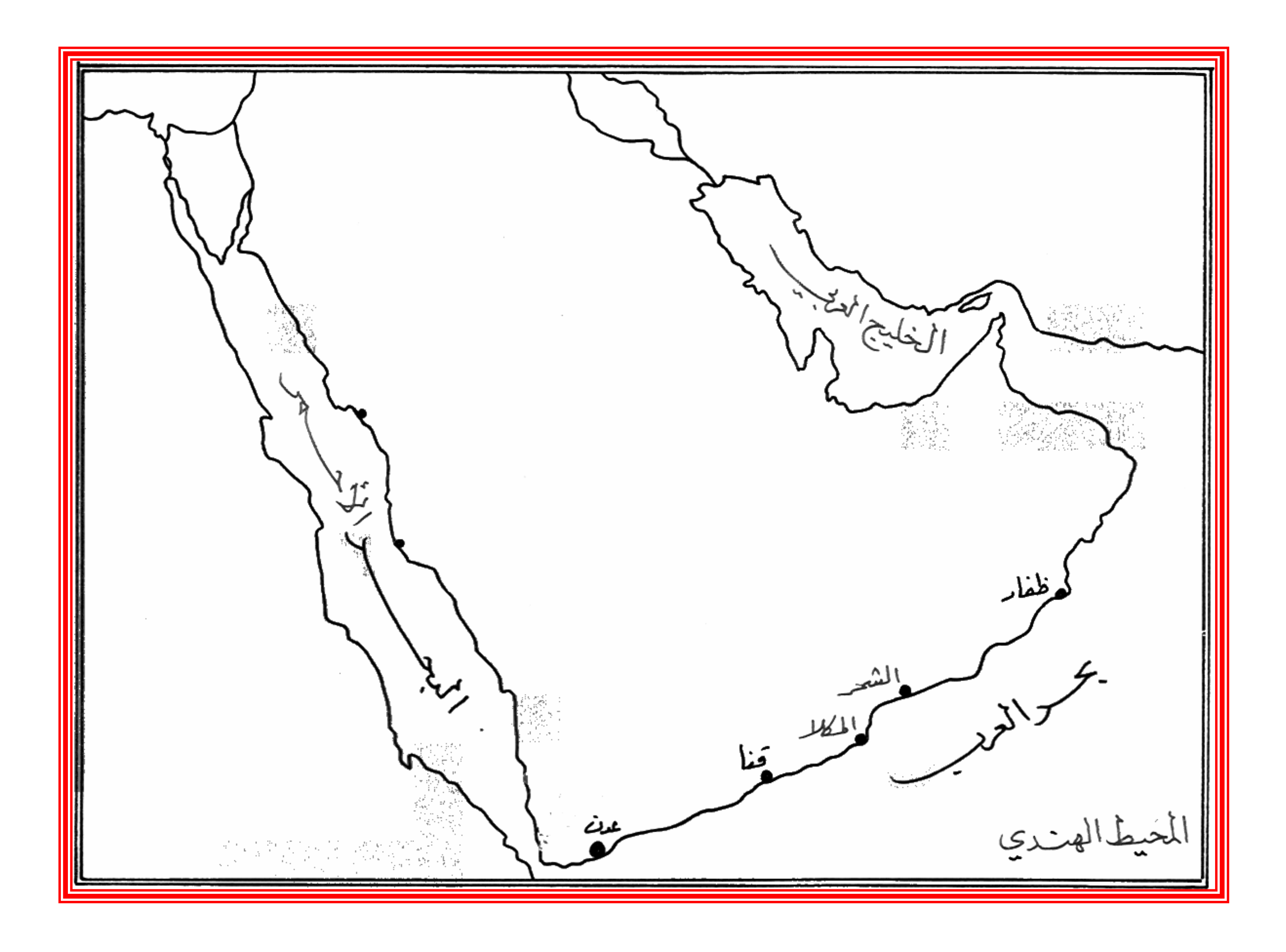
خريطة رقم (١)



خريطة رقم (٢)



خريطة رقم (٣)

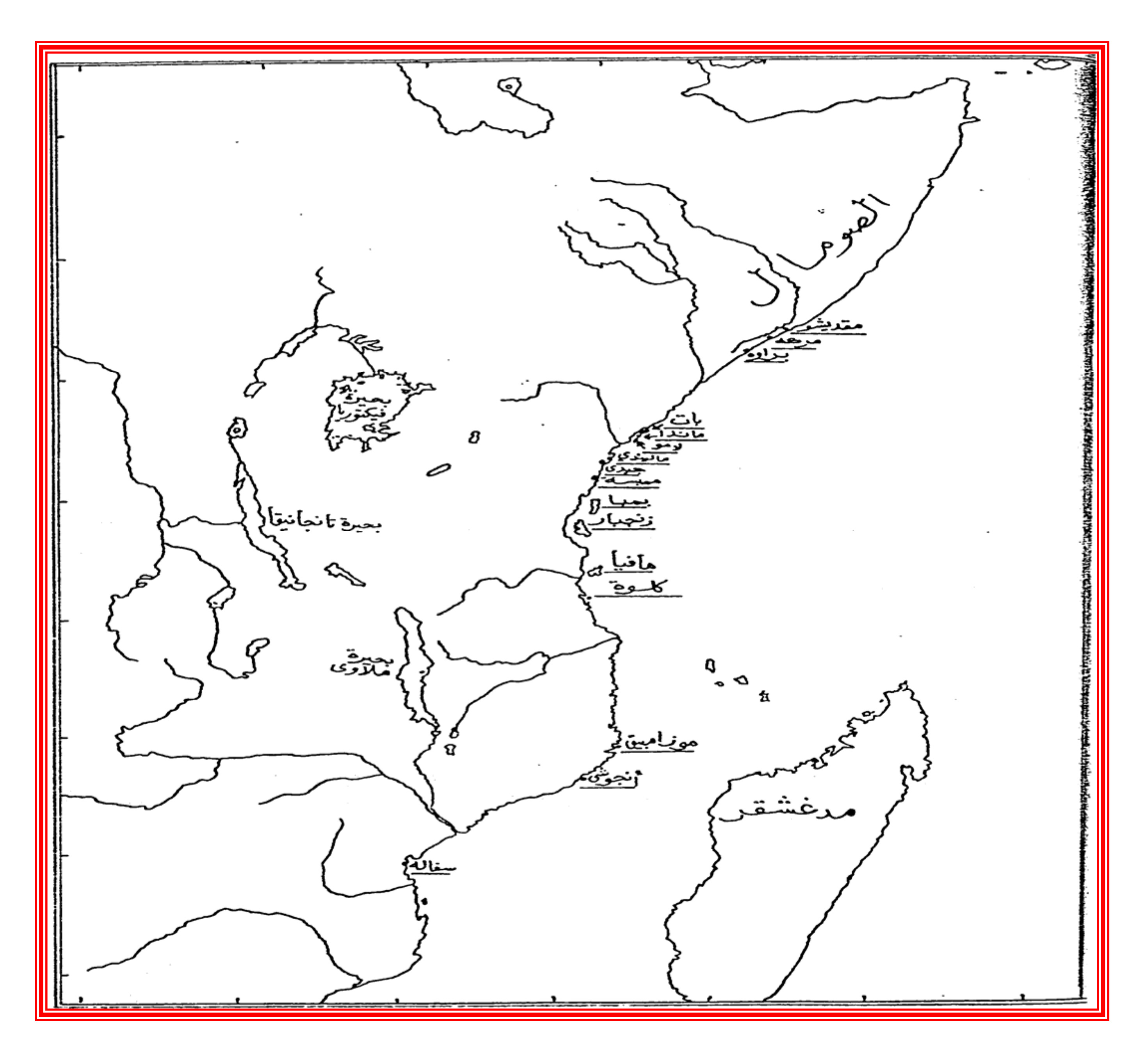

الخليج العربي
ظفار
الشحر
المكلا
قنا
عدن
بحر العرب
المحيط الهندي

خريطة رقم (٤)



نهر النيل
جدة
مكة
سواكن
مصوع
دهلك
صنعاء
الحديدة
اليمن
مخا
أكسوم
تيجراي
الحبشة
غوندار
أمحرة
زيلع
بربرة
رأس جوردافوي
عدل
هرر
دوارو
هدية
بالي
النيل الأبيض
الصومال
مقديشو
براوة
بحيرة فكتوريا

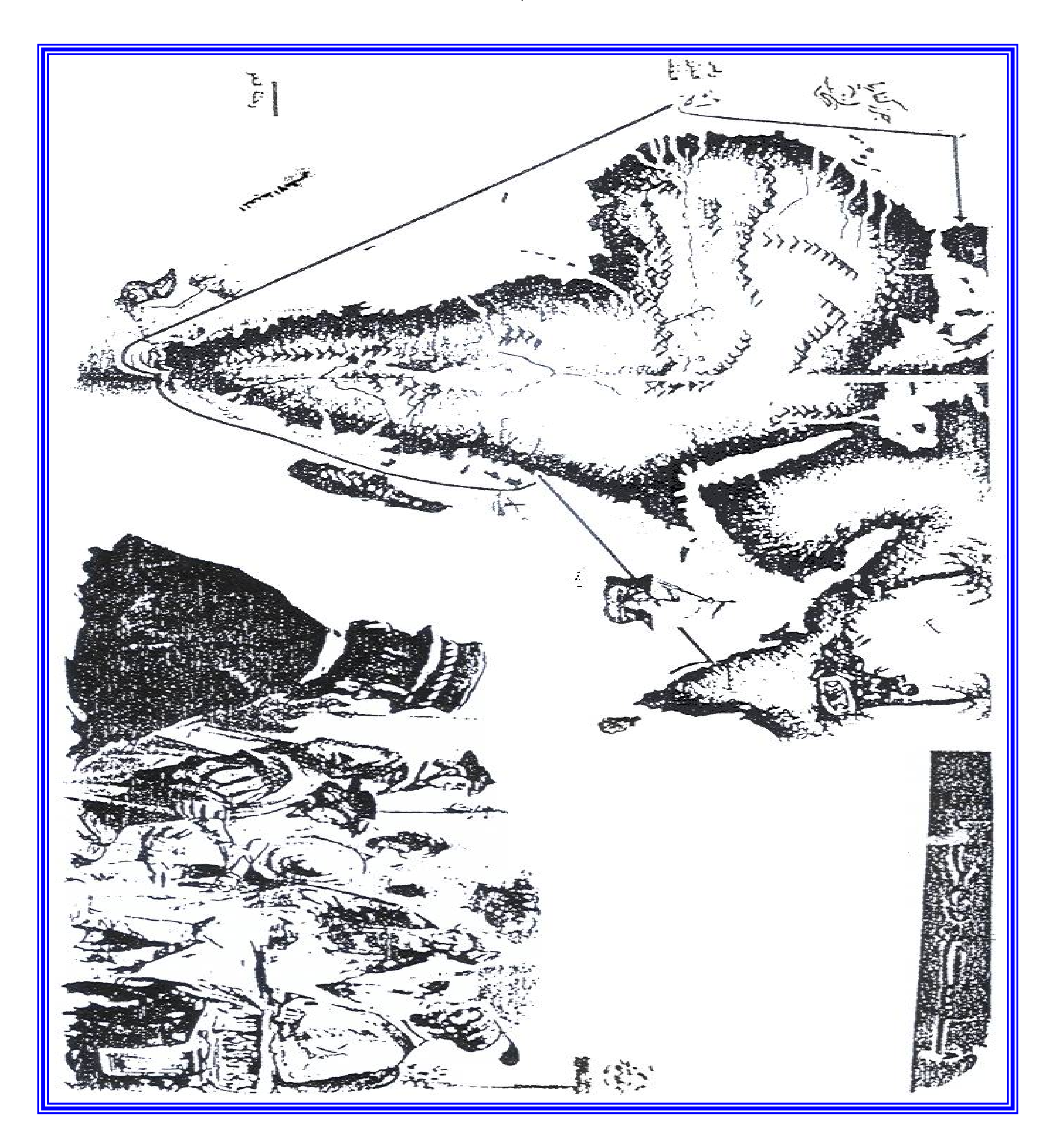
خريطة رقم (٥)



- **الدويلات الإسلامية في ساحل شرق أفريقيا المطل على المحيط الهندي [١] .**

(١) نوال الصيرفي ، الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا ، ص ٤١١ .

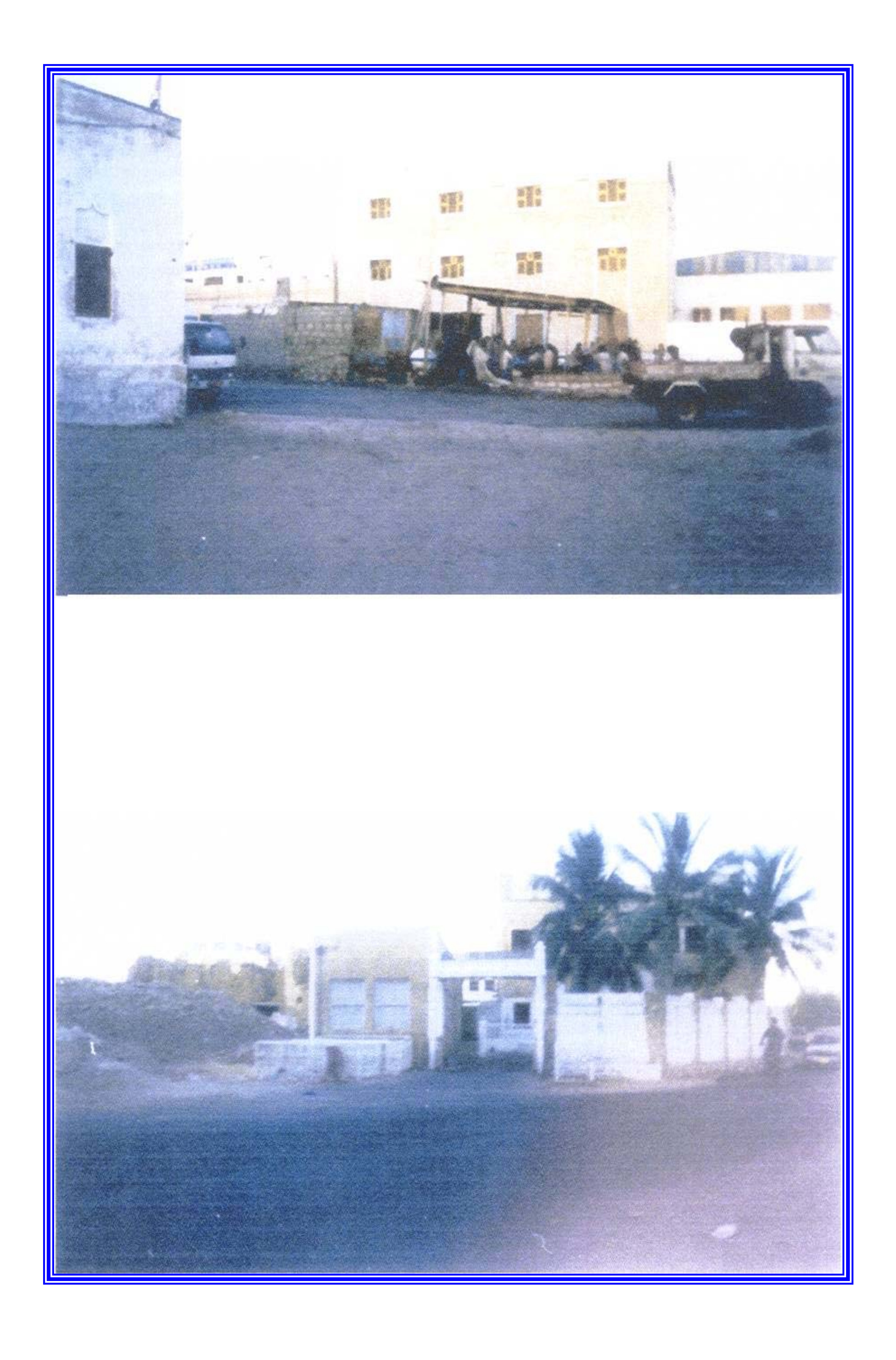
صوره رقم (١)



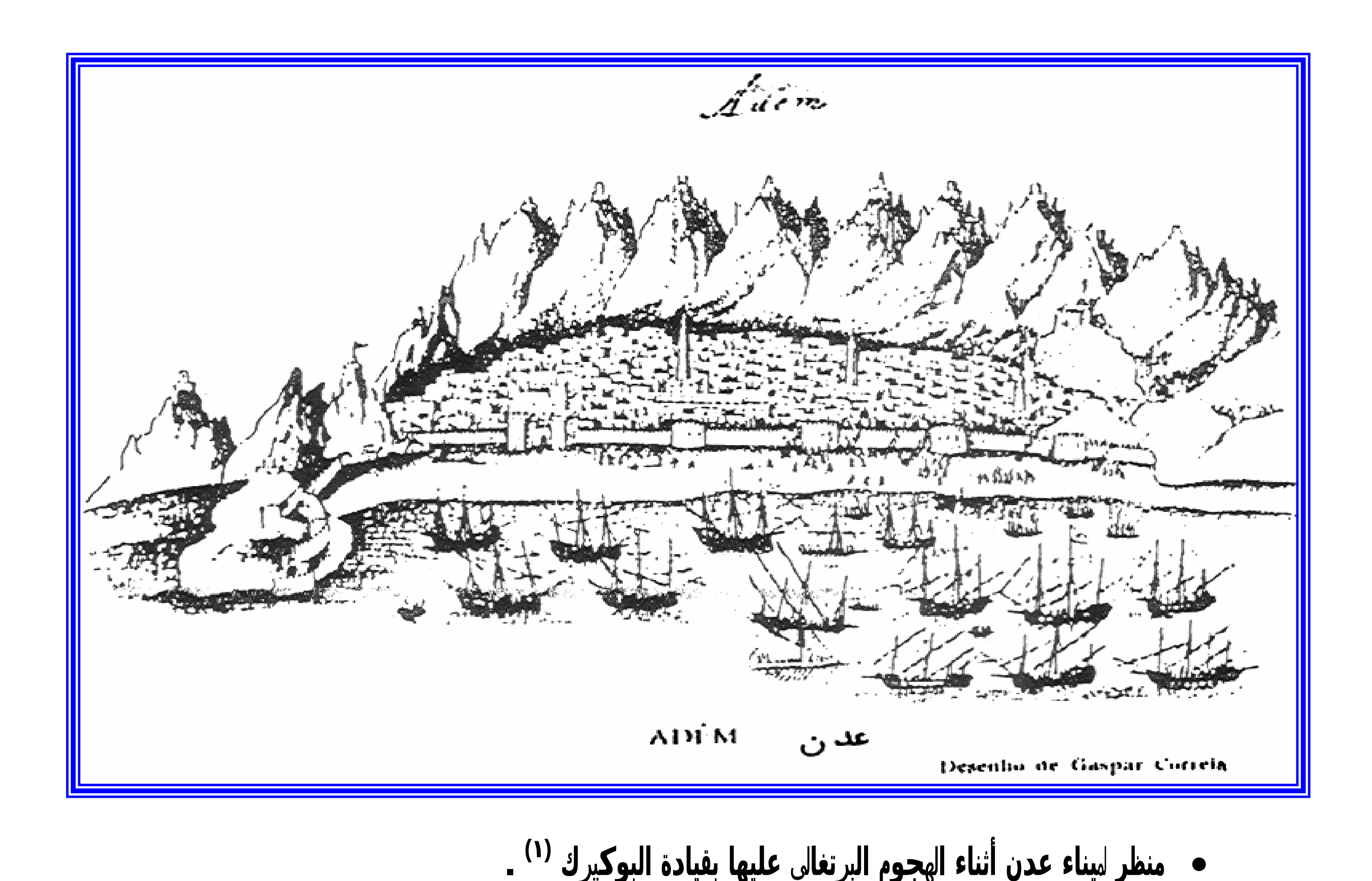
- **صورة لفاسكو دي جاما وهو يسلم رسالة ملك البرتغال عما نويل لسلطان كجرات ، وكذلك خريطـة** تبين **خط سير رحلة فاسكو دي جاما عبر رأس الرجاء الصالح** عام **٩٠٣هـ ـ ١٤٩٧م** [1] **.**

(١) المعرفة ، المجلد الأول ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

صوره رقم (٣)



صوره رقم (٢)



- منظر لميناء عدن أثناء الهجوم البرتغالي عليها بقيادة البوكيرك [١] .

DR. Jost Rtancisco Dos Santos : Afonso De Albuguergue Sonho De India. .272. (١)

الدلالات والرموز

التي وردت في الرسالة

الرمـــز	دلالتـــــــــه
ج	الجزء
د . ت	دون تاريخ للطبع
د . ط	دون طبعة
د . م	دون مكان للنشر
د . ن	دون ناشر
ص	الصفحة
ط	الطبعة
ق	ورقة المخطوطة
م	ا لمد

فهرس المحتويات

الفصل الثالث :	
نتائج الغزو البرتغالي للشحر	١٣٠ - ٩٧
أ) سيطرة البرتغاليين على مراكز التجارة في جنوب غربي شبة الجزيرة العربية ...	**٩٨**
ب) تحالف البرتغاليين مع الحبشة وموقف العثمانيين من ذلك التحالف	**١١١**
ج) لفت أنظار القوى الأوروبية لأهمية موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية	**١٢٢**
د) آثار الغزو البرتغالي على سكان الشحر	**١٢٨**
الفصل الرابع :	
أهم مظاهر التطور الحضاري في منطقة الشحر	١٥٨ - ١٣١
أ) المظاهر العمرانية (التحصينات الحربية ـ المرافق العمرانية الأخرى)	**١٣٢**
ب) الحياة العلمية (العلوم الشرعية ـ العربية ـ التطبيقية)	**١٣٩**
ج) الحالة الاجتماعية (عناصر السكان ـ العادات والتقاليد)	**١٥٣**
الخاتمة :	**١٦٠ ـ ١٦٩**
المصادر والمراجع :	**١٧١ ـ ١٨٧**
الملاحق :	
أ) ملحق الوثائق والمخطوطات	
ب) ملحق الخرائط	
ج) ملحق الصور	
قائمة الدلالات والرموز :	